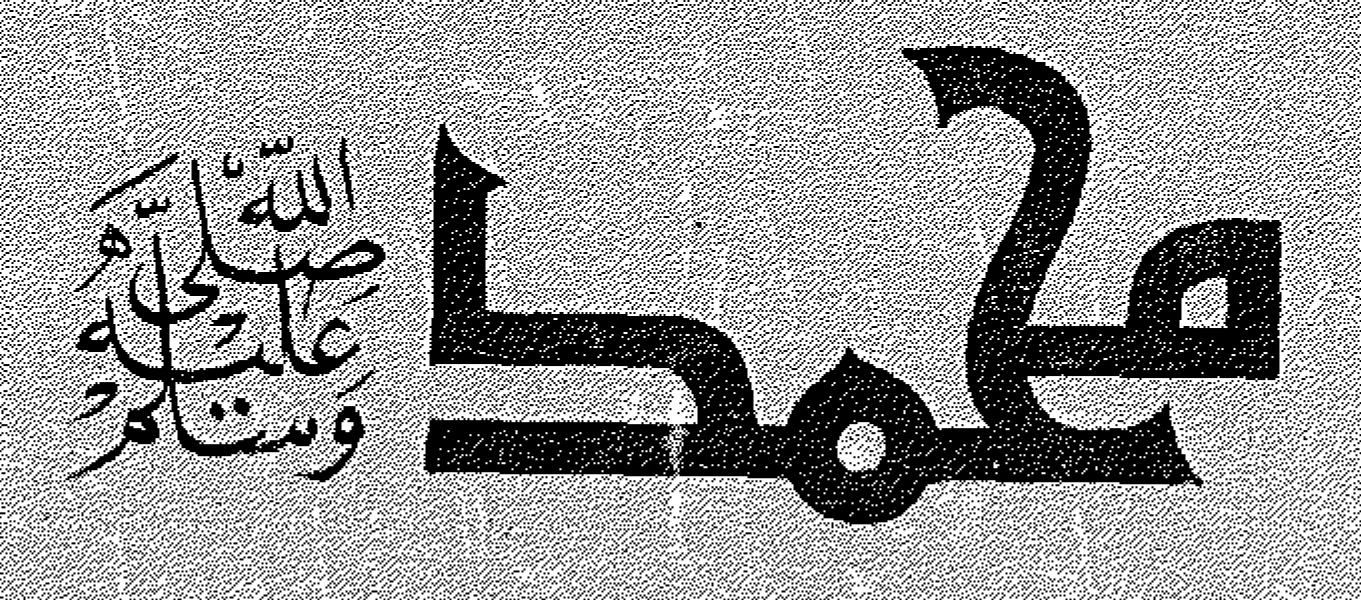


في التوراة والإنجيل والقرآن

ابراهيم خليل أحمد

مكتبة الوعي العربي

ابراهيم خليل أحمد

محمد صلى الله عليه وسلم
في
التوراة والإنجيل والقرآن

الناشر
مكتبة الوعي العربي
٥ شارع كامل صدقي – الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

« فَمَن يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَه
يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسلام »

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدرَهُ لِلإسلامِ
فهُوَ عَلى نُورٍ مِن رَبِّه »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

يقول صلى الله عليه وسلم :

« ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

وإذا كان موسى قد اشتهر بمعجزة العصا واليد فإن الله أوحى إليه بقوله : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

ولئن ذهب موسى لمناجاة ربه على الجبل فقد أسرى الله بمحمد وعرج به إلى الآفاق الربانية لمرتبة لم ينلها ملك مقرب ولا نبي مرسل وأراه من آياته الكبرى : « أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

ولئن طلب موسى الرؤية فحجب عنها وجوزي بالصعق لقد رأى محمد أنوار الله وأفاض عليه من بركاته وفيوضاته .

هذا هو سيد الخلق أقدمه لأهل الكتاب : « قُلْ يأَهْلَ الكِتَاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سَواء بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله ولا نُشْرِكَ به شيْئاً ولاَ يتَّخذَ بعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً من دُون الله فإنْ تَوَلَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُون » .

[صدق الله العظيم]

إبراهيم خليل أحمد

تقـــديم للمؤلف

الحمد لله الذى هدانى للإسلام دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته أجمعين . أما بعد :

فقد نشأت نشأة دينية ، وكان طبيعيا أن خصصت حياتى وجهدى ومالى فى سبيل الله مخلصا متفانيا ابتغاء مرضاته .

والله سبحانه وتعالى الخالق قد خلق الإنسان وفضله على سائر خلقه بما حباه وكمله بنعمة العقل والقدرة على التعقل والإدراك وكان لهذا حقا لله سبحانه أن يحاسب الإنسان على ما يفعله إن خيرا وإن شراً .

والله سبحانه وتعالى تمكينا للإنسان من العزة بالعقل لم يفرض كيانه فرضا سواء أرضى أم لم يرض . بل توخى هبته للإنسان من العقل ومن العقل أراد أن يدخل إلى قلب الإنسان بالإيمان ، لهذا قيل فى الإنجيل للباحثين عن الحق : « وتعرفون الحق والحق يحرركم »[1] .

وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم » . رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

ويقول تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » . بل يتجه الله جل شأنه إلى أولئك الذين لم ينعموا بنعمة البصر فيستلهمهم البصيرة بقوله تعالى : « وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

---

(١) يوحنا ٨ : ٣٢ .

وهكذا يهدى الله الإنسان إلى الطاقات العظمى لنعمة العقل لتكون أساس الإيمان .

والتاريخ شاهد صدق على رجال من كبار اللاهوتيين الذين نشدوا الحق واستبسلوا له ، فهذا آريوس فى القرن الثالث الميلادى الذى استبسل لعقيدته عن المسيح عليه السلام بما يتقارب مع عقيدة المسلم عنه .

وذاك لوثيروس الذى نادى بالإصلاح الدينى وحمل لواء الإصلاح فى عزم وتصميم ونادى بأن الله وحده هو الغفور الرحيم وأن البشر جميعهم سواسية أمامه لا فضل لكاهن على مواطن إلا بالتقوى .

وفى هذا يقول نبى الله داود عليه السلام : « باركى يا نفسى الرب ولا تنسى كل حسناته ، الذى يغفر جميع ذنوبك ، الذى يشفى كل أمراضك »[1] .

بل يؤكد أن الغفران لله جل شأنه وحده فيقول : « عند كثرة همومى فى داخلى تعزياتك تلذذ نفسى »[2] .

وبهذا يخلص إلى الحقيقة التى يؤمن بها المسلم والتى يوضحها قول داود عليه السلام : « كنت تراقب الآثام يا رب يا سيد فمن يقف . لأن عندك المغفرة لكى يخاف منك »[3] .

إذن الطريق إلى الله واضح المعالم ، والوصول إليه رائده المنطق والعقل ، والرسالات السماوية جميعها تناشد الإنسانية ما قاله المسيح عليه السلام : « الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا »[4] .

---

(١) مزمور ١٠٣ : ٢و٣ .
(٢) مزمور ٩٤ : ١٩ .
(٣) مزمور ١٣٠ : ٣ .
(٤) يوحنا ٤ : ٢٤ .

وفى هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعـــالى : « فأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَم وَجْهُ اللهِ » .

والذى حفزنى إلى البحث بغية النفع العام هو ما تنبأ به المسيح عليه السلام عن الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ بقوله : « الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره »[1] .

ومن دواعى الاطمئنان واليقين أن هذا السند يرتبط ارتباطا وثيقا بقوله تعالى : « الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذى يجدُونَهُ مكتُوباً عندَهُم فى التوراةِ والإنجيل » .

من هنا بدأت فى اطمئنان ويقين تام أبحث عن هذا الرسول النبى الأمى الذى تنبأ عنه المسيح عليه السلام وأشار إليه بقوله « المسيا المنتظر » .

ومن هنا بدأت أربط بين رأى آريوس فى القرن الثالث الميلادى ، وآراء لوثيروس فى القرون الوسطى ، والنبوءات العديدة فى التوراة والإنجيل والأنبياء والمزامير عن الرسول المصطفى حتى مكننى الله من إخراج هذا المؤلف الطيب لأمة خيرة .

وكان ما استرعى نظرى عند الإعداد لهذا البحث العناصر الآتية :

١ — الوحدانية .　　　　٢ — الغفران .

٣ — المبادىء وتقويمها بالأشخاص .　　　　٤ — الرسالات السماوية .

---

(١) إنجيل متى ٢١ : ٤٢ و ٤٣ .

١ — الوحدانية :

قرأت بتأمل وتفكير سورة الإخلاص : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصمَدُ . لَمْ يَلِدْ . ولمْ يُولَد . وَلَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ » ، وأخذت أتأمل الوحدانية فى القرآن الكريم ، الأمر الذى يستطيع العالم وغير العالم فهمه واستيعابه وإدراكه والإيمان بما يتضمنه من المعانى ، من غير إجهاد الفكر ، أو عناء الدرس والتحصيل .

وقارنتها بالوحدانية التى وردت فى إنجيل متى فى الباب الأول والعدد الأخير : الآب والابن والروح القدس « إله واحد آمين » . وعند دراستى النص الأصلى علمت أن هذه العبارة لم ترد فى الأصل اليونانى .

هذا بالإضافة إلى بلبلة أفكار عامة الناس وحيرة جهابذة العلماء فى الدفاع عن هذه العقيدة السقيمة التى كشف التاريخ عنها القناع . وأكد العلامة جارسلاف كرينى أستاذ الحفريات فى جامعة أكسفورد فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) أن عقيدة التثليث مستمدة من الوثنية الفرعونية .

٢ — الغفران :

قرأت بتأمل وتفكر قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ . إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جَمِيعاً إِنهُ هُوَ الغفورُ الرحِيمُ » [١] . وقارنت بين هذه الآية وما ورد فى الإنجيل عن الغفران : « بدون سفك دم لا تحصل مغفرة » ، وبالقول : « هكذا أحب

---

(١) الزمر : ٥٣ .

الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكيلا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » .

قارنت بين العقيدتين :

الأولى : أن رحمة الله ومغفرته تكون لعباده دون قيد أو شرط مادى .

الثانية : أنها مقيدة بقيود من جانب الله ببذل ابنه الحبيب حسبما يعتقدون ، ومن جانب المرء ضرورة الإيمان بهذا الابن .

ومن هذه العقيدة نشأت فريضة كنسية تعرف بسر الأفخارستيا ، أو سر الشكر ، وفيها يؤمن المسيحى باستحالة الخبز إلى جسد المسيح ، واستحالة الخمر إلى دم المسيح حقيقة ، و تناولهما تصير فيه حياة أبدية .

ومن هذه العقيدة نشأت صكوك الغفران ، وما أدراك ما صكوك الغفران !! إنها بدعة وخروج عن الحق الإلهى ، وكم ندد بها زعماء الإصلاح فى القرن الخامس عشر وعلى رأسهم لوثيروس الألمانى ثم زوينجلى ثم كلفن وغيرهم .

فحمدت الله على رحمته الواسعة ومغفرته اليقينية بدون قيد ولا شرط مادى ، بل بتوبة صادقة وعزم على الحياة الطاهرة : « إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً » .
[صدق الله العظيم]

٣ - المبادىء وتقويمها بالأشخاص :

قرأت قول الله تعالى : « إن أكرمكم عندَ الله أتقاكُمْ »(١) .

وقرأت ما جاء بالإنجيل : « إذن لسنا أولاد جارية ، بل أولاد حرة » .

وزال عنى العجب للتفرقة العنصرية عند الأمريكيين فى أيامنا هذه بين

(١) الحجرات : ١٣ . وردت الآية فى خطبة الرسول الكريم فى حجة الوداع أيضا .

البيض والسود ، وزاد إعجابى وإجلالى للمسلمين أن سيد القوم يقف بجانب المواطن العامل والمزارع والتاجر والموظف ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، راكعين ساجدين ، يخشون ربهم ويرجونه الرضا والعفو ، فأيقنت أن مجد الإسلام والمسلمين فى هذا التساند الجميل ، والتآخى الحبيب ، « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » .

٤ — الرسالات السماوية :

قرأت قول المسيح عليه السلام ، ومثاله : « خرج الزارع ليزرع وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق »[1] . وقرأت كتابة بولس ، ومثاله : « فإنى أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن ولكنى أرى ناموسا آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطية الكائن فى أعضائى ، ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟ ! »[2] .

قولان : أحدهما للمسيح يمتاز بالبساطة ووضوح التعبير ، وثانيهما يمتاز بعمق وغور المعانى ، وكلاهما ينسب إلى الله جل شأنه .

وقرأت فى القرآن الكريم قوله تعالى : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . . . » . وما قبل ذلك فاتحة القرآن الكريم إلى قوله تعالى : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَٰهِ النَّاسِ » إلخ السورة ، وتأملت وتدبرت ، وإذا بالله العزيز الحكيم يحسم الأمر بقوله : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » ، ثم يتحدى الله خلقه بقوله : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

---

(١) متى ١٣ : ٣ — ١٨٠٨ — ٢٣ (٢) رومية ٧ : ٢٢ — ٢٤ .

فازددت إيمانا ورسوخا ، وقررت قرارا ، واعتزلت الخدمة الدينية وظيفة ، وانتهجت نهج الأعمال الحرة ، فعملت بشركة استندرد ستيشنرى بالقاهرة من سنة ١٩٥٥ إلى ١٩٥٩ لكسب عيشى بالحق والأمانة ، وما زالت تربطنى بالكنيسة روابط كثيرة .

ويشاء الله أن يهدينى إليه ، أليس هو القائل: « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يشرَحْ صدرهُ للإسلام »[1] ، « أفمن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام فهو على نور من ربه »[2] .

ويشاء الله أن يعقد بينى وبينه حباً وودا قائما ، فيهدى إلى سيادة الدكتور محمد عبد المنعم الجمال حيث تلاقينا على تفسير القرآن الكريم ، فوسعنى فى قلبه حبا وإعجابا ، ووسعنى بمنزله منزلة وكرامة فى دراسة وتفسير القرآن الكريم ، وآليت على نفسى أن أعلنها صراحة بقبول الإسلام دينا ، وبراءتى من كل دين يغاير ويخالف دين الإسلام .

ودخلت وأبنائى الأربعة إلى دين الله أفواجا ، نسبح بحمده وتمت كل الإجراءات القانونية من تغيير شهادات الميلاد بموجب قرار وزارى صادر من وزارة الصحة قسم المواليد بتاريخ ١٩٦٠/٥/٣٠ م .

وبهذا انتهيت من الجهاد لاعتناق الإسلام حيث بدأت الجهاد فى سبيل الله ورسوله الكريم بحياة إسلامية مضيئة مشرقة نقية طاهرة ، وبالدعوة القوية المفعمة بالحب والإخلاص للقرآن الكريم والإسلام الحنيف .

وفقنا الله لما يريد ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

إبراهيم خليل أحمد

سابقا : القس إبراهيم خليل فيلبس

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) الزمر : ٢٢ .

تقريظ للمغفور له الأستاذ

علي حسب الله

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة (سابقا)

إن الدين عند الله الإسلام

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ففتح به قلوباً غلفاً ، وأعيناً عميا ، وارتفع شأنه وعلا ذكره بأولئك الطيبين الطاهرين ؛ الذين سبقوا إلى الإيمان به ، ونصروا الرسول بأموالهم وأنفسهم ، فسجل الله ذكرهم فى كتابه الكريم : « والسَّابِقُونَ الأولونَ مِنَ المهاجرينَ والأنصار والذين اتبعوهُمْ بإحسانٍ . رضيَ اللهُ عنهُمْ ورضُوا عنه وأعدَّ لهُمْ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوزُ العظيم »[1] .

« والسَّابِقُون السابقون . أُولئك المقربُون . فى جنّات النَّعيم »[2] .

لقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بقواعد الحق ، ومبادىء الفطرة السليمة ، التى تصلح بها أمور الناس فى الدنيا والآخرة ، والتى يتقبلها العقل البشرى بقبول حسن إذا بعد عن التأثر برواسب الجهل ، وبواعث الانحراف والضلال ، ومن تقليد الآباء ، والإعجاب بمظاهر دنيوية لا تمت إلى الحق والخير

---

(١) التوبة : ١٠٠ .   (٢) الواقعة : ١٠ — ١٢ .

بصلة . وإذا أراد الله بعبد من عباده الخير والهداية بصره بما فى الحق من جمال وانسجام ، وبما فى تلك العوامل والبواعث من انحراف عن الصراط المستقيم ، واتجاه إلى سوء المصير ، فسلك إلى الحق طريقه ، وبعد عن طريق الهلاك : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد فى السماء . كذلك يجعل الله الرّجس على الذين لا يؤمنون »[1] .

والأخ السيد « إبراهيم خليل أحمد » من المثل الطيبة للتحول من الضلال إلى الهدى بتوفيق من الله تعالى ، وبدراسة عاقلة بصيرة ، وهو من الأدلة الصادقة على أن من توجه إلى الله قبله ، ومن تقرب إليه شبراً تقرب الله منه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب منه باعا .

لقد أثار الدليم الخبير وجدانه بآية سمعها من كتابه الكريم :

« قل أوحى إلىّ أنّه استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً . يهدى إلى الرُّشد فآمنّا به ولن نُشرِكَ بربنا أحـــداً »[2] ، فكانت مصباحاً أضاء جوانب قلبه ، ووجهه إلى البحث عن الحقيقة ، وأخذ يصارع — بإرادة قوية ، وعقل واع ، ونية طيبة — عقيدة قديمة ، تعلقت بقلبه منذ وجد عليها الآباء ، وقد بوأته منصباً وجاها ، وأغدقت عليه رزقا حسنا ، واستمر فى نضاله العقلى والنفسى دون أن يلويه عن غرضه منصب أو جاه ، أو يفكر

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) أول سورة الجن .

فيما هو فيه من سعة الرزق ، وما يمكن أن يصير إليه من حاجة . حتى شرح الله صدره وهداه إلى دين الحق الذى أغناه عن كل ما كان فيه : « إن الدين عند الله الإسلامُ »[١] .

لقد رأى من أول الواجبات عليه أن يضع تحت سمع الناس وبصرهم ما وفقه الله إليه من دلائل الحق ومعالم الهدى ، فقد يهدى الله به رجلا واحداً فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها ، فجعل باكورة عمله فى الإسلام ذلك الكتيب ، الصغير فى حجمه ، والكبير فى قيمته : « محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل » . لينبه به الغافلين ، ويحفز إلى التفكير همم العاقلين .

وكان من أظهر ما وجه إليه الأذهان فى هذا الكتيب أمور تعتبر فى الدين من أصول العقيدة والسلوك المستقيم ، وهى من الوضوح بحيث لا ينبغى أن يمارى فيها عقل الإنسان ، ومن هذه الأمور :

١ — وحدة الإله :

إن وجود هذا الكون — بما فيه من نظام محكم ، وتناسق دقيق — يقتضى عقلا وجود موجد متصف بكل صفات الكمال التى تلائم دقة نظامه ، وإحكام تناسقه ، وهذه قضية سهلة لا التواء فيها ، ومن زعم أن الكون لا خالق له ، فهو مكابر ، يعترف بالأثر ، وينكر المؤثر . ومن زعم أن له أكثر من خالق فعليه الدليل ، ولن يجد دليلا على وجود معدوم ، وإذا لم نكن مطالبين بإقامة الدليل على نفى التعدد ، لأن المطالب بالدليل هو المثبت لا النافى — فقد تفضل العليم الحكيم على المنحرفين القائلين بالتعدد بالتنبيه على ما فى مقالتهم من

---

(١) آل عمران : ١٩ .

فساد بقوله سبحانه : « لو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[1] . وبهذا يتقرر فى العقل ما قرره القرآن الكريم فى قوله سبحانه : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

ويقابل هذه العقيدة السهلة السمحة فى الإسلام — عقيدة التثليث المعقدة فى المسيحية ، التى تنزل الله من عليائه ليحل فى بعض خلقه ، أو ترفع بعض المخلوقين إلى منزلة الخالق ، مما يُبَلْبِلُ أفكار عامة الناس ، ويحير جهابذة العلماء .

وقد بين السيد إبراهيم فى بحثه أن هذه العقيدة دخيلة على المسيحية ، وليس لها وجود فى الأصل اليونانى للإنجيل ، بل هى مأخوذة من الوثنية الفرعونية ، والمبادىء البابلية التى وجدت فى لوحة أثرية عثر عليها فى بابل ، ويرجع تاريخها إلى سنة ١٢٠٠ ق . م . ولم تقرر هذه العقيدة عند المسيحيين إلا فى مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ م بدعوة من الإمبراطور قسطنطين بسبب الخلاف بين الأسقف آريوس والشماس أثناسيوس الإسكندريين .

قال الأسقف : إن المسيح مخلوق لله ، ومتصف بكل الصفات الإنسانية وتعتريه كل العواطف البشرية ، من نوم ويقظة ، وفرح وحزن ، وغير ذلك ، فلا يكون إلها بحال .

وقال الشماس : إن المسيح ابن الله ، والابن لابد أن يكون مساوياً للأب ، لأنهما من عنصر واحد ، فلا بد أن يكون المسيح إلها مثل أبيه .

وقد صدر قرار المجمع بإدانة الأسقف ، لأن فكرته تقلل من شأن المسيح ، كأن المسيح لا يرتفع شأنه — وهو بشر — إلا إذا وضع — رغم أنف العقل والنصوص الدينية — فى مصاف الآلهة .

---

(١) الأنبياء : ٢٢ .

وفى سنة ٢٣٤ دعا الإمبراطور قسطنطين إلى مجمع صور ، الذى قرر إلغاء قرارات مجمع نيقية ، وعفا عن الأسقف ، وقبل تعاليمه .

ثم ما زالت المجامع تنعقد ، وتقرر القرارات المختلفة — مما يدل على اضطراب العقيدة وعدم اعتمادها على أساس — حتى انقسم المسيحيون — بسبب قرارات مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩م — قسمين ، وأصبح لهم كنيستان: شرقية أرثوذكسية بالقسطنطينية ، وغربية كاثوليكية بروما ، ثم كانت حركة مارتن لوثر سنة ١٥١٧ م التى نشأت بسببها كنيسة ثالثة بروتستانتية بألمانيا ، انتقلت بعد إلى إنجلترا والولايات المتحدة .

وقد اكتشف حديثا فوق هضبة بجوار البحر الميت — مخطوطات يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٠ ق . م فيها معلومات تصحح الفكرة الخاطئة عن ألوهية المسيح عليه السلام ، وقد أرسل الدكتور تريفور صورة منها إلى الدكتور و . ف . ألبرايت — وهو حجة فى علم آثار الإنجيل فهنأه على هذا الكشف ، وقال : إنه « لا يشك أحد فى العالم فى صحة هذه المخطوطات التى ستحدث ثورة فى فكرتنا عن المسيحية » .

ويؤخذ من هذه المخطوطات أن عيسى عليه السلام ابن الإنسان وليس ابن الله كما ادعى أتباعه من قبل .

٣ — غفران الذنوب :

يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : « إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ »(١) ، ويقول سبحانه وتعالى : « قُلْ يا عِبادِيَ

(١) النساء : ١١٦ .

الذينَ أسرَفوا علىَ أنفسِهمْ لا تَقْنطوا مِنْ رَحمْةِ الله. إن الله يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً. إنهُ هو الغفورُ الرحيمُ . وأنيبُوا إلى ربِّكُمْ وأسلمُوا لهُ من قبلِ أنْ يأتيكُمُ العذابُ ثمَّ لا تُنصَرُونَ »[1] ، ويقول الله تعالى : « فَمَنْ تابَ مِنْ بعْدِ ظُلْمه وأصْلح فإنّ الله يتوبُ عليْه . إنّ الله غفورٌ رحيمٌ »[2] ، وفى الحديث القدسى أن رب العزة جل جلاله يقول : « يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم » وبهذا . كان باب التوبة فى الإسلام مفتوحا لكل من يطرقه من بنى الإنسان ، وتقبل توبة التائب — بندمه على مافرط منه ، ومعاهدته ربه على عدم العودة إلى مايغضبه ، ولا تتوقف على شىء من غيره .

أما فى المسيحية « بدون سفك دم لا تحصل مغفرة » ، و « أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكيلا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » ، وهو كلام تظهر عليه مسحة الوضع البشرى ، لاستهواء أفئدة العامة ، وحملهم على حب المسيح ، والإيمان به . ولا يدرى عاقل كيف يصل العجز بالإله إلى الحد الذى لايستطيع معه أن يغفر للبشر إلا بتقديم ابنه الحبيب قربانا ، فإلى من يتقرب ؟ وإلى من يتقدم بالرجاء ؟ وكيف تغفر ذنوب السابقين واللاحقين بتقديم ابنه قرباناً ؟ وهل هذا إلا فتح لباب المعصية فى المستقبل اعتماداً على هذا الغفران ؟

---

(١) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ .   (٢) المائدة : ٣٩ .

وقد نقل إلينا السيد إبراهيم فى هذا الموضع كلام العلامة روى ديكسون سميث فى كتابه « ضوء جديد على البعث » إذ قال : « لا يوجد متدين مهما كان مذهبه أو فرقته يعتقد أن الله العظيم قد أرسل ابنه الوحيد إلى هذه البشرية التى لا تساوى — فى مجموعها منذ بدء الخلق إلى نهايته — كوكبا من الكواكب المتناهية فى الصغر ، لكى يعانى موتا وحشيا على الصليب ، لترضية النقمة الإلهية على البشرية ، ولكى يساعد جلالته على أن يغفر للبشرية على شرط أن تعلن البشرية اعترافها بهذا العمل الهمجى — ألا وهو الفداء — الذى لايستسيغه عقل . . . ولماذا لا نقول : إن الله العالم بما سيكون سمح بتضحية رسوله لا ليغفر للبشرية جرائمها ، بل لتكون هذه الحادثة سببا فى انتشار الإنجيل » .

وقد ذكر السيد إبراهيم أن الصليب اتخذ شعارا منذ آلاف السنين قبل المسيح عليه السلام ، وجاء فى إنجيل برنابا — أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ، وإنما وقع القتل والصلب بشبيه به ، وأن محمدا ﷺ متى جاء سيكشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ، وقد نفى القرآن الكريم ذلك حقا فى قوله تعالى : « وقولِهِمْ إنّا قَتَلْنَا المسيحَ عيسَى بنَ مَرْيَمَ رَسولَ الله ومَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولَـكنْ شُبِّهَ لهُمْ »[1] .

٣ — المساواة بين الناس :

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « يأَيُّهَا النّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ من ذكر وأُنثى وجعلناكُمْ شُعُوبا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إنّ أكرَمَكُمْ عند الله أتقاكم »[2] . ويقول الرسول الكريم محمد ﷺ : « أيها الناس ،

---

(١) النساء : ١٥٧ . (٢) الحجرات : ١٣ .

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم » . وبقول صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود — إلا بالتقوى » .

فالقياس الذى يتفاضل به الناس عند الله هو التقوى والعمل الصالح أما الجنس واللون فلا أثر لشىء منهما فى رفعة شأنهم أو ضعته .

أما الأناجيل الموضوعة فقد ورد فيها تفاخرهم بأنهم أولاد حرة لا أولاد أمة : « إذن لسنا أولاد جارية ، بل أولاد حرة » . ولا يزال لهذا المعنى رواسب فى نفوس القوم إلى اليوم ، يظهر أثرها فى التفرقة العنصرية فى أمريكا وجنوب أفريقيا .

٤ — **البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم :**

قال الله تعالى : « وإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ : يا بَنِى إسرائيلَ إنى رَسُولُ اللهِ إليكُمْ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يدىَّ مِنَ التوراةِ ومُبَشراً بِرَسُولٍ يأتى من بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ »(١) . وقد بين السيد إبراهيم أن هذه البشارة وردت فى التوراة والإنجيل .

وردت فى التوراة فى قوله : « أُقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، لأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أُوصيه به » وهى عبارة مجملة ، فسرها اليهود بمجىء رسول منهم ، لا من ولد إسماعيل ، وكأن الله تعالى جعل هذه العبارة مجملة ، وألهمهم هذا التفسير حفظا لهذه البشارة ، لأنهم لو عرفوا أن الرسول المبشر به سيكون من ولد إسماعيل لأخفوها أو محوها ، وقد أثبتت الأيام أن الرسول المبشر به هو محمد ﷺ .

---

(١) الصف : ٦ .

وورد فى الإنجيل ما يدل على انتقال النبوة من ولد إسحق إلى ولد إسماعيل فى قوله : « الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا ، كذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره »[1] .

والحجر الذى رفضه البناءون كناية عن إسماعيل عليه السلام جد محمد ﷺ الذى قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وضعت هاهنا لبنة ليتم البناء ؟ فأنا اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء » .

وقال المسيح عليه السلام للحواريين : « إن لى أموراً كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا وأما متى جاء ذاك — روح الحق — فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية »[2] .

ويؤخذ من المخطوطات التى عثر عليها بجوار البحر الميت كذلك أن عيسى كان مسيا المسيحيين[3] ، وأن هناك مسيا آخر سيأتى بعده ، وقد قال عنه المسيح : « ومتى جاء المعزى — البارقليط — فهو يشهد لى » . ومحمد ﷺ هو الذى جاء بعده ، فشهد له وأنصفه ، ودافع عنه وعن العقيدة الصحيحة التى جاء بها .

وقد جاء فى إنجيل برنابا — الذى استبعدته الكنيسة فى عهدها الأول ، وحرم البابا جلاسيوس قراءته سنة ٤٩٢م — ما يؤيد هذه المخطوطات ويوضح ما فيها من إجمال ، قال : « فلما كان الناس قد دعونى الله ، وابن الله — على

---

(١) إنجيل متى ٢١ : ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) إنجيل يوحنا ١٦ : ١٢ ، ١٣ .
(٣) مسيا : كلمة آرامية معناها رسول .

أنى كنت ربنا فى العالم — أراد الله أن يهزأ الناس فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنى أنا الذى مت على الصليب لـكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله ، الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله »[١] .

وبهذا تكون البشارة فى الأناجيل المختلفة مطابقة للبشارة فى التوراة ، فللبشرية نبى كموسى ، من وسط إخوتهم ، وينزل عليه كتاب يكلم الناس بما فيه ، وهو روح الحق ، لا يتكلم من نفسه ، بل بما يوحى به إليه ، وصدق الله العظيم فى قوله تعالى : « والنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شديد القُوَى »[٢] .

ومهما أخفى القوم من الأناجيل الصحيحة فإن القرآن الكريم قد تكفل بيان ما لابد من بيانه مما أخفوا ، قال تعالى : « يَا أَهلَ الكِتَابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مما كنتم تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعفو عن كثير . قد جاءَكُمْ من الله نُورٌ وكتابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ من اتَّبَعَ رضوَانَهُ سُبُلَ السَّلام ويخرجُهمْ من الظُلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ »[٣] .

وهكذا يسلط السيد إبراهيم خليل الأضواء على أشهر مواضع الخلاف بين الديانتين المسيحية والإسلامية بخبرته السابقة ، ويستخلص الحق فيما وقع فيه الخلاف ، مؤيداً ما اهتدى إليه بالعقل والنقل ، ومبينا منشأ ما عليه القوم

---

(١) إنجيل برنابا ، الباب الرابع : ٢٢٠ .

(٢) أول سورة النجم . (٣) المائدة : ١٥، ١٦ .

من انحراف فى العقيدة ، وأن الحكام وبعض رجال الدين أرادوا بتضايلهم الولاية على الشعب واستغلاله .

والله ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

على حسب الله

تقريظ لفضيلة الدكتور الشيخ

عبد الحليم محمـــود على

شيخ الجامع الأزهر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وصحبه والتابعين ، وبعد :

فقد طوف بنا الأخ الفاضل الأستاذ إبراهيم خليل أحمد ، على مراحل التحريف للدين المسيحى مستنداً لها بأسانيد تاريخية ودينية فى عرض مقارن .

وخلص من كل ذلك إلى دين الحق الذى يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ، وليحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره الكافرون .

ولقد تحدث سيادته عن دخوله فى الإسلام بعد أن تداركته عناية الله ، إذ سمع قوله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » .

فشرح الله صدره للإسلام ، وأخذ يبحث فى قضايا الوحدانية ، والغفران ، وتقييم المبادىء بالأشخاص ، والرسالات السماوية فى عرض مقارن .

وهو فى هذا العرض التاريخى الدقيق المستند إلى النصوص والوثائق الصحيحة والمنطق العقلى يؤيد الإسلام تاريخياً فيما أتى به القرآن وحيا من السماء .

وممن أثبت هذا من علماء الغرب بصورة واضحة سافرة ، الأستاذ (شارل جنيبير) أكبر أستاذ لتاريخ الأديان فى فرنسا ، مع أنه من أسرة مسيحية ، وكتبه مشهورة معروفة ، ومكانته العلمية ذائعة شائعة .

وإننا أمام هذه الرسالة القيمة ، لنشكر الأستاذ إبراهيم خليل أحمد ، فلقد وفق كل التوفيق فى إخراجها للناس إحقاقا للحق وإبطالا للباطل فى حيدة تامة ، لم يكن مدفوعا بدوافع عاطفية أو مادية ، وإنما كان من عشاق الحق لذاته ، غير مبال بما يصيبه فى سبيله .

ونرجو الله تعالى أن يديم له التوفيق والرشاد .

وقد بين أن التثليث دخيل على المسيحية الحقة ، وأنه مستورد من الوثنية الفرعونية، كما صرح بذلك الأستاذ (جارسلاف كرينى) أستاذ الحفريات بجامعة (اكسفورد) فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) وأن هذا التثليث لم يوجد فى الأصل اليونانى .

وصكوك الغفران ، واستحالة الخبز إلى جسد المسيح عليه السلام ، خروج عن الحق الإلهى ، كما صرح بذلك زعماء الإصلاح فى القرن الخامس عشر ، وعلى رأسهم : (لوثيروس الألمانى) .

وبشرت التوراة بالرسول محمد ﷺ . ففى سفر التثنية ٣٣ : ٣ « جاء الرب من سيناء ، أشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران »

وتلك هى الرسالات الثلاث : لموسى ، وللمسيح ، ولمحمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم .

وهذا مصداق قوله تعالى فى القرآن الكريم :

« وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، وَطُورِ سِينِينَ ، وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ » .

لأن منبت التين والزيتون مهجر إبراهيم ، ومولد عيسى عليهما السلام ، وطور سيناء مكان مناجاة الله تعالى لموسى عليه السلام ، وفاران فى مكة : مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى أسفار الأنبياء عليهم السلام : أنه صلى الله عليه وسلم روح الحق ، والفارقليط ، والمعزى ، وأنه لايتكلم إلا بما يسمع من الله تعالى ، وأنه أساس الحق ورأس زاويته ، وهو البار الذى تنبأت به زوجة الوالى الرومانى .

والمخطوطات والآثار القديمة ، تثبت بشرية المسيح ووحدانية الله ، ومجىء محمد عليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وقد صرح إنجيل برنابا بذلك كله .

وكلمة (مسيا) آرامية معناها (رسول) .

وعند مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام يسجد العالم شكراً وسيجعل كل سنة هذا اليوبيل بدل كل مائة سنة ، وهذا الذى قاله برنابا معناه : الحج فى الإسلام وهو الركن الخامس منه .

وكلمة (إنجيل) معناها : بشرى ، لأن المسيح عليه السلام جاء مبشراً بقدوم محمد عليه السلام .

وتعاليم المسيح عليه السلام تهدم التعصب الطائفى والعنصرى كما جاء فى قصة الكاهن مع الجريح الذى مر عليه وتركه ، ولقد صرح الأسقف الإسكندرى (آريوس) بأن المسيحية قد حرفت بما دخل عليها من المبادىء الفلسفية المستوردة من الهند والصين وفارس ، ومصر ، فلم يبق إذن غير الرجوع للحق ولدين الحق الذى تكفل الله بحفظه :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

وليس أجمل من هذا ولا أحسن :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » وبالله التوفيق .

عبد الحليم محمود

تقريظ للسيد الأستاذ

محمـــد الغزالى السقا

مدير الدعوة بوزارة الأوقاف

دراسة الملل والنحل جزء مهم من ثقافتنا الدينية القديمة . . ودراسة النصرانية خاصة وكتبها المقدسة لديها موضوع اجتذب انتباه العلماء المسلمين وكثرت فيه مؤلفاتهم .

ولا عجب ، فإن العلاقات بين الإسلام والنصرانية ظلت متشابكة ومعقدة منذ أمد طويل.

ومن المحزن أن نسفك فيها دماء كثيرة ، وكان أولى بالفريقين أن يقبل كل على ما لدى الآخر يدرسه بعناية وتمحيص ثم يدع للفكر المجرد أن يصدر حكمه ، وللرغبة الخالصة أن تأخذ وجهتها .

ونحن — المسلمين — غير مسئولين عن الطريقة الدامية التى سارت فيها العلاقات العالمية بين الإسلام والصليبية . إن الحقد التقليدى جزء من السياسة الأجنبية نحو الإسلام .

أما الإسلام فهو يقول لأتباعه : « وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بالتِى هِىَ أَحْسَنُ — إلا الذينَ ظَلَمُوا منهُم — وقُولُوا آمنَّا بالذى أنزِلَ إلينا وأنزِلَ إليكُمْ وإلهُنَا وإلهُكُمْ وَاحِدٌ ، ونَحْنُ لَه مُسْلِمُونَ » .

لكن ما الذى أنزل إلى أهل الكتب الأولى ؟

إن المواريث السماوية بين أيدى القوم تحتاج إلى تأمل وطول نظر .

ففيها كلام حسن عن الله الواحد ، وعن وصاياه للعالمين بالاستقامة والتقوى . وهذا الكلام يستحق القبول والعناية .

بيد أن هناك كلاما آخر يشعر الإنسان الحصيف بقلق عندما يتلوه ، ذاك الذى ينسب إلى الله الكبير صفات تتنزه عنها ذاته العليا . . . ثم ذاك الذى يؤرخ لأنبياء الله وهم قمم الإنسانية من أزلها إلى أبدها — فيبرزهم وكأنهم خريجو حانات وأحلاس شهوات(١) .

وشىء آخر لايعود إلى هذه الكتب قدرما يعود إلى أصحابها وهو تواطؤهم على جحد العروبة ونبيها الخاتم لما سبق ، صاحب الرسالة التى قدر الله أن تصحب العالم فى مراحل وجوده حتى الحصاد الأخير للنشاط الإنسانى فوق الأرض .

إن إنكار نبوة محمد صلوات الله عليه وتناسى دلائلها الثابتة فى الكتب المقدسة عند القوم شىء مستغرب .

ومن حق الباحث المسلم أن يجلو غوامضه .

وقد وفق الله الأخ المخلص السيد إبراهيم خليل أحمد إلى تأليف هذه الرسالة فى هذا الموضوع ، وسيادته خبير به ، بل خبير بالعهد القديم والعهد الجديد .

وعندى أن أصحاب الدراسات الإسلامية لا يستكملون ثقافتهم حتى يطلعوا على أمثال هذه الرسائل ويتعرفوا منها ما لدى الآخرين من تراث يقترب منا أو يبتعد عنا .

وفق الله المؤلف الفاضل إلى خدمة الحق وأجزل مثوبته .

٤ / ١١ / ١٩٦٣

محمد الغزالى

---

(١) طالع قصة لوط فى سفر التكوين ، وسفر نشيد الانشاد ق

الباب الأول

التوراة والإنجيل

يتنبآن ببعث الرسول الكريم

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ
الذِي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندهم في التَّوْراةِ
والإنجيل »[1] .

أرسل الله رسوله الكريم وأمره بالتبليغ : « يَا أَيُّها الرَّسولُ بَلِّغ ما أُنْزِلَ إليكَ من رَبِّكَ »[2] . وهنا يتبادر إلى ذهن الإنسان الذى يتذوق حلاوة الإسلام دينا أن يتساءل : ما الرسالة؟ فيوحى القدير بقوله إلى الرسول الكريم ليجيب بقوله تعالى : « قُل يا أَيُّها النَّاسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعاً الَّذى لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ لا إله إلا هو يُحيى ويُميتُ ، فآمِنوا بالله ورسولِه النبي الأميِّ الذى يُؤمنُ باللهِ وكلماتهِ واتبعُوه لعلكم تَهْتَدونَ »[3] . ويزكى الله الحكيم نبيه لأهل الكتاب بقوله تعالى : « آمنَ الرَّسولُ بما أُنزلَ إليهِ من ربهِ والمؤمنون . كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكته وكتبهِ ورُسُلِهِ لا نُفرِّق بين أحدٍ من رُسُلِهِ »[4] .

ولهذه التزكية من رب العالمين للنبي الكريم وجب على العالمين الإيمان به . ومن أهل الكتاب راسخون فى العلم : « لكن الراسخون فى العِلم منهم

---

(1) الأعراف : ١٥٧ .
(2) المائدة : ٦٧ .
(3) الأعراف ١٥٨ .
(4) البقرة : ٢٨٥ .

والمؤمنون يؤمنون بما أُنزلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلك »[١] . « وإذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرسولِ ترى أعينَهُمْ تَفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحقّ يقولُونَ ربنَا آمنَّا فاكتبنا مع الشاهدين »[٢] أولئك هم : « الذين يَتبِعونَ الرسول النبيّ الأميّ الذى يَجدونَهُ مَكتوباً عندهم فى التّوراةِ والإنجيلِ »[٣] .

وللمسلم أن يعتز بدينه ، فهو كالشمس : تشرق على المسلمين وغير المسلمين .

وللمسلم أن يعتز بإسلامه ، فهو كالهواء النقى : لا يستغنى عنه الخلق ، ولا حياة لهم بدونه .

وللمسلم أن يعتز بقرآنه ، فهو كالماء : فيه حياة لكل من نهل منه .

وليس بعجيب أن يوصى الله المسلم بقوله تعالى : « ولا تُجادِلوا أهلَ الكتاب إلاّ بالّتى هِىَ أحسنُ إلاّ الذينَ ظلمُوا مِنهُم ، وقُولوا آمنّا بالذى أُنزلَ إلينَا وأُنزلَ إليكم ، وإلَهُنا وإلَهُكم واحدٌ ونحن له مُسلمونَ »[٤] . وقوله تعالى : « قُولُوا آمنّا باللهِ وما أُنزلَ إلينَا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتىَ موسى وعيسى ومَا أُوتىَ النبيُّون من ربهم لا نُفَرِّق بينَ أحدٍ منْهم ونحنُ له مُسلمونَ »[٥] .

والواقع أن الله ميز المسلم بإقامة الدين بقوله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ من الدِّينِ ما وَصَّى به نُوحاً والّذى أوحينَا إليك ، وما وصّينَا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقُوا فيه »[٦] .

---

(١) النساء : ١٦٢ .
(٢) المائدة : ٨٣ .
(٣) الأعراف : ١٥٧ .
(٤) العنكبوت : ٤٦ .
(٥) البقرة : ١٣٦ .
(٦) الشورى : ١٣ .

بشارات من التوراة والإنجيل

أولا - من التوراة :

التوراة كلمة عبرية بمعنى « قرآن » وبهذا صار سيدنا موسى عليه السلام يتلقى الوحى من الله ، فيقرؤه لبنى قومه الإسرائيليين ، وعند قراءة التوراة كان على الحبر أن يتأكد من طهارة جسده من كل دنس ، وعند ذكره لفظ الجلالة يجب أن يخر ساجداً خاشعاً من خشية الله تعالى .

ولقد تنبأ سيدنا موسى عليه السلام ببعث الرسول الكريم فى عدة آيات:

١ — قال فى سفر التثنية ٣٣ : ٢ : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران »[١] .

وهذه الآية الكريمة هى البركة التى بارك بها سيدنا موسى عليه السلام بنى إسرائيل فى برية سيناء قبل غروبه إلى الراحة الأبدية .

---

(١) سعير أو أرض سعير أو سير — سلسلة جبال ممتدة فى الجهة الشرقية من وادى عربة من البحر الميت إلى خليج العقبة سميت كذلك نسبة إلى سعير الحورى . والظاهر أنه كان جد سكان تلك الأراضى . وربما كانت تسمى كذلك نسبة إلى خشونة منظر البلاد كلها وهو المرجح . والواقف على قبر هارون فى جبل حور فى أواسط جبال سعير يشاهد ما فى البلاد من الهضاب والصخور والغياض والأشجار الملتفة مما يثبت هذا الرأى . وكانت تسمى أيضاً أرض سعير . أما يوسيفوس وأوسابيوس وأيرونيموس فيسمونها جبال (عيبال) ، ولا يزال القسم الشمالى من جبل سعير حتى الجزيرة العربية يدعى جيبال . وكانت حدود سعير تمتد قديماً إلى العربية وإلى خليج العقبة جنوباً . وإلى حضيض سلسلة جبال عند ابتداء الصحراء شرقاً . وقد ورد ذكرها فى سفر التثنية ٢ : ١ — ٨ (ص ٦٢٣ ج ٩ : دائرة المعارف للبستانى طبعة بيروت سنة ١٨٨٧) .

وأما برية فاران — فعندما طردت هاجر رضوان الله عليها وإسماعيل عليه السلام من لدن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، قيل عن إسماعيل عليه السلام إنه سكن فى برية فاران (تكوين ٢١:٢١) . ودخلها الاسرائيليون بعد مفارقتهم سيناء (عدد ١٠ : ١٢ ، ١٢ : ١٦) =

ولكي نتفهم هذه المعاني لايسعنا إلا التدبر فيما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى : « والتينِ والزيتونِ ، وطُورِ سِينينِ ، وهذا البلدِ الأمينِ »[1] .

ومن هذه الآية القرآنية الكريمة نجد تطابقاً تاما كاملا في الوسيلة والتعبير ، إذ أقسم الله تعالى ببقاع مباركة عظيمة ظهر فيها الخير والبركة في الوسيلة والتعبير ، فالتين والزيتون مجاز عن منابتهما بالأرض المباركة وفيها مهجر إبراهيم ، ومولد عيسى ومسكنه عليهما السلام . وطور سينين الجبل الذى كلم الله عليه سيدنا موسى عليه السلام . والبلد الأمين مكة المكرمة التي ولد فيها وبعث منها أشرف الخلق وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيها البيت المعظم .

والتطابق بين الآية التي وردت في التوراة والآية القرآنية هو : سيناء مجاز عن الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام . وسعير مجاز عن الأرض المباركة التي ولد فيها سيدنا عيسى عليه السلام وسكن بها وجال فيها يصنع خيراً للبشرية . وفاران مجاز عن الأرض التي سكن إليها جد الرسول الكريم: سيدنا إسماعيل عليه السلام .

والأمر الذى يسترعي الانتباه هو : كيف نستدل على أن فاران هي الأرض

= ثم أرسل منها الجواسيس إلى أرض كنعان (عدد ١٣: ٣) و (٢٣ : ٢٦) وقد ذكر في الكتاب المقدس اسم ثمانية عشر موضعا من المواضع التي نزل فيها شعب إسرائيل مدة رحلاتهم في هذه البرية . ويرجح أن بني إسرائيل تفرقوا مدة سكناهم في البرية مسافة شاسعة من الأرض كما تتفرق قبائل البدو الآن . وقد التجأ إليها داود (صموئيل الأول ٢٥ : ١) ومر بها مهدداً ملك آرام لما هرب من وجه داود وموآب (ملوك الأول ١١ : ١٨) .

وجبل فاران هو الجبل الذى تلألأ فيه الرب عندما أتى من سيناء (تثنية ٣٣ : ٣) و(حبقوق ٣ : ٣) ويرجح أنه الجزء الجنوبي من الجبال التي في القسم الشمالي الشرقي من برية بادية التيه المسمى الآن جبل مقرعة ، وفي هذا القسم «عين قادش» التي يظن بعضهم أنها قادش برنيع ، وهذا الجبل يشرف على البادية ويحجب عن الصاعد منها منظر جبال أرض يهودا(ص ١٣٦ ، ١٤٧ ج ٢ : قاموس الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٩٠١).

(١) سورة التين : ١ ، ٢ ، ٣ .

المباركة التى سكن فيها سيدنا إسماعيل جد الرسول الكريم عليهما أفضل الصلاة والسلام ؟[1] .

والدليل على هذا من التوراة فى سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع زوجتيه سارة وهاجر ، لقد كانت هاجر جارية للسيدة سارة وصارت زوجة لسيدنا إبراهيم عليه السلام لإنجاب نسل له . وظنت السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم أن مهمة جاريتها السيدة هاجر هى إنجاب نسل مع بقائها جارية تسخرها السيدة سارة كيفما شاءت وأرادت .

وأنجبت السيدة هاجر ابنا لإبراهيم عليه السلام ، وكان هذا الابن قرة عينيها وبهجة قلبها ، لكن الزمن لم يرحمها فأذلتها سيدتها السيدة سارة ، وخضعت هى لها ، وازدادت السيدة سارة إذلالا لها وتعنتا ، فاستجارت بزوجها إبراهيم عليه السلام لكنه تركها لسيدتها السيدة سارة بقوله لها : « هوذا جاريتك » . فاشتدت بها إيلاما وإيذاء حتى هربت ترجو النجاة مما ألم بها . فقابلها ملاك الله فى الطريق « فقال لها الملاك : مالك يا هاجر ؟ لاتخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام ، فكبر وسكن فى البرية . وكان ينمو رامى قوس ،

---

(١) يحمل المسيحيون هذه البشارة على المسيح ، والحقيقة أن بشارة موسى عليه السلام فى التثنية ١٨ : ١٨ ، لا تنطبق على عيسى عليه السلام لأن المفروض المماثلة الحقيقية وهى لا تنطبق على عيسى عليه السلام ، لأن المبشر به نبي وعيسى عليه السلام عندهم إله ، وأنه يكون صاحب شريعة تامة كاملة مستقلة وعيسى عليه السلام لم تكن له شريعة ، وقد أقر على نفسه بذلك بقوله : « ما جئت لأنقض بل لأكمل » . (إنجيل متى ٥ : ١٧) ، وموسى كان متزوجا وله أولاد بخلاف المسيح بن مريم ، وموسى حارب أعداء الله ، والمسيح لم يحارب قط . وإذا كان المسيح عليه السلام — حسب اعتقادهم — ظهر بمولده وانتهى أمره بموته . فما معنى أن يبشر تابعوه بأن ملكوت السموات قد اقترب ، مع أنه جاء فى شخص المسيح وانتهى كما يقولون ؟ (قصص الأنبياء ، لعبد الوهاب النجار) .

وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر »[1] .

فيتضح من التوراة إذن أن الذى سكن أرض فاران هو سيدنا إسماعيل عليه السلام ، ولعل الله فى حكمته سمح بهذه التيارات التى تفاعلت فى بيت سيدنا إبراهيم عليه السلام ليستقر إسماعيل فى أرض يتميز بها ، وتأتى النبوة على لسان موسى عليه السلام بقوله : « تلألأ من جبل فاران »[2] .

٢ — قال فى سفر التثنية ١٨ : ١٥ : « يقيم الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون » .

٣ — قال فى سفر التثنية ١٨ : ١٨ : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .

والإعجاز فى هاتين الآيتين فى العبارة : « من إخوتك . من وسط إخوتهم » . والإعجاز الأقوى فى قوله : « أجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » . هذا هو الإعجاز فى النبوة .

ويشاء الله — وهو العليم بجبلة بنى إسرائيل — كما وضح لنا بقوله تعالى : « الذين آتيناهُمُ الكتابَ يعرفُونَهُ كما يَعرفُون أبناءَهُمْ . وإن فَرِيقاً منهم لَيكتُمُونَ الحقَّ وهُمْ يَعلمُونَ »[3] — يشاء الله أن يجعل الأمر لإسرائيل طلسما حتى لا يحرفوا الكلم عن مواضعه ، فيظهر الحق ويزهق الباطل ، ويحرصوا على حماية الرسول الكريم ، وهم لا يدرون ، وينتظروا الرسول الكريم ، لكنهم كانوا يظنون أنه إسرائيلى لا عربى ، فلما بعث رسول الله ﷺ خاب رجاؤهم ، وقابلوه بعدوان . كأنه اغتصب منهم النبوة والكتاب والملك .

---

(١) سفر التكوين ٢١ : ١٧ — ٢١ .
(٢) تث ٣٣ : ٢ .　　(٣) البقرة : ١٤٦ .

ولنا من التاريخ الديني عبرة ، والله يضرب للناس الأمثال لعلهم يهتدون ، فقد شاءت إرادة القدير أن ينجي شعبه من بني إسرائيل من ظلم فرعون مصر ، وأراد فرعون أن يدرأ عن نفسه ما تنبأ له به الكهنة من أنه يولد من بني إسرائيل ولد ينتزع منه السلطان فأمر بقتل الذكور ممن يولد للإسرائيليين ، حتى كان مولد سيدنا موسى عليه السلام ، ويسخر الله فرعون وجنوده لحماية هذا الوليد . وتبلغ السخرية حد القسوة ، فيجعل أمانه وملجأه في بيت فرعون ، ليتهذب بكل حكمة المصريين ، وليعرف أسرارهم وقوتهم ، وكأنه بإرادة إلهية جعله الله عينا لإسرائيل ليتعرف على قوتهم وعتادهم ، هذه هي معاملة الله لكل ماكر عنيد والله خير الماكرين . إن إسرائيل أرادت أن تطفيء النور في شخص إسماعيل عليه السلام لكن الله متم نوره ولو كرهوا .

فشكراً لإسرائيل ، لأنهم حرصوا على سلسلة نسب الرسول الكريم في جده إسماعيل ، شكراً لهؤلاء ، لأنهم أشادوا بمجد العرب في إسماعيل عليه السلام فأرادوا له اندثاراً ، ولكن الله ثبته وثبت ملكه في حفيده الرسول الكريم ، وأرادوا التنكيل به كما ورد في قولهم : « اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق »[1] ، ولكن الله يدعم إسماعيل بالحق بقوله : «سأجعله أمة عظيمة »[2] ، ليولد منه سيد ولد عدنان محمد ﷺ.

وهكذا كان صراع بين إرادة بني إسرائيل وإرادة الله القدير العزيز ، وأنى للإسرائيليين أن يغيروا مقصد العلي الكبير ، فباتوا في حسرة وندم ، « وباءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » ثم « بَاءوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ » .

ودعني أيها القاريء العزيز أتتبع البشارات من التوراة للأنبياء إلى

---

(١) تكوين ٢١ : ١٠ . (٢) تكوين ٢١ : ١٧ — ٢١ .

الإنجيل ، ثم نربط هذه السلسلة بتقريظ من بعث الرسول الكريم ،فأنتقل بك إلى النبوءات التى بشرت بالرسول الكريم ، كما وردت عن الأنبياء .

ثانيا — من الأنبياء :

١ — فى سفر دانيال :

فى الفترة من سنة ٥٩٧ إلى ٥٣٨ ق . م ، وفى أيام دانيال النبى ، وفى أرض السبى بمملكة بابل ، وفى السنة الثانية من ملك الملك نبوخذ نصر ملك بابل — يلهم القدير ذلك الملك الوثنى برؤيا منامية ، ويكشف له الإمبراطوريات التى تتعاقب وتدور حتى يأتى الإسلام دينا ودولة ، ويرمز إليه بحجر قطع بغير يدين ، والقصة وردت فى سفر دانيال ٢ : ١ — ٣٥ ، نكتفى منها بما ورد فى هذا الجزء : « كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين . فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف ، فسحقهما فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا ، وصار كعصافة البيدر فى الصيف ، فحملتها الريح ، فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيراً وملأ الأرض كلها »[1] .

هذه الرؤيا المنامية التى أراها القدير — وهو رب العالمين ، رب المؤمنين والوثنيين ، والجميع يعملون وفق إرادته وعلمه السابق ، لا يتعدى أى منهم النطاق الذى يحيا فيه إلا بإذنه — هذه الرؤيا يراها نبوخذ نصر الملك ويعبر عنها نبى الله المؤمن ، ويفسرها بإذن الله ، ويتحقق هذا فى حقب التاريخ التى تعاقبت كالآتى :

١ — سنة ٧٠١ ق.م ، مملكة بابل ، ويرمز إليها بالرأس من الذهب فى عهد نبوخذ نصر .

---

(١) دانيال ٢ : ٣١ — ٣٥ .

٢ — سنة ٦١٢ ق.م ، مملكة الكلدانيين فى عهد ميداس ، ويرمز لها بالفضة .

٣ — سنة ٣٢٦ ق . م ، المملكة الإغريقية فى عهد الإسكندر المقدونى ، ويرمز لها بالنحاس .

٤ — سنة ٥٣ ق م ، الإمبراطورية الرومانية فى عهد بومباى ، ويرمز لها بالحديد .

٥ — سنة ٦١٢ م ، الإمبراطورية البيزنطية فى الغرب ، والإمبراطورية الفارسية الساسانية فى الشرق .

٦ — سنة ٦٣٢م ، الإسلام ، وكتب الرسول إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، والغزو الإسلامى دفاعا عن هجوم أعداء الإسلام ، وتقويض الإمبراطورية البيزنطية فى الغرب والإمبراطورية الفارسية فى الشرق .

وهكذا بسط الإسلام لواءه فى ربوع الأرض من مشرقها إلى مغربها .

٣ — فى سفر اشعياء النبي :

فى سنة ٧٠٠ ق . م ، وفى أرض السبي ، وفى بابل تنبأ النبى الإسرائيلي أشعياء بالإسلام دينا ودولة :

ففى أشعياء ٦٠ : ١ — ٧ : « قومى استنيرى ، لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك ، لأنه هاهى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم . أما عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى . فتسير الأمم فى نورك ، والملوك فى ضياء إشراقك . ارفعى عينيك حواليك . وانظرى ، قد اجتمعوا كلهم ، جاءوا إليك يأتى بنوك من بعيد ، تحمل بناتك على الأيدى . حينئذ تنظرين

وتنيرين . يخفق قلبك ويتسع ، لأنه تتحول إليك ثروة البحر ، ويأتى إليك غنى الأمم . تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا تحمل ذهباً ولباناً . وتبشر بتسابيح الرب . كل غنم قيدار[1] تجتمع إليك . كباش نبايوت تخدمك . تصعد إليك مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى » .

وفى أشعياء ٤٢ : ١٠ — ١٢ : « غنوا للرب أغنية جديدة . تسبيحة من أقصى الأرض . أيها المنحدرون فى البحر وملؤه والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها . الديار التى سكنها قيدار ، لتترنم سالع[2] ، من رءوس الجبال ليهتفوا ، ليعطوا الرب مجداً ، ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر . الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه » .

وهنا نتساءل : أين الرسول الكريم فى تلكم الآيات التى وردت آنفا ؟

وللإجابة عن هذا نجد صلة نسب الرسول الكريم من نبايوت بن إسماعيل بن إبراهيم عليهم أفضل الصلوات والسلام ، وهذه السلسلة النبوية الكريمة يدونها موسى عليه السلام هكذا : « وهذه أسماء بنى إسماعيل حسب مواليدهم : نبايوت بكر إسماعيل ، وقيدار . . اثنى عشر قبيلة »[3] .

ويزداد الأمر وضوحا وإشراقا بذكر رموز خاصة مثل « كثرة الجمال » ، « يأتى إليك غنى الأمم » ، « غنم قيدار » ، « كباش نبايوت » ، « تصعد

---

(١) قيدار : هو ابن سيدنا إسماعيل عليه السلام . اقرأ تكوين ٢٥ : ١٢ — ١٨ ، تكوين ٢١ : ١٣ .

(٢) فى القاموس : سلع جبل بالمدينة ، وسليع بالتصغير جبيل بالمدينة يقال له : هبهب . وقال السيد المستشار على على منصور : سالع جبل قبالة جبل أحد .

(٣) سفر التكوين ٢٥ : ١٣ .

مقبولة على مذبحى » ، إشارة إلى يوم النحر بمنى ، و « جبل عرفات بمكة » ، « الجزائر وسكانها » ، « الديار التى سكنها قيدار » ، « رب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض » . ولقد قال الغرب : إن الإسلام قام غازيا كجبار ، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه .

٣ — فى سفر حبقوق :

قال نبى العهد القديم : « الله جاء من تيمن[١] . والقدوس من جبل فاران . سلاه . جلاله غطى السموات . والأرض امتلأت من تسبيحه . وكان لمعان كالنور . له من يده شعاع وهناك استتار قدرته »[٢] .

يتنبأ حبقوق بالرسول والرسالة وامتداد رقعة الإسلام ، فيوضح سلسلة نسب الرسول الكريم بمنبت جده إسماعيل عليه السلام فى أرض فاران ثم يتحدث عن امتداد الإسلام حيث تسبح الأرض بحمد الله قائلة : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ثم يتحدث عن الركع والسجود الذين يملأون الأرض بحمده وتسبيحه ، ثم يتحدث عن الإعجاز للقرآن الكريم ، الإعجاز العلمى فى كل ميادين العلم ، وإعجاز تأثيره على السامعين : « إنا سمعنا قُرآناً عَجباً يَهْدِى إلى الرُّشْدِ فآمنَّا به » .

---

(١) فى القاموس : أرض تيماء — قفرة مضلة مهلكة أو واسعة . والتيماء : الفلاة . وقال ياقوت : تيماء بليد فى أطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق ، والأبلق الفرد — حصن السموءل — مشرف عليها ، فلذلك كان يقال لها : تيماء اليهودى . ولما بلغ أهلها سنة ٩ هجرية قدوم النبى صلى الله عليه وسلم إلى وادى القرى أرسلوا وصالحوه على الجزية ، وأقاموا ببلادهم . فلما أجلى عمر اليهود عن جزيرة العرب أجلاهم معهم .

وكانت تيماء حصنا أعمر من تبوك ، وحاضرة بنى طيء ، والى الشمال الشرقى منها التعلية إلى الجنوب الشرقى فيه . (ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ج ٦ : دائرة المعارف لابستانى طبعة بيروت سنة ١٨٨٢) .

(٢) حب ٣ : ٣و٤ .

أنتقل بالقارىء العزيز إلى مرحلة ثالثة وهى البشارات التى وردت عن الرسول الكريم فى الإنجيل .

ثالثا — نبوءات من الانجيل :

يقول سيدنا عيسى عليه السلام للحواريين : « إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية »[1] .

ولعلك أيها القارىء العزيز تستطيع أن تجمع بين قول عيسى فى هذه الآية ، وقول موسى فى الآية التى وردت آنفا بصفحة ٣٨ : « وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » . فتجد الأضواء تسلط على نبى سيأتى . من هذا النبى ؟ لم يكن موسى ، ولم يكن عيسى ، فمن هذا النبى الكريم ؟ إن الأضواء تتجمع فى بؤرة واحدة لتكشف عن شخصية هذا النبى .

ولعل سيدنا عيسى عليه السلام يزيد وضوحا فى تعريفه لهذا النبى ، فيخبرنا عنه أنه « روح الحق » ، ولسيدنا محمد أسماء منها ، « روح الحق » . ويحدثنا الله عن الرسول الكريم فيقول : « وما ينطقُ عن الهَوَى إنْ هُوَ إلاّ وَحْىٌ يُوحَى . علَّمهُ شَدِيدُ القُوَى »[2] ، وهذا يتفق مع قول الرسولين الكبيرين : موسى وعيسى عليهما السلام : «لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » ، « وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .

المسيح عليه السلام صوت يتنبأ بمقدم الرسول الكريم :

لقد جهد المسيح عليه السلام من الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين ، وندد بهم بقوله : « ليس كل من يقول : يارب ، يارب ، يدخل ملكوت

---

(١) إنجيل يوحنا ١٢ : ١٢و١٣ . (٢) النجم : ٣— ٥ .

السموات . بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات . كثيرون يقولون لى فى ذلك اليوم : يارب ، يارب ، أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ، فحينئذ أصرح لهم إنى لم أعرفكم قط ، اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم »[١] .

وأسى الشعب فقال عنهم : « يقترب إلىّ هذا الشعب بفمه ، ويكرمنى بشفتيه ، وأما قلبه فيبتعد عنى بعيدا ، وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس »[٢] .

وفى هذا القول ترديد لما قاله نبى العهد القديم أشعياء وهو فى أرض السبى فى بابل سنة ٧٠١ ق م : « فقال السيد : إن هذا الشعب قد اقترب إلى بفمه ، وأكرمنى بشفتيه ،وأما قلبه فأبعده عنى بعيدا وصارت مخافتهم منى وصية الناس معلمة . لذلك ويل للذين يتعمقون ليكتموا رأيهم عن الرب ، فتصير أعمالهم فى الظلمة ويقولون : من يبصرنا ؟ ومن يعرفنا ؟ يا لتحريفكم ! هل يحسب الجابل كالطين حتى يقول المصنوع عن صانعه لم يصنعنى . أو تقول الجبلة عن جابلها : لم يفهم ؟ »[٣] .

فيقرر سيدنا عيسى عليه السلام قرار الرب بانتزاع النبوة والكتاب من ذرية إسحق إلى ذرية من ؟

قال لهم يسوع : « أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون، هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره »[٤] .

---

(١) إنجيل متى ٧ : ٢١ — ٢٣ .   (٢) إنجيل متى ١٥ : ٨و٩ .
(٣) سفر إشعياء ٢٩ : ١٣ — ١٦ .   (٤) إنجيل متى ٢١ : ٤٢و٤٣ .

ولتفسير هذا القرار الخطير نستند إلى قوله تعالى فى القرآن الكريم لعلنا نهتدى إلى شخصية الرسول الكريم الذى يتحدث عنه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام :

١ — الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية :

قال الرسول الكريم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا، فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وضعت هنا لبنة فيتم البناء ؟ قال ﷺ : فأنا اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء »[1] . صدق رسول الله الذى يؤيده القدير بقوله : « إنهُ لَقَولُ رَسُولٍ كريم . وما هُو بقول شاعر ، قليلا ما تُؤمنون . ولا بقولِ كاهنٍ ، قليلا ماتذكّرُونَ . تنزيلٌ من رّب العالمين »[2] .

وقد سبق أن وضحت من هو النبى الذى رفضه بنو قومه : إنه جد الرسول عليه السلام ، إنه سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وذلك بإقرار أهل الكتاب وتفاخرهم عليه بقولهم : « إذن لسنا أولاد جارية ، بل أولاد حرة » .

٢ — إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره :

قال الله تعالى : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمةٍ أُخرجَتْ للناس تأمُرُون بالمعروف وتنهَوْن عن المُنكرِ وتؤمنون بالله ، ولو آمنَ أهلُ الكِتابِ لكان خيراً لهم »[3] .

---

(١) روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن أبى هريرة وأبى سعيد وجابر رضى الله عنهم (راجع باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء من كتاب الفضائل ج٤ : صحيح مسلم ، طبع الحلبى) .

(٢) الحاقة : ٤٠ — ٤٣ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

ولعلك أيها القارىء العزيز استطعت أن تدرك المقصود بالحجر : إنه مجاز عن الرسول الكريم ، كما أن فاران مجاز عن الأرض التى سكنها جد الرسول سيدنا إسماعيل عليه السلام .

ومن هنا نستطيع أن ندرك النبوءة العظمى التى تنبأ بها ملك وثنى ، وعبر عنها نبى من بنى إسرائيل هو سيدنا دانيال نبى الله فى العبارة : « كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين ، فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف ، فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس ، والفضة والذهب معا ، وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، فحملتها الريح ، فلم يوجد لها مكان . . . أما الحجر الذى ضرب التمثال — فصار جبلا كبيرا ، وملأ الأرض كلها » .

هذه هى الحقيقة التاريخية التى وردت فى الأنبياء فى سفر دانيال تؤيدها الحقيقة التاريخية إبان بزوغ الإسلام وتقويضه لإمبراطورية الرومان بالغرب وفارس فى الشرق ، وامتداد الإسلام شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا .

وفى هذه الحقبة من الزمن يتنبأ نبى آخر عن الجزيرة العربية وعن البلد الأمين وعن مناسك الحج ، فيتحدث عن بزوغ نور الإسلام بقوله : « ها هى الظلمة تغطى الأرض ، والظلام الدامس الأمم ، أما عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك » .

وهذه حقيقة تاريخية يثبتها التاريخ : فبينما العالم الشرقى والعالم الغربى بفلسفاتهما العقيمة يعيشان فى دياجير ظلام الفكر ، وفساد العبادة — بزغ من مكة المكرمة — فى شخص سيدنا محمد رسول الله — ﷺ نور وضاء ، أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام .

ويتحدث عن إقبال الأمم لمكة ولبيت الله الحرام ، يسوقون الهدى للذبح على جبل عرفات بقوله : « تغطيك كثرة الجمال بكران مديان . . . تبشر

بتسابيح الرب . كل غنم قيدار تجتمع إليك . كباش نبايوت تخدمك تصعد مقبولة على مذبحى ، وأزين بيت جمالى » .

ويرتبط هذا النبى بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح فى قوله عنه : « ويخبركم بأمور آتية » ، هذا الإعجاز هو القرآن الكريم معجزة الرسول الباقية ما بقى الزمان .

فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث فى كل مناحيه : من طب وفلك وجغرافيا ، وجيولوجيا ، وقانون ، واجتماع ، وتاريخ . . . ففى أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف : أن يرى الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، إذ قال تيتوف أثناء رحلته فى الفضاء حول الكرة الأرضية : إنه ذهل لهذا المنظر عند بزوغ الخيوط الأولى من النور لتنقشع على أثرها الخيوط الأخيرة الظلام ، وفى رحلته استطاع أن يرى كروية الأرض ، وقد سبق القرآن الكريم توضيح الأمر بقوله : « والأرضَ بَعْدَ ذلك دَحاهَا »[1] .

ويتحدث جاجارين عن رحلته فى الفضاء إلى القمر ومشاهداته للأفلاك ، بما قد سبق القرآن الكريم فأخبر به فى قوله تعالى : « خلَقَ السموات بغير عَمدٍ تَرونَها وألقَى فى الأرض رواسيَ أن تَميدَ بكم »[2] . وقوله تعالى : « والشمسِ وضُحاها والقمرِ إذا تلاها . والنهار إذا جَلّاها . والليل إذا يَغشاها . والسماء وما بَناها . والأرضِ وما طَحاها . ونَفْسٍ وما سَوّاها »[3] . « إن فى خلق السمواتِ والأرض . . . والسحابِ المسخرِ بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يَعقلون »[4] .

---

(١) النازعات : ٣٠ .
(٢) لقمان : ١٠ .
(٣) أوائل سورة الشمس .
(٤) البقرة : ١٦٤ .

وأعتقد يقيناً أنني لو كنت إنساناً وجودياً (من أنصار الفيلسوف سارتر) لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية ، وجاءني نفر من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث — في كل مناحيه — لآمنت برب العــــزة والجبروت ، خالق السموات والأرض ، ولم أشرك به أحدا . فكيف بي وقد أضاء الله قلبي بنور من الإيمان بتلك الرسالات السماوية ، فما إن أشرقت شمس الإسلام حتى تمت الاستنارة المطلقة والإيمان الكامل : « اليومَ أكْمَلت لكُم دينَكم ، وأتممتُ عليكم نعمتِي ورضيت لكم الإسلامَ دِينا »[1] .

---

(١) المائدة : ٣ .

الباب الثانى

ما الذى اختلف عليه أهل الكتاب ؟

« وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليهود ولاَ النَّصَارَى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قل إن هُدَى الله هُوَ الهُدَى »[1] .

إن العداوة القائمة بين العرب وإسرائيل عداوة قديمة قدم الزمن ، فمنابتها منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وجذورها تتأصل فى قلب السيدة الأولى فى تاريخ الإيمان وهى السيدة سارة ، وسهام هذه العداوة موجهة إلى السيدة الوديعة المطمئنة ، التى شاء القدر أن تصير لها جارية ، وهى السيدة هاجر .

لقد أرادت سارة ابنا لإبراهيم ، وهى المرأة العاقر ، فأدخلت إبراهيم على هاجر جاريتها ، فحملت هاجر ، وولدت إسماعيل ، وظنت هاجر أنها أصبحت حرة تشارك السيدة سارة قلب إبراهيم عليه السلام ، لكن سارة سرعان ما امتعضت ، وصرخت إلى سيدنا إبراهيم قائلة : « ظلمى عليك ، أنا دفعت جاريتى إلى حضنك . فلما رأت أنها حبلى صغرت فى عينيها . يقضى الرب بينى وبينك »[2] .

ولم يجد سيدنا إبراهيم عليه السلام إلا التسليم لإرادة زوجته سارة ، فقال لها : « هو ذا جاريتك فى يدك . افعل بها ما يحسن فى عينيك . فأذلتها ساراى فهربت من وجهها »[3] .

---

(١) البقرة : ١٢٠ .

(٢) سفر التكوين ١٦ : ٤ و٥ .

(٣) سفر التكوين ١٦ : ٥ و٦ .

وتوارث الإسرائيليون هذه العداوة من جيل إلى جيل حتى كان عهد الحواريين ، فقال بولس المدعو رسولا لشيعة النصارى : «ماذا يقول الكتاب ؟ اطرد الجارية وابنها ، لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة . إذن أيها الإخوة لسنا أولاد جارية ، بل أولاد حرة »[١] .

وتوارث الإسرائيليون هذه العداوة وتأصلت فى نفوسهم ، وأثمرت غروراً وعنجهية ، فظنوا فى أنفسهم أنهم (شعب الله المختار) وأن بقية الخلق هم الأمم الذين لا يرقون إلى مرتبة الإنسانية ، فهم عبيد الأرض ، وهم الأرقاء ، هم حثالة الخلق . هذا ظنهم وهذا افتراؤهم ، وبئس ما يفترون !

وجاء النبى الكريم بالبشرى والرحمة للعالمين . فقال : قال الله تعالى : « يأيُّهَا الناسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ من ذكرٍ وأُنثَى وجعلناكُمْ شُعُوبا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إنّ أكرَمَكُمْ عند الله أتقاكم »[٢] . فأكرم الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعزة والكرامة : « إن أكرمكم عندَ الله أتقاكم » .

أكرم الله المجتمع ببناء سليم : « إنّا خلقناكُمْ مِنْ ذَكرٍ وأُنثى وجعَلْنا كُمْ شُعُوباً وَقبَائلَ لِتعارَفُوا » ، وفى هذا البناء السليم الخير والرفاهية والسلام .

ولعلك أيها القارىء استطعت أن تدرك أن الإسلام يبنى الإنسان بكرامة ، ويبنى الإنسانية بعزة بالتعاون الاشتراكى ، ويؤلف بين القلوب فى خشية الله وإجلاله : « إنّ أكرَمكمْ عندَ الله أتقاكمْ » .

وهنا نتساءل : ما الذى يختلف عليه أهل الكتاب ؟

والرد على هذا يكمن فى البحث العلمى الذى قام به العلامة البريطانى البروفسور توينبى ، من بحث مستند إلى التاريخ الزمنى وتاريخ التوراة والإنجيل

---

(١) غلاطية ٤ : ٢٩ ـ ٣١ .   (٢) الحجرات : ١٣ .

معبرا عن رأيه بقوله : « إن النفسية التى تدمغ اليهودى أساسها خطيئتهم القاتلة التى ارتكبوها فى حق أنفسهم ، إذ كانوا فى سالف العصور الشعب الوحيد الذى بلغ مكانة روحانية سامية بفضل اعتناقه وحدانية الله ، وبلغوا مكانة روحية سامية دون بقية الشعوب ، لكن اليهود بعد أن زودهم الله بهذه الحقيقة المطلقة الخالدة ، وأودع فيهم فراسة وروحانية لا تبارى ، تركوا العنان لأنانيتهم فاستهواهم سراب دنيوى خادع ، إذ توهموا أن السمو الروحى الذى بلغوه إنما خلعه الله عليهم وحدهم بموجب عقد أبدى يجعل منهم شعب الله المختار » .

وبذلك ترددوا فى خطأ مميت ، ولعل هذه المفاهيم الخاطئة كانت سبباً فى غضب الله عليهم حتى قال ذو العزة والجلال : « إِنّى جاعِلُك للناسِ إماماً قالَ : ومِنْ ذرِّيتى . قال : لا يَنال عَهْدِى الظَّالِمِينَ »[1] .

وهنا أيضا نتساءل عن الدافع الذى قاد اليهود إلى اعتبار أنفسهم شعب الله المختار ، وإلى سيطرة تلك النفسية المميزة عليهم ؟

ويكمن الرد على هذا التساؤل فى الأحداث التى جلبها اليهود على أنفسهم . فمنذ القدم قال لهم خليفة موسى عليه السلام يشوع بن نون — وهو يدخل أرض فلسطين: « بهذا تعلمون أن الله الحى فى وسطكم ، وطرداً يطرد من أمامكم الكنعانيين ، والحثيين ، والحويين ، والفرزيين ، والجرجاشيين ، والأموريين ، واليبوسيين »[2] .

قال لهم يشوع : « إن الله سيحارب عنكم ، وينتزع أرضا من أهلها ويورثها لكم » .

وسكن بنو إسرائيل أرض فلسطين منـــــذ خروجهم من مصر سنة ١٣٧٥ ق . م . وما زالت تلك الشعوب فى وسطهم . ومنذ تلك العصور

---

(١) البقرة : ١٢٤ .   (٢) سفر يشوع ٣ : ١٠ .

الأولى بدت فيهم رغبة قاتلة لمناهضة الشعوب حولهم ، ومناهضة الإمبراطوريات التي تكونت في الشرق الأوسط ، وذلك بالعدوان على جيرانهم من الأمم الأخرى .

ولهذا عمد البابليون إلى اقتلاعهم من فلسطين ، ونقلهم إلى بابل في عهد نبوخذ نصر ، وفي سنة ٧٢٢ ق . م غزا سرجون الثاني ملك أشور فلسطين ، ودمر هيكل سليمان ، وسبى الإسرائيليين إلى بابل ونينوى ، وداس مقدساتهم . ولا غرابة بعد ذلك في ضياع أصول التوراة والأنبياء والمزامير .

فلما انقضى أجل الإمبراطورية الأشورية بقيام إمبراطورية فارسية أسسها قورش . سمح لهم الفاتح الجديد بالعودة إلى فلسطين ، ولم يطل بهم المقام إذ استولت روما على فلسطين في عهد بومباى العاهل الروماني سنة ٥٣ ق . م ، فخضعوا للإمبراطورية الرومانية في بادىء الأمر ، لكن سرعان ما تألبوا ، وعادوا جيرانهم ، وتعدوا عليهم العدوان الأثيم ، مما اضطر جيرانهم إلى سحقهم ، وتشتيتهم في بقاع الأرض .

وهنا يتجلى الخطأ الذي تردوا فيه ، لقد ظنوا أنهم امتلكوا الأرض بقوتهم واقتدارهم ، ونسوا الله الذي أراد أن يورثها لهم فلما عاندوا وتمردوا سلمهم للهزيمة والسحق ، وأنذرهم نبيهم إرميا بهذا القول : « ويعبر أمم كثيرة في هذه المدينة ويقول الواحد لصاحبه : لماذا فعل الرب مثل هذا لهذه المدينة العظيمة ؟ فيقولون : من أجل أنهم تركوا عهد الرب إلههم ، وسجدوا لآلهة أخرى وعبدوها »(1) .

لقد أنذرهم ذلك النبي سنة ٧٢٢ ق.م بهذا المصير ، ولم يرع بنو إسرائيل الحق ولا الأمانة ، فكان قول الله عنهم : « يابَنِى إسرائيلَ اذكُرُوا نِعمتِيَ

(1) إرميا ٢٢ : ٨ و ٩ .

التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأنى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالمِينَ . واتَّقُوا يوماً لا تَجْزِى نفسٌ عَنْ نَفس شَيئاً وَلاَ يُقْبَل مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُم يُنصَرُونَ »[1] .

ولما تبين لليهود عقم العنف فى تحقيق غاياتهم فى السيطرة ركنوا إلى الخيال يستلهمونه حل مشكلة الحفاظ على كيانهم المهدد بالزوال ، فكان أن بث الأحبار فى نفوس اليهود أنهم شعب الله المختار ، وأن العالم يتألف من أشتات الناس مقدرا لهم الخضوع لسيطرتهم فى نهاية المطاف .

وأخذوا يتشبثون بأهداب الآمال العريضة فى مولد ملك من نسل داود ، يخلصهم من نير الرومان ، ويتسلط على الأرض ، ويمتلكون معه ، ويقيم لهم إمبراطورية كونية قاعدتها أورشليم « بيت المقدس » ويجعل منهم العنصر الحاكم ، وأطلقوا على المخلص المرتقب اسم المسيح ، والمسيح لقب ظهر فى التوراة يوم مسح شاول بن قيس ملكا على إسرائيل ، فى يوم تتويجه صبوا على رأسه دهنا ، ومسحوه به ، وبهذا سمى مسيح الله ، أى الذى مسحه الله بدهن الابتهاج ، كعلامة الرضا والتأييد ، وأطلقوا على المسيح بن مريم المخلص ، أى يسوع ، وهى كلمة يونانية تفيد معنى : المخلص ، وكلمة يسوع مع تحوير بسيط ننطقها نحن المسلمين عيسى .

ويركن أهل الكتاب إلى نبوءة ، وإلى تذكير بهذه النبوءة ، أما النبوءة فقد وردت فى سفر زكريا : « ابتهجى جداً يا ابنة صهيون ، اهتفى يا بنت أورشليم ، هو ذا ملكك يأتى إليك ، هو عادل ومنصور ووديع وراكب على حمار ، وعلى جحش ابن أتان »[2] .

---

(١) البقرة : ١٢٢ — ١٢٣ ، واقرأ الآيات : ٤٠ — ٤٨ منها .
(٢) زكريا ٩ : ٩ .

وأما التذكير بهذه النبوءة فهو : « قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على أتان »[1] .

ويأتى المسيح عليه السلام فيستنكر هذا كله .

١ — أما عن الإمبراطورية الإسرائيلية : فإنه يقوض هذا الوهم بهذه الحقيقة فى قوله : « يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء والمرسلين . .. هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا » . وقد تم التخريب والتدمير الشامل فى عهد الدولة الفارسية الساسانية سنة ٦١٤ م .

٢ — وأما عن شخصيته ، فإنه يقول : « مملكتى ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكيلا أسلم إلى اليهود »[2] .

وعندما أرادوا أن يأخذوه بمكر قدموا له دينارا وسألوه : أتعطى جزية لقيصر ؟ فأجابهم : لمن هذه الصورة ، ولمن الكتابة ؟ قالوا : لقيصر . قال : ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وبهذا أفحمهم جوابا وحسم الأمر . ولقد أفاض Will Durant فى هذا الشأن تحت عنوان المسيح والإنجيل فى كتابه :

The Story of Civilization, Vol. III pp. 564-570.

ما حديث الأناجيل عن شخصية المسيح ؟

إن المسيح عيسى بن مريم لم يكن من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء والأسنيون ويوحنا المعمدان[3] .

بل كان كما يروى عنه متى الإنجيلى : « أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطاة »[4] . وقال عنه يوحنا الإنجيلى : « إنه قدم كثيراً من الخمر

---

(١) إنجيل متى ٢١ : ٥ .
(٢) إنجيل يوحنا ١٨ : ٣٦ .
(٣) يحيى بن زكريا .
(٤) متى ١١ : ١٩ .

فى حفل الزواج »[1] . وقال عنه لوقا الإنجيلى : « إنه قبل عاهرا تائبة ضمن أتباعه »[2] .

متى بدأ ظهوره ؟

بدأ ظهوره وعمله على أثر سجن يوحنا المعمدان : « وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله »[3] ، « وأخذ يعمل عمل يوحنا المعمدان ويخطب فى الناس مبشرا بملكوت الله حتى ظن أتباع يوحنا المعمدان أن يوحنا المعمدان قد قام من الأموات »[4] .

المسيح واختياره لتلاميذه :

لقد اختار المسيح تلاميذه من طراز يصعب على المفكر أن يقول إنهم من النوع القيادى الذى يستطيع بشخصيته أن يبدل اتجاهات العالم وتفكيره[5] . فالأناجيل تظهر مابين أخلاقهم من اختلاف واقعى ، وتكشف عيوبهم كشفا صريحا ، فهذا بطرس — الذى قال لسيده المسيح : « وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك فيك أبدا »[6] — ينكر صحبته لسيده المسيح عند محاكمة المسيح[7] فى بيت قيافا رئيس الكهنة : « فأنكر قدام الجميع قائلا : لست أعرف الرجل »[8] ، وهذا يهوذا يخون سيده ، فيتنبأ عنه المسيح وعن خيانته بقوله : « إن واحداً منكم يسلمنى ، فأجاب يهوذا مسلمه وقال : هل أنا هو يا سيدى ؟ قال له : أنت قلت »[9] ، وبقبلة خان يهوذا سيده : « فقال له يسوع : يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الإنسان؟! »[10] . وهذان هما يوحنا ويعقوب ابنا زبدى لايخفيان مطامعهما ، فيقولان للمسيح : « أعطنا أن نجلس ، واحد عن يمينك ، والآخر

---

(١) يوحنا ٢ : ١ — ١٠ .

(٢) لوقا ٧ : ٣٧ ، ٣٨ ، يوحنا ١١ : ٢ ، يوحنا ١٢ : ٣ . (٣) مر ١ : ١٤ .

(٤) لو ٩ : ٧ — ٩ . (٥) متى ٤ : ١٨ — ٢٠ . (٦) متى ٢٦ : ٣٢ .

(٧) شبيه المسيح . (٨) متى ٢٦ : ٧٠ ، ٧٢ . (٩) متى ٢٦ : ٢٠ ، ٢٥ .

(١٠) لوقا ٢٢ : ٤٨ .

عن يسارك — فى مجدك »[١] ، والتلاميذ جميعا كانت مطامعهم تتفق مع مطامع هذين التلميذين ، حتى أن المسيح أراد أن يهدىء من هذه المطامع ، فوعدهم بأنهم سيجلسون على اثنى عشر كرسيا ، يدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر[٢] .

المشكلة التى واجهها المسيح فى إنجيله :

لقد أدرك المسيح أنه لن يحقق القومية اليهودية بالصورة التى أرادها اليهود ، ولهذا قال : « مملكتى ليست من هذا العالم »[٣] .

ولعله كان يقصد بملكوت الله حالة روحية سامية يصل إليها الأبرار والأطهار كما قال : « ملكوت الله فى داخلكم »[٤] .

ولقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى فى نفسه إلا أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ويجرى على سنتهم، فلا يخطب إلا فى اليهود ، بدليل أنه التقى بالمرأة السامرية عند البئر ، فقال لها : « أنتم تسجدون لما لستم تعلمون ، أما نحن فنسجد لما نعلم »[٥] . ولما طلبت منه امرأة كنعانية أن يشفى ابنتها أبى فى أول الأمر وقال لها: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»[٦] .

لقد كان متمسكا بشريعة موسى ، حتى أنه لما شفى الأبرص قال له : « اذهب أر نفسك للكاهن ، وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم»[٧] .

وإنه كان يلزم اليهود بشريعة موسى بقوله : «على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لاتعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون »[٨] .

---

(١) مرقس ١٠ : ٣٧ . (٢) متى ١٩ : ٢٨ . (٣) يو ١٨ : ٣٦ . (٤) لوقا ١٧ : ٢١ .
(٥) يو ٤ : ٢٢ . (٦) متى ١٥ : ٢٤ . (٧) متى ٨ : ٤ (٨) متى ٢٣ : ٢ — ٣ .

ولما عرض عليه أن يغير الشريعة أبى ، وتمسك بالشريعة الموسوية قائلا : « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل »[١] .

هل كانت تعاليم المسيح جديدة ؟

الواقع أنه لا جديد فيما جاء به المسيح من تعاليم ، فإن بشرته بمجىء ملكوت الله قد وقع نظيرها قبل مجيئه بقرن من الزمان ، وأن الناموس قد حرص على بث الألفة بين الأفراد بمحبة الفرد للآخر فى مثل قوله : « لا تبغض أخاك فى قلبك .. لاتنتقم ، ولا تحقد على أبناء شعبك ، بل تحب قريبك كنفسك »[٢] ، « وإذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم ، وتحبه كنفسك ، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر »[٣] .

لقد نادى المسيح بشريعة موسى ، وحث الناس على أن يستعدوا للدخول فى ملكوت الله ، بأن يحيوا حياة العدالة والرحمة والحق مستندا إلى ما جاء بسفر هوشع : « وأخطبك لنفسى إلى الأبد . وأخطبك لنفسى بالعدل والحق والإحسان والمراحم ، أخطبك لنفسى بالأمانة فتعرفين الرب »[٤] .

كما أنه فى نهجه على شريعة موسى وتفسيره لها كان يتعمق إلى جذور الأحكام ، ففى مسائل العلاقات الشخصية قال : « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى »[٥] .

---

(١) متى ٥ : ٢٧ .
(٢) لاويين ١٩ : ١٧ ، ١٨ .
(٣) لاويين ١٩ : ٣٣ ، ٣٤ .
(٤) هوشع ٢ : ١٩ ، ٢٠ .
(٥) متى ٥ : ٣١ ، ٣٢ .

ووضح حقيقة السبت بأن ذكر الفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان . فقال لهم : « السبت[1] ، إنما جعل لأجل الإنسان ، لا الإنسان لأجل السبت »[2] .

وعدل أركان الدين – كما حدد أهدافه يعقوب فى رسالته : « الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هى هذه : افتقاد اليتامى والأرامل فى ضيقتهم ، وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم »[3] – من المراسم والطقوس الى الصلاح والاستقامة .

وندد بالجهر بالصلوات حذر الرياء والنفاق ، فقال : « فمتى صليت فادخل مخدعك ، وأغلق بابك ، وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء »[4] ، وندد بالتظاهر بالصدقات حشية سلب كرامة الإنسانية ، وعزتها فقال : « احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات »[5] .

موقف الأحبار والكهنة من المسيح :

لقد قاوم الأحبار والكهنة المسيح على اختلاف فرقهم ، عدا فرقة الأسنيين ، فقد هالهم أن يختلط بموظفى الإمبراطورية الرومانية المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة السيئة : « وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ، ليسمعوه ، فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين : هذا يقبل خطاة ويأكل معهم »[6] .

---

(١) السبت : كلمة عبرية معناها الراحة .
(٢) مر ٢ : ٢٧ .
(٣) يعقوب ١ : ٢٧ .
(٤) متى ٦ : ٦ .
(٥) متى ٦ : ١ .
(٦) لو ١٥ : ١ ، ٢ .

ولهذا كان كهنة الهيكل وأعضاء السنهدرين يرقبون نشاطه بعين الريبة ، ويرون فى هذا النشاط ما كان يراه هيرودس الملك فى نشاط يوحنا المعمدان ، وظنوا أنه ستار يخفى تحته ثورة سياسية ضد الإمبراطورية الرومانية ، وكانوا فى حرصهم على مراكزهم الاجتماعية والدينية يخشون أن يتهمهم الحاكم الرومانى بأنهم يتخلون عما هو مفروض عليهم من تبعات ، ليحافظوا على النظام الاجتماعى والسياسى ، « وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار لكى يمسكوه بكلمة حتى يسلموه إلى حكم الوالى وسلطانه »[1] .

ومما زاد فى ارتيابهم فيه قوله : « أما تنظرون جميع هذه . الحق أقول لكم : إنه لا يترك حجر على حجر لاينقض »[2] . على أن المسيح كان يقصد بقوله هذا انبثاق الإنسان إلى نور الإيمان الكامل وصدق الاستمساك بروح الشريعة عن يقين ، لابطقوسها .

موقف علماء القرن العشرين من المسيح[3] :

كتب هرمان ريمارس **Herman Reimarus** أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة كامبردج مخطوطات عن حياة المسيح تشتمل على ١٤٠٠صفحة حرص على ألا ينشرها فى حياته ، وتوفى فى سنة ١٧٦٨ م .

وبعد ست سنين من وفاته نشر جتهولد لسنج **Gotthold Lessing** أجزاء من هذا المخطوط مع معارضة أصدقائه فى هذا النشر ، وسماه «هتامات ولفنبتل»[4] **Wolfenbuttal Fragments**

ويقول ريمارس **Reimarus** : إن يسوع المسيح لا يمكن أن يكون

---

(١) لوقا ٢٠ : ٢٠ . (٢) متى٢٤ : ٢ .

(٣) من كتاب **The Story of Civilization, Vol. III.** لمؤلفه **Will Durant pp.553-557**

(٤) هتامات : جمع هتامة ، وهي الكسرة أو القطعة من الحطام .

مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية في جماعة المتصوفة اليهود الأسنيين القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر في إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر في تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، ويوم الحشر الذى يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمت من خير أو شر .

وفى عام ١٧٩٦ أشار هردر Herder إلى ما بين مسيح متى ومرقس ولوقا والمسيح فى إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها .

وفى الفترة ١٨٣٥ — ١٨٣٦ قال دافيد ستروس David Strauss إن ما فى الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقية ينبغى أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أيا كانت صورها .

وقد أثارت مجلدات ستروس Strauss الضخمة عاصفة قوية من التفكير الألمانى ، دامت جيلا من الزمان .

من هذا يتبين أن المفكرين أخذوا يتساءلون : هل وجد المسيح حقا ؟ أو أن قصة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا وأوزريس وأتيس ، وأدنيس ، ودونيسيس ومتراس ؟

وفى عام ١٨٦٣ أخرج إرنست رينان Ernest Renan كتابه « حياة يسوع » جمع فيه نتائج النقد الألمانى ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف .

وبلغت المدرسة الفرنسية صاحبة البحوث الدينية ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوارى Loisy ، لذى حلل نصوص العهد الجديد تحليلا بلغ من الصرامة حدا اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرمانه هو وغيره من العلماء المحدثين .

وفى إنجلترا أدلى و . ب . سميث W.B. Smith و ج . م . روبرتسن J.M. Robertson بحجج من هذا النوع أنكر فيها وجود المسيح .

ويقول ثالس Thallus وهو كاتب وثنى عاش فى القرن الأول : إن الظلمة العجيبة التى يقال إنها حدثت وقت موت المسيح كانت ظاهرة طبيعية ولم تكن أكثر من مصادفة عادية[1]

هذا ما كان من أمر المسيح نفسه، أما الأناجيل فليس أمرها بنفس النمط الذى سار عليه الباحثون الناقدون ، ذلك لأن الأربعة الأناجيل التى وصلت إلينا هى البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيرا كانت فى وقت ما منتشرة بين المسيحيين فى القرنين الأول والثانى . واللفظ الدال على الإنجيل Gospel — ترجمة اللفظ اليونانى euangelion ، ومعناه الأخبار السارة ، وهى أن المسيح قد جاء ليبشر بأن ملكوت الله قريب المنال

---

(١) الأهرام فى ١٧ محرم ١٣٨٤ هـ ٢٩ مايو ١٩٦٤ م فى الصفحة الاولى منه بعنوان التفاصيل الكاملة لليوم الحزين الذى عاشته الهند أمس يوم وفاة زعيمها : « الطبيعة شاركت الهند أحزانها فاختفت الشمس وراء السحب وأظلم الجو برغم حرارته الشديدة وسقطت الامطار كأنها تعبر عن دموع تذرفها عليه فى حين اجتاحت العاصمة هزة أرضية خفيفة قبل تشييع الجنازة بساعة واحدة » . قارن هذا بما جاء بإنجيل متى ٢٧ : ٤٥ ، ٥١ وإنجيل لوقا ٢٣ : ٤٤ ، ٤٥ وما جاء فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ابنه إبراهيم عليه السلام .

لقد اختلف اليهود فى إدراك ميراث الأرض .

واختلف النصارى فى إدراك شخصية المسيح عيسى بن مريم .

وفى هذا الاختلاف تضاربت أقوالهم ، وأصبحوا أمام الأمر الواقع مضطرين أن يدافعوا عن هذا التضارب ، وأصبحت الأوهام فى الدفاع عن ذلك تكبر شيئا فشيئا حتى أصبحت عملاقا يسيطر على تفكيرهم ، ويطغى عليهم ، وصارت هذه الأوهام حقائق فى نظرهم . ومن هنا كان سر متاعبهم ، وسر إتعابهم لمن حولهم .

الباب الثالث

المسيحية وتطورها

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكتابَ بالحقِّ
وإن الَّذين اختلفوا في الكتابِ لفي شِقاقٍ
بعيد »(١) .

يقول العزيز الحكيم : « قُلْ يا أهلَ الكِتابِ لستم على شيء حَتَّى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزل إليكم من ربكم »(٢) ، ويقول أيضا : « ومَنْ يرغبُ عن ملةِ إبراهيمَ إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَه ، ولَقَد اصطَفيناهُ في الدُّنيا وإنهُ في الآخرَةِ لَمِنَ الصالِحِينَ . إذْ قالَ لهُ رَبه أسلِم قال أسلمت لربِّ العالمِينَ . ووصّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبَ : يا بَنِيَّ ، إن اللهَ اصطَفى لكمُ الدينَ فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مُسْلِمُونَ »(٣) .

وقال المسيح عليه السلام : « متى جاء ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضا على اثنى عشر كرسيا تدينـــون أسباط إسرائيل الاثنى عشر »(٤) .

لم يفهم الكهنة ولا الحواريون كلام المسيح عليه السلام في جوهره الذي يعنيه ، بل حرفوا الكلم عن مواضعه لدرجة أن تطلب أم ابني زبدى منه عليه السلام بقولها : « قل أن يجلس ابناى هذان واحد عن يمينك والآخر عن

---

(١) البقرة : ١٧٦ .
(٢) المائدة : ٦٨ .
(٣) البقرة : ١٣٠ — ١٣٢ .
(٤) إنجيل متى ١٩ : ٢٨ .

يسارك فى ملكوتك »[1] فيجيبها بقوله : « مملكتى ليست من هذا العالم » .

ومنى الحواريون واليهود قاطبة بخيبة أمل حينما قال لهم سيدنا عيسى عليه السلام : « مملكتى ليست من هذا العالم » ، حتى أن كبير كهنتهم جمع رؤساء الكهنة والفريسيين فى مجمع وقال لهم : « ماذا نصنع ؟ فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة . إن تركناه هكذا يؤمن به الجميع ، فيأتى الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا . . أنتم لستم تعرفون شيئا ، ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها »[2] .

فلا بدع ولا ملام — والحالة هذه بالنسبة إلى عقلياتهم المتحجرة — أن يكفروا برسالة سيدنا عيسى عليه السلام ، وقد جاء يبشرهم بمملكة أخرى أخروية لا دنيوية ، مملكة روحانية وليست مادية .

حقيقة المسيح من ملكوت الله

أسلوب المسيح فى بشارته بملكوت الله :

كان المسيح يعلم الناس بالبساطة التى تتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج هذه التعاليم بالقصص الطريفة التى تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان ، وترسخ فى القلوب ، وبالحكم والأمثال بدل الحجج العقلية .

ومن أقواله : إن ملكوت الله قد حان أجله ، وإن الله سيقضى عما قريب على عهد الشر والخبائث .

وكانت هذه الأفكار مألوفة لسامعيه ، ولهذا لم يحددها تحديدا واضحا ، ومن ثم نشأت فى وقتنا هذا صعاب جمة ، سببها ما فى هذه الأفكار من غموض .

---

(١) إنجيل متى ٢٠ : ٢١ .

(٢) إنجيل متى ١١ : ٤٧ — ٤٩ .

ترى ماذا كان يعنى بملكوت السموات ؟ أهى سموات خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة ؟ أم هى حالة معنوية للانسانى بالنفس الإنسانية عن مستواها الحيوانى ؟ أم هى شىء آخر ؟

ويقول Will Durant ول ديورانت فى كتابه (قصة الحضـــارة The Story of Civilization) : يخيل إلىّ أنها لم تكن كذلك[١] لأن التلاميذ والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية ، لهذا أخذوا يرددون هذه العبارة : « ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك »[٢] .

ولقد رأى المسيح فى ملكوت الله مجازا للكمال الخلقى ، وأن هذا الكمال الخلقى إنما هو إعداد لهذا الملكوت ، وثمن يؤدى للحصول عليه ، « وكل من ترك بيوتا ، أو إخوة أو أخوات ، أو أبا أو أما ، أو امرأة أو أولادا ، أو حقولا من أجل اسمى — يأخذ مائة ضعف ، ويرث الحياة الأبدية »[٣] .

وقد حدد موعد هذا الملكوت تحديدا متضاربا فإنه يقول لأتباعه : « فإنى الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان »[٤] .

ثم يعود فيؤخره قليلا بقوله : « الحق أقول لكم إن من القيام ها هنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته »[٥] .

ثم يعود فيؤخره أكثر بقوله : « الحق أقول لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله »[٦] .

---

(١) لم تكن كذلك: يقصد أنها لم تكن سموات خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة .
(٢) متى ٦ : ١٠ . (٣) متى ١٩ : ٢٩ . (٤) متى ١٠ : ٢٣ .
(٥) متى ١٦ : ٢٨ . (٦) مر ١٣ : ٣٠ .

ثم رأى بعد أن مرت به الأيام أنه من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله: « أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء »[١] .

ثم حدد علامات لهذا اليوم كقوله : « وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . انظروا ، لا ترتاعوا ، لأنه لابد أن تكون هذه كلها ، ولكن ليس المنتهى بعد . بل تقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن ، ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع »[٢] .

تفسيرات المسيحيين الأولين لملكوت الله :

لقد فهم المسيحيون الأولون أن ملكوت الله هو Cummunist Utopia الاشتراكية المثالية ، وحسبوا أن المسيح ثائر اجتماعى ، وأخذوا من الأسانيد التى وردت فى الأناجيل ما يؤيد رأيهم من قوله : « ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله »[٣] ، ومن قوله : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه »[٤] ، ومن قوله : « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء »[٥] ، ومن قوله : « لا يقدر خادم أن يخدم سيدين ، لأنه إما يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال »[٦] .

ولعل هذا ما جعل التلاميذ يكونون جماعة اشتراكية تعاونية : « وجميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شىء مشتركا ، والأملاك والمقتنيات

---

(١) مر ١٣ : ٣٢ . (٢) متى ٢٤ : ٦ — ١٢ .
(٣) مر ١٠ : ٢٣ ، متى ١٩ : ٢٣ . (٤) متى ١٦ : ٢٦ .
(٥) متى ١٩ : ٢١ . (٦) لو ١٦ : ١٣ .

كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع ، كما يكون لكل واحد احتياج »[1] .

تفسيرات الأحبار والكهنة لملكوت الله :

« جمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعا ، وقالوا : ماذا نصنع ؟ فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة . إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به ، فيأتى الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا . فقال لهم واحد منهم — وهو قيافا كان رئيسا للكهنة فى تلك السنة : أنتم لستم تعرفون شيئا ، ولا تفكروا أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها »[2] ، أما المسيح نفسه « فكان يعلم كل يوم فى الهيكل ، وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه . ولم يجدوا ما يفعلون ، لأن الشعب كله كان متعلقا به يسمع منه »[3] .

ولهذا تآمر عليه الأحبار والكهنة ، ووجهوا إليه تهمة أنه يهيج الشعب « وهو يعلم فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل إلى هنا »[4] .

لقد كفروا به ، وتآمروا على موته حتى أن بيلاطس الوالى الرومانى تقدم إليهم بقوله : « هو ذا ملككم . . فأجاب رؤساء الكهنة : ليس لنا ملك إلا قيصر »[5] .

والحقيقة التى لا ريب فيها — أن المسيح لم يقصد انقلابا ثوريا بتحقيق ما يجيش بخاطر اليهود من القومية اليهودية ، ومع هذا جاءه الرؤساء والشعب يجربونه ليأخذوه بكلمة من فيه قائلين له : « قل لنا : ماذا تظن ؟ أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم ، وقال لهم : لماذا تجربوننى

---

(١) أع ٢ : ٤٤ ، ٤٥ . (٢) يوحنا ١١ : ٤٧ — ٥٠ .
(٣) لوقا ١٩ : ٤٧ ، ٤٨ . (٤) لو ٢٣ : ٥ . (٥) يوحنا ١٩ : ١٤ — ١٦ .

يامراءون ؟ أرونى معاملة الجزية . فقدموا له دينارا ، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر .فقال لهم : أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله »[١].

وكان المسيح صديقا للجميع ، فاتخذ من اليهود ،وغلق الإمبراطورية الرومانية أصدقاء له مع كراهية بنى قومهم لهم إذ « نظر عشاراً اسمه لاوى جالسا عند مكان الجباية فقال له : اتبعنى . فترك كل شىء ، وقام وتبعه ، وصنع له لاوى ضيافة كبيرة فى بيته والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعا كثيرا من عشارين وآخرين »[٢] .

كما يبدو أن المسيح لم يكن يفكر فى القضاء على الأغنياء أو الفقراء ، لأن الفقراء معه ، فهو كالأقدمين جميعا يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه ، كقوله : « طوبى لذلك العبد الذى إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا »[٣] .

ومع هذا كله اجتمع السنهدرين فى اليوم التالى ، وأثبت عليه جريمة التجديف ، وكان عقابها الإعدام ، ورغبة منهم فى إظهار الولاء للرومان قرر السنهدرين أن يساق المسيح[٤] أمام الحاكم الرومانى الذى جاء إلى أورشليم ليرقب الجماهير المختلفة أثناء عيد الفصح .

وأمام ثورة اليهود العارمة تقدمت كلوديا زوجة الوالى الرومانى بيلاطس تحذر زوجها بقولها : « إياك وذلك البار ، لأنى تألمت اليوم كثيرا فى حلم من أجله »[٥] .

وكان بيلاطس البنطى حاكما قاضيا ، فلم يهتم بشأن المسيح إذ سأله سؤالا

---

(١) متى ٢٢ : ١٧ — ٢١ .
(٢) لو ٥ : ٢٧ - ٢٩ .
(٣) .ق ٤٤ ٤ ٦ ٤ .
(٤) شبيه المسيح .
(٥) متى ٢٧ : ١٩ .

يكاد يكون من قبيل المداعبة : « أأنت ملك اليهود ؟ فقال له يسوع : أنت تقول »[1] .

ولم يسع بيلاطس وقد تيقن من براءة المسيح عليه السلام إلا أن يقول قوله المشهور : « إنى برىء من دم هذا البار »[2] .

وما كان لبيلاطس أن يرفض رغبة لزوجته كلوديا ، السيدة البارة . والمرأة فى أى ميدان تقوم بدور خطير فى حياة الشعوب ، فإلى جانب هذه السيدة البارة سيدة شريرة وهى « هيروديا » التى استهوت هيرودس الملك بجلاعتها فى رقصها أمامه ، وأخضع الملك لهيروديا ذاته وانتهزت تلك نشوة الملك ، فطلبت رأس يحيى بن زكريا عليه السلام فى طبق ، وكان لها ما أرادت ، وقتل النبى . وفيهن يقول العزيز الحكيم :

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلذينَ كَفَرُوا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانتا تَحتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحِينِ فخانَتاهُما فلم يُغنِيا عنهُما مِنَ اللهِ شيئاً وقِيلَ ادخلاَ النارَ مع الداخلينَ . وضَرَبَ اللهُ مثلاً للذينَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعونَ إذْ قالتَ رَبِّ ابنِ لِى عندَكَ بيتاً فى الجنةِ ونجنى مِنْ فِرْعَوْن وعملِه ونَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظالمينَ . ومريَمَ بنةَ عِمرانَ التى أحصنتْ فَرْجَها فنفخْنا فيه مِنْ رُوحنَا وصدّقتْ بِكلمَات رَبِّهَا وكُتُبِهِ وكانتْ مِنَ القانتينَ »[3] .

ويقرر Will Durant فى كتابه The Story of Civilization أنه لا يسع الإنسان أن يشك فى هذه التفاصيل التى تناقلها الناس مشافهة فى أغلب الأحيان ، ثم دونوها بعد وقوعها بزمن طويل ، فإذا أخذنا بهذا النص وجب علينا أن نجزم أن يسوع المسيح كان قد قرر أن يموت ، وأن نظرية

---

(١) متى ٢٧ : ١١ . (٢) متى ٢٧ : ٢٤ . (٣) التحريم : ١٠ — ١٢ .

بولس الرسول عن التكفير « لأنه ما كان الناموس عاجزا عنه فى ما كان ضعيفا بالجسد فالله إذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية فى الجسد لكى يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح »[1] .

وينقل يوحنا فى محاكمة المسيح[2] عليه السلام أن يسوع خاطب بيلاطس البنطى بقوله : « أنت تقول إنى ملك ، لهذا قد ولدت أنا ، ولهذا قد أتيت إلى العالم ، لأشهد للحق ، كل من هو من الحق يسمع صوتى »[3] ، فسأله بيلاطس تعقيبا على جوابه : « ما هو الحق ؟ »[4] . ولعل الباعث على هذا السؤال نزعة الإنجيل الرابع الميتافيزيقية ، ومهما يكن من شىء فلم يكن أمام القانون بعد اعتراف المسيح إلا أن يدينه بتهمة « ثائر ضد نظام الحكم » ، وبناء عليه أصدر بيلاطس حكمه بالإعدام وهو كاره له ، وكان الصليب من طرق الإعدام الرومانية . ووضع الجنود تاجا من الشوك على رأس المسيح[5] استهزاء به ، كما نقشوا على صليبه باللغات الآرامية واليونانية « عيسى الناصرى ملك اليهود Nazarathaens Rex Ioudaeorum »

لقد خاب الحواريون فى زعمهم فى المسيح حتى انبرى لهم بولس المدعو رسولا ، ورأى أن يجمع شتات الفكر فى عقيدة يركز بها ويبشر ؛ فكان أن اعتبر شخصية عيسى عليه السلام ملكا مخلصا ، ولعله استقى هذا الاعتبار من الديانة السائدة فى تلكم الأيام ، وهذه الفكرة قديمة قدم التاريخ .

نظرية بولس فى التكفير

لقد أنشأ بولس لاهوتا لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض فى أقوال

---

(١) رومية ٨ : ٣ — ٤ .

(٢) شبيه المسيح وليس المسيح نفسه .

(٣) يوحنا ١٨ : ٣٧ .

(٤) يوحنا ١٨ : ٣٨ .

(٥) شبيه المسيح وليس المسيح نفسه .

المسيح . وكانت العوامل التى أوحت إليه بالأسس التى قام عليها ذلك اللاهوت هى انقباض نفسه ، وندمه على اضطهاده للمسيحيين الأولين ، والصورة التى استحال إليها المسيح[1] فى خياله عند المحاكمة وعند الصلب .

ولعله قد تأثر بالفلسفة الأفلاطونية والرواقية فى نبذها المادة والجسم واعتبارها شرا وخبثا .

ولعله تذكر السنة اليهودية مستقاة من شريعة موسى فى التضحية الفدائية وما ينهجه فى هذا المقام أصحاب الديانات الوثنية للتكفير عن خطايا البشر .

أما هذه الأسس فأهمها « أن كل ابن أنثى يرث خطية آدم ، وأن لاشىء ينجيه من العذاب الأبدى إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته » . « لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات الذى ليس له اضطرار كل يوم مثل رؤساء الكهنة أن يقدم ذبائح أولا عن خطايا نفسه ثم عن خطايا الشعب ، لأنه فعل هذا مرة واحدة إذ قدم نفسه . فإن الناموس يقيم أناساً بهم ضعف رؤساء كهنة . وأما كلمة القسم التى بعد الناموس فتقيم ابنا مكملا إلى الأبد »[2] .

لقد كان اليهود والأقدمون يشتركون مع الكنعانيين والمؤابيين والفينيقيين والقرطاجنيين وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل ، بل بطفل محبوب لاسترضاء السماء الغضبى .

ثم أصبح فى الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل مجرم محكوم عليه بالإعدام .

وكان البابليون يلبسون هذه التضحية أثوابا ملكية ، لكى يمثل ابن الملك ، ثم يجلد ويعدم شنقا .

---

(١) شبيه المسيح وليس المسيح نفسه .   (٢) العبرانيون ٧ : ٢٦ — ٢٨ .

ومثل هذه الأعمال كانت تحدث فى رودس Rhodes فى عيد كرونس Cronus ، وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى فى عيد الفصح ليست إلا تخفيفا لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنية ، وفى ذلك يقول فرازر Frazer : « وفى يوم الكفارة كان كاهن اليهود الأعظم يضع كلتا يديه على جدى حى ، ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكبه بنو إسرائيل من مظالم ، حتى إذا ماحمل الحيوان خطايا الشعب على هذا النحو أطلقه فى البرية »[1] .

وهذه الفكرة كانت أكثر قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود . ولقد كانت مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة من زمن بعيد . تؤمن بأوزوريس وأتيس وديونشيس Osiris, Attis, Dionysus وديونشيس هذه ماتت لتفتدى بموتها بنى البشر ، وكانت ألقاب سوتر المنقذ Soter Savior واليوتريس المنجى Eleatherios Deliverer تطلق على هذه الآلهة ، وكان لفظ كريوس الرب Kyrios Lord الذى أطلقه بولس على المسيح هو اللفظ الذى تطلقه الطقوس اليونانية السورية على ديونشيس Dionysus[2] .

ولم يكن فى وسع غير اليهود من أهل أنطاكية وسواها من المدن اليونانية الذين لم يعرفوا عيسى بجسمه — أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بآلهتهم المنقذين ، ولهذا ناداهم بولس بقوله : « هو ذا سر أقوله لكم »[3] ، ثم يستطرد فيقول : « الذين أراهم أيضا نفسه حيا ببراهين كثيرة بعد ما تألم وهو يظهر لهم أربعين يوما ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله »[4] .

لقد كانت فكرة « انتقال القديس » بجسمه حيا إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، فقد رووها عن موسى وأخنوخ وإيليا . وهكذا

(١) Frazer Sir J. : The Scape Goat 210, 413.
(٢) Guignebert, Christianity p, 88.
(٣) ١ كو ١٥ : ٥١ . (٤) أع ١ : ٣ .

اختفى بنفس الطريقة الخفية التي ظهر بها « وأخرجهم خارجا إلى بيت عنيا . ورفع يديه وباركهم ، وفيما يباركهم انفرد عنهم وأصعد[1] إلى السماء »[2] .

التعليق :

فى سفر التثنية تأكيد أن الأبناء لا يقتلون عن الآباء : « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيته يقتل »[3] .

وجاء أيضا فى سفر التثنية أن المعلق على خشبة ملعون من الله ، « وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة ، بل تدفنه فى ذلك اليوم ، لأن المعلق ملعون من الله ، فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب إلهك » .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »[4] .

ولقد كشف القناع عن هذه الحقائق السير آرثر فندلاى فى كتابه (صخرة الحق)[5] فى صحيفة ٤٥ ، فذكر ستة عشر إلها ملكا مخلصا عرفوا قبل مجىء المسيح . وهؤلاء أيضا فى تواضعهم وحبهم لبنى قومهم ماتوا لأجل خطايا العالم ، وسمى كل واحد من هؤلاء إلها مخلصا ، وأعطى لقب المسيح ، وهذه هى أسماؤهم :

---

(١) He was parted from them الفعل مبنى للمجهول .

(٢) لو ٢٤ : ٥٠ ، ٥١ . (٣) تثنية ٢٤ : ١٣ .

(٤) سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨ . (٥) ترجمة الدكتور ع . غ . واصى .

١ — أوزوريس	مصر	١٧٠٠ ق . م .
٢ — بعل	بابل	١٢٠٠ ق . م
٣ — أتيس	فرجيا	١١٧٠ ق . م .
٤ — ثاموس	سوريا	١١٦٠ ق . م .
٥ — ديونسيوس	اليونان	١١٠٠ ق . م .
٦ — كرشنا	الهند	١٠٠٠ ق . م .
٧ — هيوس	أوربا	٨٣٤ ق . م .
٨ — أندرا	التبت	٧٢٥ ق . م .
٩ — بالى	آسيا	٧٢٥ ق . م .
١٠ — أياو	نيبال	٦٢٢ ق . م .
١١ — الستيس	فيريا	٦٠٠ ق . م .
١٢ — كويكس لكوت	المكسيك	٥٨٧ ق . م .
١٣ — وتيبا	ترفانسكور	٥٥٢ ق . م .
١٤ — برومثيوس	اليونان	٥٤٧ ق . م .
١٥ — كورينوس	روما	٥٠٦ ق . م .
١٦ — مذرا	الفرس	٤٠٠ ق . م .

ويقول السير آرثر فندلاى فى كتابه (الكون المنشور)[١] : « إن أول إله مخلص قرأنا عنه هو أوزوريس الذى ظهر فى مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وكان أميرا مصلحا ، فظن أنه إله ، لأن الآلهة — كما يعتقدون — تلبس لباس ذوى الشرف الرفيع . ولما ظهر شبحه بعد الممات ظنوا أن الآلهة سمحت له بالحياة ، وأنها لم تعد غاضبة على الشعب الذى كان يرزح فى خطاياه وآثامه ، وأنها رفعت عنه غضبها ولعنتها التى كتبت عليه بسبب آثامه وخطاياه» .

(١) ترجمة الدكتور ع . ع . واضى .

وبهذا كان ظهور الفداء بعد الموت معناه أنه قهر الموت ، وفتح أبواب السماء للمؤمنين ، وبذا عمل أوزوريس على « أن يتواضع ويصير مطيعا حتى الموت » .

ولا عجب أن بولس مؤسس المسيحية يتحدث عن المسيح عليه السلام بقوله : « إنه تواضع حتى الموت ، موت الصليب » . ومن هذه الزاوية بدأ بولس يكرز برسالته بقوله : « لأني لم أعزم أن أعرف شيئا بينكم إلا المسيح وإياه مصلوبا »[١] ، وفي هذا تطابق بين أوزوريس الذى أصبح مخلصا وفاديا ووسيطا للفراعنة ، ومنهم يتقبل كل الحب والتقدير في عبادتهم وسجودهم له ، وبين المسيح كزعمهم المخلص والفادي والوسيط .

والحقيقة التي لا ريب فيها هي :

ظهر المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس سنة ٤ ق م ، عقب فراغ طويل المدى من الجدب الديني لبني إسرائيل ، وذلك تأديبا لهم إذ تركهم الله سبحانه وتعالى بلا راع يرعاهم ويهديهم سواء السبيل ، فقد قال الله عنهم في محكم آياته : « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تُخرِجُون أنفسكم من دياركم ثم أقررتُمْ وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تَقْتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تَظَاهَرُون عليهم بالإثم والعُدْوَانِ . وإن يأتوكم أسارَى تفادوهم وهو مُحَرَّمٌ عليكم إخراجهم ... »[٢]، ويقول أيضا : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تَهوَى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتُم وفريقا تقتلون »[٣] ، وقال عنهم إيليا نبي العهد القديم : « قتلوا أنبياءك ، وهدموا مذابحك ... » ، وقال عنهم المسيح : « يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء والمرسلين » .

---

(١) ١ كو ٢ : ٢ . (٢) البقرة : ٨٤ — ٨٥ . (٣) البقرة : ٨٧ .

وقد حقت عليهم غضبة الله حيث قال تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية »[1] ، فأصبحوا فترة من الزمن بلا نبي ولا رسول ، هذه الفترة تطلق عليها الكنيسة « فترة الصمت المطلق ».

وبالإضافة إلى هذا الجدب الديني بالنسبة لإسرائيل كان العالم الروماني يشعر بنوع من الفراغ أو الجدب الديني كذلك . فالرومان أنفسهم بدأوا — ولا سيما المتعلمون — يناقشون الوثنية ، ويناقشون تقديس الأباطرة والأديان المحلية سواء أكانت يونانية أم لاتينية .

وقد اتجهوا إلى الآراء التي نادى بها الرواقيون . وحتى هذه الفلسفات أخذت تتضاءل أمام بحثهم عن حقيقة الوجود وحقيقة الله . وفي هذا الفراغ الديني الهائل لم يجد الرومانيون — وهم سادة العالم — وسيلة سوى الاتجاه شطر العقائد الدينية المختلفة المستوردة من الشرق ، مثل ديانة سيبيل من آسيا الصغرى وديانة متراس من فارس ، وديانه إيزيس من مصر ، وأخيراً المسيحية التي نبتت في فلسطين .

يقول السير آرثر فندلاي في كتابه (الكون المنشور)[2] صحيفة ١١٩ :
« ترتبط خمسة أسماء بالتغييرات الفكرية الهامة في العالم وهي :

١ ـ كرشنا ٢ ـ بوذا ٣ ـ كونفشيوس ٤ ـ سقراط ٥ ـ عيسى

« ومع ذلك لم يترك واحد من هؤلاء أية كتابة شخصية ، وإنما تركوا أفكارهم لكي تسجلها الأجيال التالية .. ويجب أن يعلم كل إنسان أنه لاتوجد وثيقة أصلية واحدة متعلقة بحياة عيسى » .

ثم يستطرد فيقول : « إن الأناجيل لا تعتبر سجلات تاريخية ، فأولها

---

(١) المائدة : ١٢ . (٢) ترجمة الدكتور ع . ع راضي .

« مرقس » كتب حوالى سنة ٧٠م . و « لوقا » كتب بين سنة ٨٠ وسنة ٩٥ ، و « متى » كتب حوالى سنة ١٠٠ ، و « يوحنا » حوالى سنة ١١٠ . وليس للأخير قيمة تستحق الذكر في سرد الحوادث الأكيدة ، ويظهر أن كل محتوياته لعب فيها خيال الكاتب دوراً بعيداً . ثم جاءت بعد ذلك ترجمة الأناجيل من اللغة الآرامية الشرقية إلى اللغة اليونانية ، فاللغة اللاتينية الغربية . وهنا حدثت أخطاء كثيرة ، إذ أن الكلمة الآرامية الواحدة قد يكون لها ٦ أو ٧ معان مختلفة »[1] .

ويقول أيضاً سير آرثر فندلاى فى كتابه (صخرة الحق)[2] ص ٥٩ : « إن الأناجيل الحالية لم تستقر إلا فى القرن الرابع الميلادى عقب مجمع قرطاجنة عندما تقرر أى الكتابات يحتفظ بها ، وأيها يرفض ويستبعد . وقبل ذلك التاريخ سنة ٣٩٧ م لم يكن هناك شىء اسمه العهد الجديد الذى نعرفه اليوم . ويعلل أحد رجال الكنيسة القديس آيرونيوس اختيار أربعة أناجيل فى القرن الثانى بأن الأرض لها أربعة أركان » .

ويسترسل السير آرثر فندلاى فى كتابه (صخرة الحق) صحيفة ٧٦ فيقول : « اكتشفت لوحة أثرية فى بابل تثبت أن إلههم بعل كان يتصف بنفس الصفات التى ألحقت بعيسى ، وأن هذه اللوحة كتبت قبل العصر المسيحى بمئات السنين حوالى ١٢٠٠ سنة » . ثم وازن على ضوئها بين المبادىء البابلية والمبادىء المسيحية :

---

(١) المرجع السابق . (٢) ترجمه الدكتور ع . ع . راضى .

المبادىء البابلية مقتبسة من اللوحة الأثرية	المبادىء المسيحية من البابين ٢٧و٢٨من انجيل متى
١ — أخذ بعل أسيراً	١ — أخذ عيسى أسيراً
٢ — حوكم بعل فى قاعة المحكمة	٢ — حوكم عيسى فى قاعة بيلاطس
٣ — ضرب بعل	٣ — جلد عيسى
٤ — أخذ بعل إلى الجبل	٤ — أخذ المسيح إلى الجمجمة
٥ — أطلق سراح مجرم وأخذ معه مجرمان	٥ — أطلق سراح مجرم (باراباس) وأخذ معه مجرمان
٦ — بعد أخذ بعل تهدمت المدينة	٦ — بعد موت عيسى تحطم الهيكل وخرج الموتى ودخلوا المدينة
٧ — أخذت ملابس بعل	٧ — اقتسم الجنود ملابسه واقترعوا على لباسه
٨ — ذهب بعل إلى الجبل ، واختفى من الحياة	٨ — خرج عيسى من القبر وذهب إلى عالم الأموات
٩ — ذهبت امرأة تبكى عند القبر	٩ — ذهبت مريم الجدلية تبكى عند قبر عيسى
١٠ — عاد بعل إلى الحياة ثانية	١٠ — ارتفع عيسى من القبر حياً

وبنى المسيحيون على فكرة بنوة عيسى فكرة أنه المخلص الوحيد للبشرية من ذنوبها ، وفى هذا بالطبع كثير من الأخطاء والمعارضة للقوانين الكونية ، إذ أن المسئولية الشخصية اعتمدتها كل القوانين، بل إن العلم ينادى بذلك أيضاً

فعلم الميكانيكا يقول : « لـكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ، ومضاد له فى الاتجاه » .

وعلم الطبيعة يقول : « كل جسم يشع كمية من الإشعاع بمقدار ما يمـكنه أن يستقبل » .

فلا يمـكن إذن أن يتحمل إنسان نتيجة عمل إنسان آخر . ولهذا جاء القرآن الـكريم موضحاً ما لم يفهمه الناس من الإنجيل فقال صريحاً :

« وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[1] .

ويقول السير آرثر فندلاى أيضا فى كتابه (الـكون المنشور)[2] فى صحيفة ١٥٧ مقارنا المسيحية بالوثنية الفرعونية وتماما مثلما كان يردد المصريون :

« لما كان أوزوريس يحيا حقا فسوف أحيا » .

« لما كان أوزوريس لن يموت فلن أموت » .

هذه العبارات نفسها يرددها المسيحيون الأولون والمتأخرون بقولهم : « لما كان المسيح يحيا حقا فسوف أحيا . ولما كان المسيح لن يموت فلن أموت » .

وللتأكد من هذا كله انظر إلى : (يوحنا ٦ : ٣٢ — ٥٩ ، ١ كورنثوس ١٥ : ١ — ٥٨) تجد صدق التشابه فى المقارنة التى أتى بها السير آرثر فندلاى والتى دونت فى العهد الجديد .

---

(١) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ (٢) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى .

ويسترسل السير آرثر فندلاى فيقول :

« نفس العبارات التى قيلت لأوزوريس نسبت إلى المسيح ، ولما أضيف اسم عيسى إلى قائمة الآلهة المخلصين أصبحت كل القصص التى قيلت عن الآلهة الوثنية تقال بالمثل تماما عن عيسى المسيح ومن تلك :

١ — قصة الولادة من العذراء .

٢ — قصة المحاكمة قبل الموت ، وطريقة الإعدام ، وطريقة القيامة ، وطريقة الصعود .

٣ — قصة القيامة بالجسد .

« تلك القصص التى كانت تتكرر فى المعابد القديمة صيغت فى ألفاظ ، وركزت حول المسيح عيسى بدلا من أوزوريس الفراعنة ، وبعل البابليين ، وبرومثيوس اليونانيين ، أو أى واحد من الآلهة الآخرين » .

ثم ينتهى بذكر رأيه فيقول فى كتابه (الكون المنشور)[1] ص١٨٤ :

« لا يعتبر عيسى إلها أو مخلصا ، وإنما هو رسول من الله ، خدم فى حياته القصيرة فى علاج المرضى ، وبشر بالحياة الأخرى ، وعلم بأن الحياة الدنيا ما هى إلا إعداد لحياة أخرى ، للملكوت الإلهى ، لحياة أفضل لكل من يعمل صالحا » .

ثم يؤكد براءة عيسى من شبهات المسيحية فى أكثر من موضع ، فيقول فى الكتاب نفسه بصحيفة ١١٧[2] :

---

(١) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى .
(٢) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى .

« إن بولس هو الذى وضع أساس الدين الذى يسمى الدين المسيحى . . الدين الذى ولد طفلا عملاقا متكاملا فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م بأمر الإمبراطور قسطنطين » .

ويقول العلامة روى ديكسون سميث فى كتابه (ضوء جديد على البعث)[١] صحيفة ٢٢٠ :

« لا يوجد متدين مهما كان مذهبه أو فرقته يعتقد أن الله العظيم قد أرسل ابنه الوحيد إلى هذه البشرية التى لا توازى — فى مجموعها منذ بدء الخلق إلى نهايته — كوكباً من الكواكب المتناهية فى الصغر لكى يعانى موتاً وحشياً فوق الصليب ، لترضية النقمة الإلهية على البشرية ، ولكى يساعد جلالته على أن يغفر للبشرية ، على شرط أن تعلن البشرية اعترافها بهذا العمل الهمجى الذى لا يستسيغه عقل ألا وهو الفداء .

« وإذا كان الله قد أذن بالصلب لأجل ترضيته فإنه يكون مشتركا فى الذنب مع السفاكين الذين يكونون قد قاموا بمهمة إلهية . لماذا لا نعتقد أن الله — والمستقبل أمامه كتاب مفتوح — قدسمح بتضحية رسوله لأنه تنبأ بالنتائج العظيمة من أن هذه الحادثة سوف تكون سبباً فى حد ذاته فى انتشار الإنجيل ؟ » .

لقد كان الصلب خدعة كبرى بات على الإنسان أن يحل طلاسمها . وهى عديمة التأثير على جلال الله بين غير المسيحيين ، عديمة التأثير على عدالة الله وضبط قوانينه ، تلك القوانين التى تنص على مسئولية الفرد وحده عن عمله وجزائه عليه : « ولاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى » .

---

(١) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى .

ويقف القرآن الكريم كالعملاق ، ليحسم هذه الفرية بقوله تعالى :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ . وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »[1] .

---

(١) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨ .

الباب الرابع

المسيحيون والتعاليم الكتابية

يا أهل الكتابِ لا تَغلُوا فى دِينكم
ولا تَقُولوا عَلى اللهِ إلاَّ الحقَّ ، إنمَا المسيح
عِيسى بنُ مَرْيمَ رسولُ اللهِ وكلمتُه ألقَاهَا
إلى مرْيمَ وروحٌ منه »[1] .

كلمة الله :

« إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إن الله يُبشِّرُكِ بكلمةٍ منهُ اسمُه المسيحُ عيسى بنُ مريَمَ »[2] .

« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله »[3] .

نور الله الوضاح — الذى ملأ العيون ، وأضاء السبيل منذ فجر تاريخ الإنسانية — احتجب النور عن بعض الناس على مر العصور ، لا لأن النور ذاته قد تلاشى وتوقف ، بل لأن هؤلاء الناس هم الذين وضعوا فى طريقه الحواجز حتى لا يصل إليهم ، وبذلك ضلوا وأضلوا معهم التابعين ، وهكذا قال المسيح للأحبار : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس ، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون »[4] .

---

(١) النساء : ١٧١ .
(٢) آل عمران : ٤٥ .
(٣) يوحنا ١ : ١ .
(٤) متى ٢٣ : ١٣ .

الدين الصافى الشفاف — الذى نزل كالسلسبيل شفاء للقلوب وضياء العقول — اختلط وتلون وذهب مع الريح ، وجرت الإنسانية فى الطريق المنحدر حيث ينتظرها فى آخره حتفها المشين ، الذى طالما حذرها منه القادة والرسل .

ويحذرهم المسيح بقوله : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراءون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين ، وتقولون : لو كنا فى أيام آبائنا ما شاركناهم فى دم الأنبياء ، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء فاملأوا أنتم المكيال مكيال آبائكم »[1] .

وفى وسط الظلمة وفى عمق الهاوية تنبثق فجأة شعاعة ضوء كما انبثقت مرة لموسى فى سفح الجبل : « إنى أنا الله » . نعم حمل الإنسان الكلمة فى طبيعته الخالدة فى روحه ، إنها كلمة الله عادت اليوم صارخة مدوية تنادى أبناء آدم إلى سواء السبيل ، محذرة من اندفاعهم نحو الهاوية التى تنتظرهم إذا هم ظلوا سائرين فى نفس الاتجاه المادى الذى هم فيه اليوم يسيرون .

« لقد كَفَرَ الذين قالوا إن الله هو المسيحُ بنُ مريم . قُلْ فَمَنْ يملك من الله شيئا إنْ أرادَ أنْ يُهلِكَ المسيحَ بن مريم وأمَّهُ ومَنْ فى الأرض جميعا »[2] .

إذن كل ما يضىء عقل الإنسان فى طريق دنياه المظلم هو كلمة الله من الله ، هو صوت هاتف فى قلب الإنسان ، هو صوت كاشف فى ناظرى الإنسان ولم يكن عيسى أول الأنبياء ولا آخرهم :

« إن مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ كَمَثَـــلِ آدمَ : خَلَقَهُ مِن تُراب ثم

(١) متى ٢٣ : ٢٩ — ٣٢ . (٢) المائدة : ١٧ .

قالَ لهُ كُنْ فيكونُ »[1] . « وما مُحمَّد إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبله الرُّسُل »[2] .

ومنذ فجر التاريخ بدأت الكلمة فى الهبوط ، ولكنها كانت دائما لا تعم الأرض كلها ، بل غالبا ما غيرت وبدلت وحرفت بعد أن يغادر حاملوها هذه الدار .

وها نحن أولاء فى أوائل عصر جديد ، عصر لن يسمح للظلام بالعودة مرة أخرى ، عصر لن يفرض على البشرية نظريات خاطئة ، وخرافات يمجها العقل والمنطق .

لقد ظن البعض أن الإنجيل ينص على ألوهية عيسى ، وأن الله أرسل ابنه إلى الأرض ليخلص من عليها بتقديم ذلك الابن نفسه فداء عن الجنس البشرى ، وتحمله طوعا واختيارا ذنوب البشرية وأوزارها ، ثم انتقل هؤلاء ليطبقوا هذه الفكرة بعد ذلك فى جميع نواحى العلم ، فظنوا أن الأرض إذ يختصها الله بذلك الشرف لا بد أن تكون مركز الكون كله .

ويقول السير آرثر فندلاى فى كتابه (صخرة الحق)[3] ص ١٣٤ عن تأثير هذه الفكرة على الكنيسة الأولى ووقوفها فى وجه تيار العلم : « كانت الكنيسة تنادى بأن الأرض مستوية ، ومركزها فى بيت المقدس ، وظنت فى تلك الأيام أن الأرض هى وحدها العالم الذى يتكون منه الكون ، وأن الشمس والكواكب تدور حول الأرض » .

ولما حاول العلماء الخروج من هذا الحيز بعد القرن الخامس عشر الميلادى ،

---

(١) آل عمران : ٥٩ . (٢) آل عمران ١٤٤ .
(٣) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى .

وإثبات أن الكون أكبر من الأرض ، ظلت الكنيسة فى أوهامها تنادى أن هذا الكشف يتعارض مع الافتراض المسيحى وفكرة الإله المخلص . فأحرق « برونو » فى روما لما نادى « برونو » بأن هناك عوالم أخرى غير الأرض ، وأخمدت الكنيسة أنفاس « كوبرنيكوس » الذى لم يجرؤ على أن يظهر كتابه الذى يقول فيه : « إن الأرض ما هى إلا كوكب مثل غيرها من الكواكب السيارة » إلا وهو على فراش الموت : « وجاليليو » اضطر وهو راكع على ركبتيه ذليلا — خوفاً من المحاكمة — أن يكذب ماسبق أن صرح به من أن الأرض تدور حول الشمس .

وهكذا استمرت الكنيسة واقفة بالمرصاد لكل من يأتى برأى جديد يتعارض ورأيها ، فإنها فى الحال ترميه بالكفر والإلحاد ولكنها اضطرت أخيراً أن تستسلم وتعترف بصحة هذه الاكتشافات بعد مضى أربعة قرون ، أى فى القرن التاسع عشر .

ثم سار العقل البشرى فى طريقه إلى غزو الفضاء وتطوير العلم . وكان كلما تطور العلم تطورت معه طرق ومقاييس المفاهيم والقيم ، وزالت الغشاوات من فوق العقول ، بمعنى أن العلماء — عوضاً عن رجال الدين «رجال اللاهوت» — أصبحوا هم الضياء المنير الذى يقود البشرية ، ويعرفهم بالله ، أو كما قال الله فى محكم آياته : « إنَّما يَخشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العلماء »[١] . وأثبت العلم والعلماء وجود الله ، إلهاً خالقاً للكون كله ، أزليا سرمديا قديماً ، مستقلا عما خلق ، وعن التواريخ والحوادث التى وضعها الناس لأنفسهم ، وأنه شىء آخر مختلف عما يدور بعقل أى إنسان .

---

(١) فاطر : ٢٨ .

ومن كل ما سبق يتبين لنا مدى الخطأ الذى وقع فيه بعض المفسرين عندما فسروا الإنجيل تفسيراً حرفيا ، وعندما أعطوا قيمة كبيرة للأرض التى نعيش عليها ، ووصفوا عيسى بالألوهية ، وهو ليس إلا واحداً من عباد الله الصالحين المختارين .

اكتشاف مخطوطات قديمة :

اكتشفت حديثاً مخطوطات قديمة ، كانت محفوظة فى إحدى الحفر ، يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد ، ووجد أنها تحوى معلومات تصحح الفكرة السائدة عن ألوهية عيسى بن مريم .

ولقد كتب الباحثون عدة تقارير حول القيمة العظيمة لهذا الاكتشاف ، وهو مخطوطات قديمة مخبأة فى أوان فخارية طويلة ، هى جزء من مكتوبات الأسنيين القدماء العظماء .

ولما أرسل الدكتور تريفور[1] نسخة من هذه المخطوطات إلى الدكتور « و . ف . ألبرايت » — وهو عمدة فى علم آثار الإنجيل — رد عليه بقوله : « تهانئى على اكتشاف أعظم مخطوط فى العصر الحديث فوق هضبة بجوار البحر الميت » ، وحدد تاريخ كتابته بمائة عام قبل الميلاد ، وقال : « إنه لا يوجد أدنى شك فى العالم حول صحة هذا المخطوط ، وسوف تحدث هذه الأوراق ثورة فى فكرتنا عن المسيحية » .

ويرى كثير من الباحثين ورجال الدين وغيرهم — أن هذه المخطوطات القديمة التى تعطى صورة واضحة عن الكتب القديمة التى حرقتها الكنيسة أو كذبتها (والتى ذكرت فى الإنجيل) — سوف تحدث ثورة فى تفكير كل من يبحث عن الحق بدلا من العقائد الصناعية أو الدين الذى وضعه الإمبراطور

(١) ترجمة الدكتور ع . راضى .

قسطنطين والذى عقد مجمع نيقية فى سنة ٣٢٥ م تحت رئاسته ، وفى هذا المجمع وضع نهاية لدين الناصرى المتواضع ، دين الوحدانية إلى دين التثليث .

والحقيقة التى لا ينبغى أن تغيب عن بالنا هى ماقررته هذه المخطوطات[١] « أن عيسى كان مسيا المسيحيين ، وأن هناك مسيا آخر » ، وقد يكون المقصود بالمسيا الثانى هو نفسه بعد عودته بالروح فى العصر المتأخر أو يكون المقصود به ظهور النبى محمد ، لأنه كان يتكلم للحق منصفا روح عيسى ، ومدافعا عن العقيدة الأصلية التى جاء بها : « ومتى جاء المعـــــزى « البارقليط » فهو يشهد لى »[٢] .

ويقول القس (ا . باول ديفز) رئيس كنيسة كل القديسين فى واشنطن فى كتابه (مخطوطات البحر الميت)[٣] فى الصحيفة الأولى : « إن مخطوطات البحر الميت — وهى من أعظم الاكتشافات أهمية منذ قرون عديدة — قد تغير الفهم التقليدى للإنجيل » .

ويقول القس « الدكتور تشارلس فرنسيس بوتر » فى كتابه (السنون المفقودة من عيسى تكشف)[٤] فى صحيفة ١٢٧ : « لدينا الآن وثائق كافية تدل على أن المخطوطات هى حقيقة « هبة الله إلى البشر » لأن فى كل ورقة نفتح تأتى إثباتات جديدة على أن عيسى كان كما قال عن نفسه : « ابن الإنسان » أكثر منه « ابن الله » كما ادعى عليه ذلك أتباعه وهو منه برىء » .

وقال فى صحيفة ١٢[٥] : « من العسير العثور على كتاب فى العهد القديم لا يحتاج إلى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات البحر الميت ، وكذلك ليس

---

(١) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى . (٢) إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٦

(٣ ، ٤ ، ٥) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى

هناك كتاب فى العهد الجديد لا يحتاج إلى تفسير شامل للآيات الأساسية التى تقوم عليها الشريعة » .

وقال فى صحيفة ١٥ : « لقد سمى عيسى نفسه « ابن الإنسان » لكنهم سموه « ابن الله » : الشخص الثانى من الثالوث ، الرب من الرب ، ولكن من المشكوك فيه أن يكون الأسنيون أو عيسى نفسه قد وافقوا على هذا » .

إنجيل برنابا :

ترجم الأستاذ خليل سعادة إنجيل برنابا إلى اللغة العربية ، ونشرت دار المنار لصاحبها المرحوم رشيد رضا هذا الإنجيل وفى مقدمته كتبت هذه العبارة : « إنجيل برنابا وجد باللغة الإيطالية فى مكتبة بلاط فينا . وترجم بعد ذلك إلى جميع اللغات ، هذا الإنجيل يعترف صراحة بأن عيسى بشر مثل غيره من البشر ، وينكر ألوهيته ، ويعترف بوحدانية الله ، وبأن محمداً عبد الله ورسوله . ويقال إن البابا « جلاسيوس » قد حرم قراءة هذا الإنجيل سنة ٤٩٢م » .

يعلن الدكتور تشارلس فرنسيس بوتر فى كتابه (السنون المفقودة من عيسى تكشف)[1] : « إن إنجيلا يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة فى عهدها الأول . والمخطوطات التى اكتشفت حديثا فى منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل » .

وتوالت بعد ذلك الاكتشافات التى لم يسمع عنها الجمهور لدينا كثيرا ، وهذا هو سر التعجب ، فالمصادر التى تذكر هذه الأمور — كلها أجنبية غربية — قد ذكرت أن مخطوطا آخر فى الفيوم وآخر فى مصر العليا ، وثالثا فى طور سيناء فى سنة ١٩٥٨ م ، وأن هذا الأخير مكتوب باللغة الديموطيقية ،

---

(١) ترجمة الدكتور ع . ع . راضى .

وأنه كتب فى القرن الثالث بواسطة القديس مرقس الحوارى المعروف ، يصف فيه تاريخ عيسى ويصحح نقطا كثيرة مما جرى عليه العرف .

لقد استبعد إنجيل برنابا الذى يهدى إلى الحق ، فيهدى إلى الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ ، ومن عباراته : « فلما كان الناس قد دعونى الله ، وابن الله ، على أنى كنت بريئا فى العالم — أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله »[1] .

وفى هذا المعنى يقول يوحنا الحوارى : « ومتى جاء روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى »[2] .

وقال برنابا أيضا : « لأن الله سيصعدنى من الأرض ، وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياى ، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة ، أمكث فى ذلك العار زمنا طويلا فى العالم ، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال عنى هذه الوصمة ، وسيفعل الله هذا لأنى اعترفت بحقيقة مسيا[3] الذى سيعطينى هذا الجزاء ، أى أن أعرف أنى حى ، وأنى برىء من وصمة تلك الميتة » .

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وفند هذه الفرية بقول الله تعالى : « وقَوْلِهِم إنّا قتلنا المسيحَ عيسى بن مَرْيَمَ رسول الله ، وما قَتَلوه وما صَلبُوه ولَكِنْ شُبِّه لَهُمْ »[4] .

لقد استبعد إنجيل برنابا ، وبقيت كتابات بولس الذى ادعى لنفسه الرسالة . وبين برنابا وبين بولس مشادة يكشف القناع عنها برنابا فى قوله :

---

(١) إنجيل برنابا الباب ٢٢١ .
(٢) إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٦ .
(٣) مسيا : كلمة آرامية تعنى الرسول .
(٤) النساء : ١٥٧ و ١٥٨ .

« أيها الأعزاء ، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح ، برحمته العظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر به الله دائما ، مجوزين أكل لحم نجس الذى ضل فى عدادهم بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى »[1] .

ويقرر العهد الجديد فى سفر الأعمال (١٥ : ٣٦ — ٤٠) هذا القرار : « فحصل مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر ، وبرنابا أخذ مرقس وسافر فى البحر إلى قبرص ، وأما بولس فاختار سيلا وخرج مستودعا من الإخوة » .

استبعد إنجيل برنابا وبقيت كتابات بولس الذى جاء بتعليم شديد الكفر بقوله : « كأس البركة التى نباركها أليست هى شركة دم المسيح . الخبز الذى نكسره أليس هو شركة جسد المسيح »[2] .

ويسترسل الحوارى يوحنا على هذا الخط فيقول : « جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق . من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فى وأنا فيه »[3] . ومن هنا نشأ أحد الأسرار الكنسية السبعة المعروفة بسر « الأفخارستيا » وفحواه : « إننا نؤمن أنه بعد تقديس سر الشكر ، واستدعاء حلول الروح القدس على القرابين — يستحيل الخبز والخمر استحالة سرية إلى جسد المسيح ودمه الأقدسين حتى أن الخبز والخمر اللذين ننظرهما على المائدة ليسا خبزاً وخمراً بسيطين بل هما جسد الرب ذاته ودمه تحت شكلى الخبز والخمر » . « ونؤمن أن ربنا يسوع المسيح حاضر فى هذه الخدمة لا بوجه الرمز أو الإشارة

---

(١) مقدمة إنجيل برنابا .
(٢) ١ كو ١٠ : ١٦ .
(٣) يو ٦ : ٥٣ — ٥٦ .

أو الصورة أو المجاز ولا بأنه مستتر فى الخبز بل هو حاضر حضوراً فعليا » ، والحمد لله الذى قال فى عزته وجلاله :

« قُلْ يا عِبادِيَ الذين أسرَفُوا على أنفسهم لا تَقْنَطوا مِن رَحمةِ الله . إنّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوب جَميعاً إنهُ هو الغفورُ الرَّحيمُ . وأنيبوا إلى ربِّكم وأسلِمُوا لهُ من قبل أن يأتيَكمُ العذابُ ثم لا تُنصَرونَ »[1] .

هذا هو الله جل جلاله برىء مما نسب إليه من البنوة والتثليث . هذا هو الله الواحد الأحد « هو الذى أرسَلَ رسولهُ بالهُدى ودين الحقِّ ليُظهِرهُ على الدينِ كلِّه ولو كرِه المشركونَ »[2] ، ليؤكد للإنسانية أن الله غفور رحيم

(١) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ . (٢) التوبة : ٢٢ .

الباب الخامس

القرآن الكريم

يهدى أهل الكتاب إلى الصراط المستقيم

« يا أهلَ الكِتَابِ قد جاءكُمْ رسولُنَا
يبين لكم كثيراً مما كنتم تُخفونَ من الكِتابِ
وَيَعْفُو عن كثيرٍ ، قد جاءكم من الله نور
وكتابٌ مُبين »[1] .

إن سيدنا عيسى عليه السلام يتنبأ عن الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « وأما متى جاء ذاك (روح الحق) فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية »[2] .

ويدعم هذه النبوءة بطرس خليفة المسيح على الأرض بقوله : « فإن موسى قال للآباء إن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم ، له تسمعون فى كل مايكلمكم به »[3] ، « هذا هو الحجر الذى احتقرتموه أيها البناءون الذى صار رأس الزاوية ، وليس بأحد غيره الخلاص »[4] .

---

(١) المائدة : ١٥ .
(٢) يو ١٦ : ١٢ و ١٣ .
(٣) أع ٣ : ٢٢ .
(٤) أع ٤ : ١١ — ١٢ .

ويقول الله تعالى وهو خير القائلين: « يَا أهلَ الكتاب قدْ جَاءكُمْ رسولنا يبينُ لكمْ كثيراً مما كُنتم تخفُونَ مِنَ الكتابِ، ويَعفُو عن كثيرٍ. قد جاءكُم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ »[1].

ويقول سبحانه: « وما أنزلنا عَليكَ الكتَابَ إلا لِتُبيِّن لهُمُ الذى اختلفُوا فيه وهُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤمنونَ »[2].

ومن هذه الأسانيد والقرائن يتبين بوضوح لا ريب فيه أن نقطة التحول فى تاريخ الرسالات السماوية هى:

١ — فى اختيار الله للرسول الكريم، حفيد سيدنا إسماعيل عليه السلام، وهو شقيق سيدنا إسحق عليه السلام وكلاهما ابن سيدنا إبراهيم عليه السلام:

« ربنَا واجعلْنا مُسْلمَيْن لكَ ومِنْ ذرِّيتنَا أمةً مُسلِمةً لكَ، وأرِنا مناسِكَنا وتُبْ علَيْنا إنكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ »[3].

٢ — وفى تحول الأراضى المقدسة من أرض فلسطين مهد الأنبياء إلى أرض الحجاز، إلى مكة المكرمة أرض الرسول الكريم، فلنبدأ القصة من بدايتها حتى يتكشف لنا سر هذا التحول الخطير.

قال الله تعالى: « يا بنى إسرائيلَ اذكُرُوا نِعمَتِىَ التى أنعَمْتُ عليكُمْ، وأنى فَضلْتكم على العالمينَ. واتقُوا يوماً لا تَجزِى نفسٌ عن نَفسٍ شَيئًا، ولا يُقبَلُ مِنه عَدلٌ ولا تَنفعُها شفاعةٌ ولاَ هُمْ يُنصَرون »[4].

---

(١) المائدة: ١٥.
(٢) النحل: ٦٤.
(٣) البقرة: ١٢٨.
(٤) البقرة: ١٢٢ و ١٢٣.

وحذر سيدنا موسى عليه السلام بنى إسرائيل أن ينحرفوا من طريق الله بقوله : « إذا ولدتم أولادا وأولاد أولاد ، وأطلتم الزمان فى الأرض ، وصنعتم تمثالا منحوتا صورة شىء ما ، وفعلتم الشر فى عينى الرب إلهكم لإغاظته — أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تبيدون سريعا عن الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها ، لا تطيلون الأيام عليها ، بل تهلكون لامحالة ، ويبددكم الرب فى الشعوب ، فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها »[1] .

وبرغم هذا التحذير والتنبيه فإنهم ترددوا فى آثامهم وخطاياهم فحقت عليهم غضبة الله .

وفى سنة ٧٠١ ق . م . نفذ الله فيهم قضاءه ، فقال أشعياء نبى العهد القديم : « من منكم يسمع هذا يصغى ويسمع لما بعد ؟ ! من دفع يعقوب إلى السلب ، وإسرائيل إلى الناهبين ؟ أليس الرب الذى إليه أخطأنا ولم يشاءوا أن يسلكوا فى طرقه ولم يسمعوا لشريعته »[2] .

ثم يعود فيحاججهم بقوله : « ها إن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ، ولم تثقل أذنه عن أن تسمع ، بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم ، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع »[3] .

ويقول الله تعالى فى محكم آياته : « وكَمْ قَصمنا من قَريةٍ كانت ظالمة وأنشأنا بعدَها قوماً آخرينَ . فلمّا أحسّوا بأسنا إذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضونَ . لا تَرْكضوا وارجِعوا إلى ما أُترِفتم فيه ومساكِنِكُمْ لعلّكم تُسألون . قالوا يا ويلَنا إنّا كُنا ظالمينَ »[4] .

---

(١) سفر التثنية ٤ : ٢٥ — ٢٧ .
(٢) أشعياء ٤٢ : ٢٣ — ٢٥ .
(٣) أشعياء ٥٩ : ١ — ٤ .
(٤) الأنبياء : ١١ — ١٤ .

لا ريب أن إرادة الله لابد أن تتم مهما تجاهل الإنسان هذه الإرادة الأزلية السرمدية .

كما تنبأ عنهم أرمياء نبي العهد القديم — عن تدمير بيت المقدس وعن تشتيت إسرائيل بقوله :

« ويعبر أمم كثيرة فى هذه المدينة ويقولون الواحد لصاحبه : لماذا فعل الرب مثل هذا لهذه المدينة العظيمة ؟ فيقولون : من أجل أنهم تركوا عهد الرب إلههم ، وسجدوا لآلهة أخرى وعبدوها »[1] .

جاء المسيح عيسى بن مريم فماذا وجد ؟ لقد وجد :

١ — الأحبار والهياكل :

« ولما دخل الهيكل ابتدأ يخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه قائلا لهم : مكتوب أن بيتى بيت الصلاة . وأنتم جعلتموه مغارة لصوص »[2] .

٢ — الأحبار والالتزام بالحلف :

« ويل لكم أيها القادة العميان . القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم . أيها الجهال والعميان أيما أعظم الذهب أم الهيكل الذى يقدس الذهب ؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم، أيها الجهال والعميان أيما أعظم القربان أم المذبح الذى يقدس القربان ؟ فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه ، ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه ، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه »[3] .

---

(١) أرمياء ٢٢ : ٨ و ٩ .	(٢) لوقا ١٩ : ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) متى ٢٣ : ١٦ — ٢٢ .

٣ — الشعب والأحبار :

« يقترب إلىّ هذا الشعب بفمه ، ويكرمنى بشفتيه ، وأما قلبه فيبعد عنى بعيداً وباطلا يعبدوننى ، وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس »[١] .

٤ — المسيح والأحبار :

« لاتظنوا أنى أشكوكم إلى الله . يوجد الذى يشكوكم وهو موسى الذى عليه رجاؤكم لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى ، لأنه هو كتب عنى ، فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامى »[٢] .

٥ — المسيح والتلاميذ (الحواريون) :

« فأجابه بطرس : يارب إلى من تذهب وكلام الحياة الأبدية عندك ؟ ونحن قد آمنا ، وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحى ؟ أجابهم يسوع : أليس أنى أنا اخترتكم الاثنى عشر وواحد منكم شيطان »[٣] .

٦ — المسيح وإبليس :

« وقال له إبليس : أعطيك هذه كلها إن خررت وسجدت لى . حينئذ قال له يسوع : اذهب ياشيطان ، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد ، ثم تركه إبليس »[٤] .

٧ — المسيح والدينونة :

التهمة التى أقاموها ضده « أنه جعل نفسه ابن الله »[٥] .

ويفند القرآن الكريم هذه الشبهة ، ويدفعها عن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بقوله تعالى: « اتخذُوا أحبارَهُمْ ورهبانَهُم أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ والمسيحَ

---

(١) متى ٢٣ : ٨ و ٩ . (٢) يوحنا ٥ : ٤٤ — ٤٧ .
(٣) يوحنا ٦ : ٦٨ — ٧٠ . (٤) متى ٤ : ٩ — ١١ .
(٥) يوحنا ١٩ : ٨ .

ابن مريمَ وما أُمرُوا إلاَّ لِيَعْبُدوا إلَهاً واحداً لَا إِلَهَ إلا هُوَ سُبحانهُ عمّا يُشركُون »[١] ، وقوله تعالى : « فلمّا أحسّ عِيسى منهمُ الـكُفرَ قالَ : مَن أنصارِى إلى اللهِ ؟ ! قالَ الحواريُّونَ : نحن أنصارُ اللهِ ، آمَنّا باللهِ واشْهد بأنّا مُسلِمُونَ »[٢] .

وكان موقف سيدنا عيسى عليه السلام إزاء هذا الانحراف الدينى المريع موقفا إيجابيا إذ حين تقدم إليه تلاميذه لـكى يروه أبنية الهيكل قال لهم يسوع : « أما تنظرون جميع هذه ؟ الحق أقول لـكم إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض »[٣] .

« وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة (بيت المقدس) وبـكى عليها قائلا : إنك لو علمت أنت أيضا حتى فى يومك هذا ما هو لسلامك ولـكن الآن قد أخفى عن عينيك ، فإنه ستأتى أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ، ويحدقون بك ، ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك وبنيك فيك . ولا يتركون فيك حجرا على حجر لأنك لم تعرفى زمان افتقادك »[٤] .

ولقد صب عليها لعنة الله بقوله : « يا أورشليم ، يا أورشليم . ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا ، هو ذا بيتكم يترك لـكم خرابا »[٥] .

هذه هى القصة من بدايتها إلى نهايتها ، لقد غضب الله على إسرائيل وحول قلبه عن بيت المقدس ، فـكيف يتم هذا ووعد الله لسيدنا إبراهيم : « ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض »[٦] ؟!

---

(١) التوبة : ٣١ .
(٢) آل عمران : ٥٢ .
(٣) متى ٢٤ : ١ و٢ .
(٤) لوقا ١٩ : ٤١ — ٤٤ .
(٥) متى ٢٣ : ٣٧ — ٣٨ .
(٦) تـكوين ٢٢ : ١٨ .

ويوضح الله الأمر فى قوله تعالى : « قالَ إنّى جاعِلكَ للنّاسِ إماماً . قالَ : ومِنْ ذُرّيّتى . قال : لاَ ينالُ عهدى الظالمينَ »[١] .

وهنا يأتى دور نبوءة المسيح عليه السلام عن الرسول المصطفى : « قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب . الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره »[٢] .

وهنا أيضا يأتى دور تعزية الملاك للسيدة هاجر عندما هربت من نير الاستعباد تحت إذلال سارة زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام : « لأنى سأجعله أمة عظيمة »[٣] .

وهنا أيضا يأتى دور تعزية الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام عندما رأى ابنه البكر إسماعيل مطرودا أمام عينيه من وجه عبودية السيدة سارة : « وابن الجارية أيضا ، سأجعله أمة ، لأنه نسلك »[٤] .

ويؤكد الله هذه الأمور بقوله تعالى : « وإذْ جعلنا البيتَ مثابة للناسِ وأمْناً واتّخِذوا مِن مقامِ إبراهيمَ مُصَلّى ، وعهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طهّرا بيتِيَ للطائفين والعاكفينَ والرُّكّعِ السُّجُودِ »[٥] .

هذه الحوادث لم تكن محض مصادفة ، بل كانت فى علم الله سبحانه وتعالى ، وهى التى رآها سيدنا موسى عليه السلام ، « إذ أراه الله من ثم رسوله على ذراعى إسماعيل ، وإسماعيل على ذراعى إبراهيم ، و وقف على مقربة من إسماعيل إسحق وكان على ذراعيه طفل هو المسيح عيسى بن مريم يشير بأصبعه إلى رسول الله

(١) البقرة : ١٢٤ .
(٢) متى ٢١ : ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) تكوين ٢١ : ١٨ .
(٤) تكوين ٢١ : ١٣ .
(٥) البقرة : ١٢٥ .

قائلا: هذا هو الذى لأجله خلق الله كل شىء. فصرخ موسى من ثم بفرح: يا إسماعيل، إن على ذراعيك العالم كله والجنة اذكرنى أنا عبد الله لأجد نعمة فى نظر الله بسبب ابنك الذى لأجله صنع الله كل شىء»[1].

والآن لنتتبع المنهاج المرسوم:

١ — يقول الله تعالى: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»[2].

يأهل الكتاب، كفاكم دورانا حول هذا الجبل، واتجهوا إلى الصراط المستقيم. أما جاءت تلك المرأة السامرية وأخذت تحاور المسيح عيسى بن مريم حتى قالت له: «آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل، وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه. قال لها يسوع: يا امرأة صدقينى إنه تأتى ساعة — لا فى هذا الجبل، ولا فى أورشليم تسجدون لله — الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا»[3].

ويقول الله تعالى فى كتابه الكريم: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ».

ويقول برنابا مشيرا إلى ركن من أركان الإسلام وهو الحج: «سيأتى مسيا[4] المرسل من الله لكل العالم[5]، الذى خلق الله العالم لأجله، وحينئذ يسجد لله فى كل العالم[6] وتنال الرحمة، حتى أن سنة اليوبيل التى تجىء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة من كل مكان»[7].

---

(١) برنابا ١٩١: ٦ — ١٠ • (٢) البقرة: ١٤٢ • (٣) يوحنا ٤: ٢٠—٢٤.

(٤) مسيا: كلمة آرامية معناها الرسول • (٥) المسيح رسول الله لبنى إسرائيل فقط كما أقر بقوله: «لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة» متى ١٥: ٢٤ •

(٦) دور المسجد فى العالم لأداء الركن الأول من أركان الاسلام ألا وهو الصلاة •

(٧) برنابا ٨٢: ١٦ — ١٨، وفى هذا إشارة إلى الركن الخامس من أركان الاسلام ألا وهو حج البيت •

وفى الركن الخامس من أركان الإسلام يقول الله تعالى : « وأذِّن فى الناسِ بالحجِّ يأتُوكَ رجالاً وعَلى كلِّ ضامرٍ يَأتين مِنْ كلِّ فَجٍّ عميقٍ »(١) .

وفى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة قال البراء بن معرور : « يانبى الله، إنى خرجت من سفرى هذا، وهدانى الله للإسلام، فرأيت الا أجعل هذه البنية منى بظهر فصليت إليها . وقد خالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء فماذا ترى يارسول الله ؟ » قال : « لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها » .

وقال تعالى لسيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل عليهما السلام : « وإذْ جعلْنا البيتَ مثابةً للناسِ وأمْنًا واتخـــذوا مِنْ مقامِ إبراهيمَ مُصلّى ، وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طهِّرَا بَيتِيَ للطائفين والعاكفين والركع السُّجودِ »(٢) .

لقد كان على الرسول تطهير البيت للعاكفين ، فإن الوصية التى كانت لجده هى هى الوصية ، وما إن فتح الرسول ﷺ مكة حتى عمد إلى تطهيرها من الأصنام . قال ابن مسعود رضى الله عنه : « دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدىء الباطل ومايعيد » ، أخرجه البخارى ج ٥ ص ١٤٥ .

وهذا الأمر ليس بغريب على أهل الكتاب ، فهم كما قال الله عنهم :

---

(١) الحج : ٢٧ . (٢) البقرة : ١٢٥ .

« الذينَ آتيناهم الكتابَ يعرفونَه كما يعرفونَ أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون » . ولهذا قال لرسوله الكريم عند تحويل القبلة : « قد نرى تقلّبَ وجهِك فى السّماء فلنولّينّك قبلةً ترضاها فولّ وجهَك شطرَ المسجد الحرامِ ، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطرَه ، وإنّ الذينَ أوتوا الكتاب ليعلمونَ أنه الحقّ من ربّهم وما الله بغافلٍ عمّا يعملونَ »[١] .

هذه هى الحقائق الإلهية الثمينة :

الحقيقة الأولى : انتزاع النبوة من بنى إسرائيل : من بنى إسحق بن إبراهيم ، إلى محمد رسول الله : من بنى قريش ، من كنانة من بنى إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل إن كون رسول الله المصطفى من نسل إسماعيل عليه السلام ، وإن مركز إسماعيل بين الإسرائيليين مركز المحروم من الميراث كما صرحت به السيدة سارة : « اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق »[٢] . « ولكن عهدى أقيمه مع إسحق الذى تلده لك سارة »[٣] . . . وهذا هو العهد الذى أقامه الله مع إبراهيم عليه السلام : « أقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك »[٤] .

وإذ يبوء بنو إسرائيل بغضب من الله ، يخيب الله آمالهم فينتزع الميراث منهم ويورثه لذرية إسماعيل عليه السلام ، فى شخص الرسول الكريم ، وهذا

---

(١) البقرة : ١٤٤ ، واقرأ الآيتين التاليتين .
(٢) تكوين ٢١ : ١٠ .
(٣) تكوين ١٧ : ٢١ .
(٤) تكوين ١٧ : ٧ .

مصداق لما جاء على لسان موسى عليه السلام : « وأجعله أمة كبيرة »[1] . . وقوله أيضا : « لأنى سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام »[2] .

هذا هو الحجر الذى رفضه البناءون ، هو بقدرة الله قد أصبح رأس الزاوية ، هو محمد رسول الله سيد المرسلين وخاتم النبيين .

الحقيقة الثانية : تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة . هذا الأمر عجيب جدا ، لأن الله قدر فنفذ لا راد لتقديره ولا لمشيئته .

بقى علينا أمر ، وهو موقف التاريخ من هذه الحوادث :

١ — لقد ندد المسيح عيسى بن مريم بالهيكل ، وهو قبلة إسرائيل ، تأمل فيما جاء بإنجيل متى ٢٤ : ١ ، ٢ .

٢ — لقد تنبأ بخراب بيت المقدس (أورشليم) ، تأمل فيما جاء بإنجيل متى ٢٣ : ٣٧ و ٣٨ وإنجيل لوقا ١٣ : ٣٤ و ٣٥ .

والتاريخ السياسى يؤكد ويؤيد ما جاء من كلام الله تعالى فى التوراة أو الإنجيل أو القرآن ، إذ تعرضت فلسطين للاستعمار الأجنبى الذى داس الهيكل ، ودنس كل مقدساته فى هذه الفترات ، من عهد المسيح إلى مبعث الرسول ﷺ .

والحقب التى مرت بها فلسطين تأييداً لما تنبأت به التوراة والإنجيل هى :

١ — كانت فلسطين ولاية رومانية من سنة ٥٣ م إلى سنة ٦١٤ م .

---

(١) تكوين ١٧ : ٢٠ . (٢) تكوين ٢١ : ١٨ و ١٩ .

٢ — ثم أصبحت ولاية فارسية من سنة ٦١٤ م إلى سنة ٦٢٦ م تتبع الدولة الفارسية الساسانية .

٣ — ثم عادت ولاية رومانية في عهد الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٦ م إلى سنة ٦٣٧ م .

٤ — ثم حررها الإسلام من سنة ٦٣٧ م ، وحمى مقدساتها ورعى أهل الكتاب بالحق والأمانة .

الباب السادس

الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وإيمانه بشخص المسيح عليه السلام

« مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ »[1] .

آمن الرسول الكريم بالمسيح عيسى بن مريم الذى تنبأ قائلا : « ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذى نزل من السماء »[2] .

وعمن يقول هذا القول ؟

هل يقوله عن أخنوخ ؟ فالتوراة تقرر : « وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه »[3] .

أم يقوله عن إيليا ؟ فالأنبياء تقرر : « وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما ، فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء »[4] .

فالأول — وهو أخنوخ — لعله سيدنا الخضر ، صعد إلى السماء وما زال فيها .

والثانى — وهو إيليا — لعله سيدنا إلياس ، صعد إلى السماء ومازال فيها

---

(١) المائدة : ٧٥ .
(٢) يوحنا ٣ : ١٣ .
(٣) تكوين ٥ : ٢٤ .
(٤) سفر الملوك الثانى ٢ : ١١ .

وإذا اعتبرنا الأمر للمسيح عليه السلام فإن الله رفعه إليه ولم ينزل بعد من السماء .

فمن هذا المسيا (الرسول) إذن ؟

إنه محمد صلى الله عليه وسلم عندما أسرى الله به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السماء ، ورأى ما رأى ، « مَا كَذَبَ الفؤَادُ ما رأى . أفتمارونهُ على ما يَرى ، ولقدْ رآه نَزْلة أُخرَى ، عندَ سدرةِ المنتَهى، عندَها جَنة المأْوَى ، إذْ يغشى السِّدْرَةَ ما يَغشى ، ما زَاغَ البصرُ وماطغَى ، لقد رأى من آياتِ ربِّه الكُبرَى» [١] .

وهذه نبوءة أخرى من سيدنا عيسى عليه السلام للرسول الكريم صعوده إلى السماء ونزوله منها .

أما عن الرحلة النبوية ، فالرسالات السماوية تؤمن بها ، وقد سبق إليها أخنوخ ، وإيليا ، والمسيح .

وما سبق به القرآن الكريم من الإعجاز فى هذه الرحلة أيده العلم الحديث، فرواد الفضاء الآن يدورون حول الأرض ويهبطون على القمر ، وإذا كان الإنسان قد استطاع إلى ذلك سبيلا — فالإنسان من خلق الله ، والله يعطى بعض علمه لمن يشاء من خلقه ويقول : « وَمَا أُوتيتُم مِنَ العِلْم إلاّ قليلا » . ويؤكد أن الإنسان مهما بلغ من العلم لا يستطيع أن يصل إلى الأسرار الإلهية إلا بقدر : « وَلَا يُحيطُون بشىء مِنْ عِلمِهِ إلاّ بمَا شَاء » .

لقد آمن الرسول سيدنا محمد ﷺ بالأنبياء قبله ، وبعيسى ، وبموسى ،

---

(١) النجم : ١١ — ١٨ .

ولم يفرق بين أحد من رسل الله ، وهذا هو الإيمان الخالص ، والدين الصافى والحياة الربانية الكريمة .

وكيف يؤمن الرسول بسيدنا عيسى عليه السلام ؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نعرف ما معنى كلمة « مسيح » ؟ وكيف نشأت ؟ وهل هى مقصورة على سيدنا عيسى عليه السلام ؟

فى الفترة من ١١٠٠ ق . م إلى ١٠١١ ق . م تاقت نفوس بنى إسرائيل لأن يكونوا دولة كالدول التى بجوارهم ، وأرادوا لهم ملكا ومملكة . وفى هذا قال الله تعالى :

« وقالَ لهمْ نَبِيُّهُمْ : إنّ اللهَ قدْ بعثَ لكمْ طالوتَ[1] ملِكا. قالُوا : أنّى يكون لهُ الملكُ علينا ونحنُ أحقُّ بالملكِ منهُ ولم يُؤتَ سعةً من المال!! قالَ إن الله اصطفاهُ عليكمْ وزادَهُ بَسْطةً فِى العلمِ والجسْم ، واللهُ يُؤتِى مُلكهُ منْ يشاء واللهُ واسعٌ عليمٌ »[2] .

والقصة كما وردت فى التوراة هكذا : «فأخذ صموئيل قنينة الدهن ، وصب على رأسه وقبله وقال : أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً »[3] .

ومن هنا نشأت فكرة المسيح ، وهى رمز إلى تتويج الملك ، ورمز إلى حلول الروح القدس على الملك بمجرد مسحه بالدهن ، أما المسيح فسمى كذلك لأنه منذ ولادته حل عليه الروح القدس ، « وقال لها : الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك »[4] .

---

(١) المقصود بطالوت شاول بن قيس بن بنيامين . (٢) البقرة : ٢٤٧ .
(٣) صموئيل أول ١٠ : ١ . (٤) إنجيل لوقا ١ : ٣٥ .

ويقول الله تعالى : « والتى أحصنتْ فرجها فنفخنا فيه من رُوحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمينَ »[١] .

ويقول سبحانه : « ذلكَ عيسى بنُ مريم قولَ الحقّ الذى فيه يمترُونَ . ما كانَ لِلهِ أنْ يتخذَ مِنْ ولدٍ سُبحانه إذَا قضى أمراً فإنما يقولُ لهُ كُنْ فيكونُ »[٢] .

ولاعجب أن الإنجيل يؤكد للإنسان الذى يبحث عن الحق ويتحرى الصدق، لا عجب أنه يدعم إنسانية عيسى عليه السلام ، ويؤكد رسالته ونبوءته ، فكلمة إنجيل كلمة يونانية تعنى بشارة أو بشرى، ولعل هذا هو الذى نستفيده من سيرة سيدنا عيسى عليه السلام : أنه كان بشرى من الله للرحمة ، وبشرى بتبشيره عن المسيا الذى سيأتى للعالمين هدى ورحمةً ، ألا وهو الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

شهادة الإنجيل

والأناجيل تؤكد شخصية المسيح عيسى بما يتفق وإيمان المسلم .

١ — المسيح عيسى بن مريم يخضع لناموس الغرائز الانسانية :

« جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ، فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر ، محب للعشارين والخطاة ، والحكمة تبررت من بنيها »[٣] .

« ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس ، فبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً ، فتقدم إليه المجرب وقال له : إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً »[٤] .

---

(١) الأنبياء : ٩١ . (٢) مريم : ٣٤و٣٥ .

(٣) متى ١١ : ١٩ ، لوقا ٧ : ٣٤ ، ٣٥ . (٤) متى ٤ : ١ و ٣ .

وفى هذا مطابقة لقوله تعالى : « مَا المسيحُ بنُ مريمَ إلاّ رَسولٌ قَدْ خلتْ منْ قبلهِ الرُّسلُ وأمهُ صدِّيقةٌ كانَا يأكلانِ الطعامَ . انظرْ كيفَ نُبينُ لهمُ الآياتِ ثمّ انظرْ أنّى يؤفكُونَ »[1] .

ويقول سبحانه : « وما أرسلْنا قبلكَ من المرسلينَ إلاّ أنهُمْ ليأكلون الطعام ويَمشُونَ فى الأسْوَاقِ »[2] .

٣ — المسيح عيسى بن مريم يخضع لناموس الراحة والتعب :

« وفى أحد الأيام دخل سفينة هو وتلاميذه ، فقال لهم : لنعبر إلى عبر البحيرة ، فأقلعوا ، وفيما هم يسيرون نام ، فنزل نوء ريح فى البحيرة وكانوا يمتلئون ماء ، وصاروا فى خطر ، فتقدموا إليه وأيقظوه قائلين : يا معلم ، يا معلم ، إننا نهلك ، فقام وانتهر الريح ، وتموج الماء ، فانتهيا وصار هدوء »[3] .

ويؤكد هذه القصة مرقس فى إنجيله بما نصه : « وقال لهم فى ذلك اليوم لما كان المساء : لنجتز إلى العبر ، فصرفوا الجميع وأخذوه كما كان فى السفينة ، وكانت معه أيضاً سفن أخرى صغيرة فحدث نوء ريح عظيمة ، فكانت الأمواج تضرب السفينة حتى صارت تمتلىء ، وكان هو فى المؤخرة على وسادة نائماً ، فأيقظوه وقالوا : يا معلم ، أما يهمك أننا نهلك ؟ فقام وانتهر الريح ، وقال للبحر اسكت أبكم . فسكنت الريح ، وصار هدوء عظيم »[4] .

ويدعم هذه القصة أيضاً متى فى إنجيله بما نصه :

« ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه ، وإذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة ، وكان هو نائماً ، فتقدم إليه تلاميذه وأيقظوه قائلين : يا سيد ، نجنا ، فإننا نهلك . فقال لهم : ما بالكم خائفين يا قليلى

(١) المائدة : ٧٥ .
(٢) الفرقان : ٢٠ .
(٣) لوقا ٨ : ٢٢ — ٢٤ .
(٤) متى ٤ : ٣٥ — ٤٠ .

الإيمان ؟ ثم قام وانتهر الريح والبحر فصار هدوء عظيم ، فتعجب الناس قائلين: أى إنسان هذا ؟ فإن الرياح والبحر جميعا تطيعه »[١] .

هذه إقرارات مؤكدة ، ومن عجب أن الحواريين وضعوا شبهات من نسج خيالهم ، فهذا هو بطرس خليفة المسيح يقول : « أنت هو المسيح ابن الله الحى »[٢] . فكيف يتفق هذا وهو الإنسان الذى كان نائما فأيقظوه كما تقرره القصص الثلاث ؟

ويحسم القرآن الكريم الأمر فى قوله تعالى : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ »[٣] .

وبعد أن دفعنا هذه الشبهة عنه من القرآن الكريم نبحث عن دفع من التوراة ، وقد جاء فى سفر الملوك الأول قصة حوار بين إيليا نبى الله وبين أنبياء البعل ، وفى هذا الحوار يتحدى إيليا البعل إله البابليين ، ويسخر منه ، ويقول لهم فى سخرية لاذعة : « ادعوا بصوت عال ، لأنه إله لعله مستغرق ، أو فى خلوة ، أو فى سفر ، أو لعله نائم فيتنبه »[٤] . وبرهان آخر هو المعجزات التى ظهرت على يد موسى ومنها : ضرب البحر بعصاه فانفلق ، أهذه قدرة بشرية أم قدرة إلهية ؟

٣ — المسيح عيسى بن مريم يخضع لناموس المؤثرات العاطفية :

« وإذ كان فى جهاد كان يصلى بأشد لجاجة ، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض ، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه ، فوجدهم نياما من الحزن . فقال لهم : لماذا أنتم نيام ؟ قوموا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة ، وبينما

(١) متى ٨ : ٢٣ — ٢٧ .
(٢) متى ١٦ : ١٦ .
(٣) البقرة : ٢٢٥ .
(٤) ١ ملوك ١٨ : ٢٧ .

هو يتكلم إذا جمع ، والذى يدعى يهوذا أحد الاثنى عشر يتقدمهم ، فدنا من يسوع ليقبله ، فقال له يسوع : يا يهوذا ، أبقبلة تسلم ابن الإنسان ؟ »[١] .

« وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلا : إنك لو علمت أنت أيضا حتى فى يومك هذا ما هو لسلامك ، ولكن قد أخفى عن عينيك ، فإنه ستأتى أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ، ويحدقون بك ، ويحاصرونك ، من كل جهة ، ويهدمونك وبنيك فيك ، ولا يتركون فيك حجراً على حجر ، لأنك لم تعرفى زمان افتقادك »[٢] .

هذا هو المسيح الإنسان ، عاش فى إطار الحزن والأسى ، فتألم ، وبكى ، وحزن ، وهذه كلها انفعالات بشرية .

ويأتى الرسول الكريم على نمط آخر يختلف عن المسيح عيسى بن مريم بينه الله تعالى بقوله : « مُحمدٌ رسولُ اللهِ ، والذينَ معهُ أشدّاء على الكفّار رُحَماء بينهم تراهم ركعاً سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا »[٣] .

٤ — المسيح عيسى بن مريم يلتزم مكانته فلا يتعداها :

(ا) أرادوه ملكا ، فانصرف عنهم : « وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف إلى الجبل وحده »[٤] .

(ب) رئيس الكهنة يستجوبه ، وواحد من الخدام يلطمه على وجهه : « فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه أجابه يسوع : أنا كلمت العالم علانية ، أنا علمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع

---

(١) لوقا ٢٢ : ٤٤ — ٤٨ .
(٢) لو ١٩ : ٤١ — ٤٤ .
(٣) الفتح : ٢٩ .
(٤) يو ٦ : ١٥ .

اليهود دائما ، وفى الخفاء لم أتكلم بشيء ، لماذا تسألنى أنا ؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم ، هو ذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا . ولما قال هذا لطم يسوع واحد من الخدام كان واقفا قائلا : أهكذا تجاوب رئيس الكهنة ؟ أجابه يسوع : إن كنت قد تكلمت رديا فاشهد على الردى ، وإن حسنا فلماذا تضربنى ؟ وكان حنان قد أرسله موثقا إلى قيافا رئيس الكهنة »[1] .

(ج) ولقد حاوره الفريسيون بمكر ليصطادوه بكلمة فقالوا : « يا معلم ، نعلم أنك صادق ، وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس ، فقل لنا : ماذا تظن ؟ أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم ، وقال : لماذا تجربوننى يا مراءون ؟ أرونى معاملة الجزية . فقدموا له دينارا . فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا له : لقيصر ، فقال لهم : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله »[2] .

٥ — المسيح عيسى بن مريم جاء غريبا وعاد غريبا :

لقد تنبأ عن نفسه بالآلام ، فتصدى له بطرس رياء يستبعد عنه ما هو محتوم أن يكون : « من ذلك الوقت ابتدأ يظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، فأخذه بطرس إليه ، وابتدأ ينتهره قائلا : حاشاك يارب ، لا يكون لك هذا . فالتفت وقال لبطرس : اذهب عنى يا شيطان ، أنت معثرة لى ، لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس »[3] .

وبطرس هذا قد أنكر سيده ساعة المحاكمة : « قال واحد من عبيد رئيس

(١) يو ١٨ : ١٩ — ٢٤ .
(٢) متى ٢٢ : ١٥ — ٢١ .
(٣) متى ١٦ : ٢١ — ٢٣ .

الـكهنة : أما رأيتك أنا معه فى البستان ؟ فأنـكر بطرس أيضا »(١) .

هذا هو خليفة المسيح ، تنـكر لسيده ساعة المحنة .

وأراد الذين رأوا الخير على يديه أن يتبعوه أينما يمضى ، فقال لهم : « للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه »(٢) .

وختام الأمر كله قوله تعالى : « فَلما أحسَّ عيسى مِنهُم الـكُفرَ قال : مَنْ أنصارى إلى اللهِ ؟ قالَ الحواريونَ : نحنُ أنصارُ اللهِ ، آمنا باللهِ واشهدْ بأنّا مُسلمونَ »(٣) .

٦ — المسيح عيسى بن مريم رسول الله :

أراد اليهود أن يقتلوا المسيح رسول الله ، فقال لهم : « لو كنتم أولاد إبراهيم لـكنتم تعملون أعمال إبراهيم ، ولـكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلـكم بالحق الذى سمعه من الله ، هذا لم يعمله إبراهيم »(٤) .

ويضرع إلى الله فى صلواته فيقول : « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته »(٥) .

ويحدد اختصاص رسالته فيقول : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل »(٦) .

وبين القوم الذين جاء لأجلهم فيقول : « ينبغى لى أن أبشر المـــدن

---

(١) يو ١٨ : ٢٦ — ٢٧ .
(٢) متى ٨ : ١٨ — ٢٠ .
(٣) آل عمران : ٥٢ .
(٤) يو ٨ : ٣٩ — ٤٠ .
(٥) يو ١٧ : ٣ .
(٦) متى ٥ : ١٧ .

الأخرى أيضا بملكوت الله ، لأنى لهذا قد أرسلت ، فكان يكرز فى مجامع الجليل »[1] .

ويقول الله العزيز الحكيم فى كتابه الكريم : « تِلكَ الرُّسلُ فضّلنا بعضَهم على بعضٍ مِنهم مَن كَلّم الله ورَفعَ بعضَهم درجاتٍ ، وآتينا عيسى ابن مريمَ البينات وأيدْناهُ بروح القُدسِ »[2] .

٧ — المسيح عيسى بن مريم نبى الله :

أقر فى حزن دفين ألا مكانة له فى وطنه مهما يرفعه الله من درجات ، وقد سجل هذا متى أحد الحواريين فى إنجيله (الباب ١٣ : ٥٤ — ٥٨) وهذا نصه للاستفادة من مناحيه المتعددة : « ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم فى مجمعهم حتى بهتوا وقالوا : من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ؟ أليس هذا ابن النجار ؟ أليست أمه تدعى مريم ، وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا ؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا ؟ فمن أين لهذا هذه كلها ، فكانوا يعثرون به . وأما يسوع فقال لهم : ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه ، وفى بيته ، ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم » .

ويقول الله عز وجل : « ويعلّمه الكتابَ والحِكمةَ والتوراة والإنجيلَ ورَسُولاً إلى بَنِى إسرائيل ... » الآيات[3] .

وكان الشعب ينظر إليه كنبى : « وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع ، لأنه كان عندهم مثل نبى »[4] .

وقالت عنه المرأة السامرية : « أرى أنك نبى »[5] .

---

(١) لو ٤ : ٤٣ — ٤٤ .
(٢) البقرة : ٢٥٣ .
(٣) آل عمران : ٤٨ — ٥١ .
(٤) متى ٢١ : ٤٦ .
(٥) يو ٤ : ١٩ .

٨ — المسيح عيسى بن مريم رفيع الدرجة عند الله والناس :

لقد ندد المسيح بالكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين والناموسيين ، ولما دخل الهيكل ابتدأ يخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه : « قائلا لهم : مكتوب أن بيتى بيت الصلاة ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » . هذا هو المسيح ، يتهم الجنس البشرى على اختلاف طبقاته بالإثم والمعصية والخطيئة ، ويتحداه بقوله : « من منكم يبكتنى على خطية ، فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بى »[١] .

ويؤيد الله هذه الدرجة فى قوله : « إذْ قَالتِ الملائكةُ يا مَريمُ إن الله يبشِّرُكِ بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيح عيسى بنُ مريمَ وَجيهاً فى الدُّنيا والآخرةِ ومِنَ المقرَّبين »[٢] .

٩ — المسيح عيسى بن مريم مؤيد بالروح القدس :

بين الأسياء الذين أرسلهم الله لهداية الناس إلى الوحدانية ثلاثة يعتبرون أئمة الأنبياء ، هؤلاء جاءوا بالحق يبشرون وينادون بالوحدانية ، ويتشابه هؤلاء فى إعجاز مولدهم ، ونشأتهم ، وتعلق البشر بهم .

لقد ولد فى مصر نبى من بنى إسرائيل هو موسى عليه السلام ، وكانت مصر فى ذلك الزمان أرض السحرة ، وكان الله ناصراً ومؤيداً لنبيه بالمعجزات التى سحقت أعمال السحر ، وكانت سبباً فى إيمان امرأة فرعون بالله الواحد القهار .

وفى فلسطين ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وفلسطين عاصرت عهدين : عهد الدولة الإغريقية التى اشتهرت بالحكمة والطب ، وعهد الدولة

---

(١) يو ٨ : ٤٦ .   (٢) آل عمران : ٤٥ .

الرومانية التى اشتهرت بالبطش والسطوة ، فكان لابد أن تكون تأييدات الله من نوع يستطيع به رسوله ونبيه أن يفحمهم علماً وطباً .

وفى الجزيرة العربية ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعرب يمتازون بفصاحة القول وبلاغته . فكان تأييد الله لرسوله بالقرآن الكريم .

وكأن الله تعالى شاء أن تكون الأرض التى وطئتها أقدام الرسل والأنبياء مثلثة . زاويتها الأولى مصر ، وزاويتها الثانية فلسطين ، وزاويتها الثالثة الجزيرة العربية .

جاء سيدنا عيسى عليه السلام مؤيداً بالروح القدس ، فجرت على يديه معجزات شفاء المرضى وإبراء الأبرص ، وإحياء الموتى . كل هذا وأكثر منه بإذن الله : « قال يسوع : ارفعوا الحجر ، قالت له مرثا أخت الميت : ياسيد ، قد أنتن ، لأن له أربعة أيام . قال لها يسوع : ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله ؟ فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا ، ورفع يسوع عينيه إلى السماء وقال : يا الله ، أشكرك . لأنك سمعت لى ، وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ، ليؤمنوا أنك أرسلتنى . ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلم خارجا ، فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ، ووجهه ملفوف بمنديل فقال لهم يسوع : حلوه ، ودعوه يذهب »[1] .

ويفترى المسيحيون فى ادعائهم أن المسيح لم يكن مؤيدا بالروح القدس فحسب بل هو ذاته الله فى جسد إنسان ، وبهذا الادعاء ، وذلك الافتراء باءوا بغضب ولعنة من الله :

« وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قُلتَ للنَّاسِ اتَّخِذونى وأُمِّيَ إلٰهينِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ ! قالَ سُبحانَكَ ما يكونُ لِى أنْ أقولَ ما ليسَ لِى

(١) يو ١١ : ٣٩ — ٤٤ .

بحقّ ، إنْ كُنت قلتُه فقد عَلِمتَه ، تعلمُ ما فى نَفسى ولا أعلم ما فى نَفسك ، إنكَ أنتَ عَلاَّم الغُيوبِ » .

وإذا افترضنا — جدلا — صحة هذا الزعم ، فهل نعد هؤلاء الذين أقاموا موتى آلهة ؟ وهؤلاء هم :

١ — إيليا عندما طلب من الله: « ياربّ إلهى ، لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه ، فسمع الرب صوت إيليا ، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش »[٢] .

٢ — اليشع تلميذ إيليا عندما أقام ميتا : « ودخل اليشع البيت وإذا بالصبى ميت ومضجع على سريره ، فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما ، وصلى إلى الرب ، فعطس الصبى سبع مرات ، ثم فتح الصبى عينيه »[٣] .

٣ — بطرس أحد الحواريين أقام ميتة : « فأخرج بطرس الجميع خارجا ، وجثا على ركبتيه وصلى ، ثم التفت إلى الجسد وقال : ياطابيثا[٤] قومى ، ففتحت عينيها ، ولما أبصرت بطرس جلست فناولها يده وأقامها ، ثم نادى القديسين والأرامل ، وأحضرها حية »[٥] .

٤ — بولس المدعو رسولا ، أقام ميتا : « وكان شاب اسمه أفتيخوس جالسا فى الطاقة متثقلا بنوم عميق ، وإذ كان بولس يخاطب خطابا طويلا غلب عليه النوم ، فسقط من الطبقة الثالثة إلى أسفل ، وحمل ميتا ، فنزل بولس ، ووقع عليه ، واعتنقه قائلا : لا تضطربوا لأن نفسه فيه . . وأتوا بالفتى حياً ، وتعزوا تعزية »[٦] .

هل هؤلاء آلهة ؟ حاشا ، لا هؤلاء ، ولا المسيح عيسى بن مريم إله ، بل كلهم بشر ، ويدحض الله القدير هذه الشبهة بقوله تعالى :

(١) المائدة : ١١٦ .
(٢) ١ مل ١٧ : ٢١ — ٢٢ .
(٣) ٢ مل ٤ : ٣٢ ، ٣٣، ٣٥ .
(٤) طابيثا : كلمة آرامية معناها صبية .
(٥) أع ٩ : ٤٠ — ٤١ .
(٦) أع ٢٠ : ٩ — ١٢ .

« اتخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أرباباً مِنْ دونِ اللهِ والمسيحَ بنَ مريمَ وما أُمرُوا إلا ليعبدُوا إلـهاً واحداً لاَ إله إلاَّ هُوَ سُبحانه عمَّا يشركونَ »(١) .

ويوضح حقيقة الأمر بقوله تعالى : « ورَسولا إلى بَنِي إسرائيلَ »(٢) .

وقوله تعالى : « إذْ قالَ اللهُ يا عيسى بنَ مرْيَمَ اذكر نعمتِي عليكَ »(٣) .

وقد بين الحقيقة فى قوله : « ولقد آتينا بَنِي إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمْ والنُّبوَّةَ ورزَقْناهم مِنَ الطَّيِّباتِ ، وفَضلناهُمْ على العالَمينَ . وآتيناهُم بيِّناتٍ مِنَ الأمرِ فما اختلفُوا إلا مِنْ بعدِ ما جاءهمُ العلْمُ بَغياً بينهُمْ . إنّ ربَّكَ يَقضى بينَهمُ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيهِ يَختلفونَ . ثمَّ جعلناكَ على شَريعةٍ مِنَ الأمرِ فاتبعها ولا تتَّبع أهواءَ الذينَ لا يعلمونَ . إنهمْ لنْ يُغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئا وإن الظالمين بعضُهم أولياء بعض واللهُ ولىُّ المتقينَ . هذَا بصائرُ الناسِ وهُدًى ورَحمةٌ لقومٍ يوقنون »(٤) .

مقارنة بين تعاليم المسيح وتعاليم بولس

لقد كان المسيح عليه السلام رسول الله ، جاء ليحقق إرادة الله وينادى بما نادى به الرسول الكريم : « يأيُّها الناسُ إنا خَلقْنا كُم مِنْ ذَكرٍ وأُنثى وجعلنا كُم شُعوبا وقبائلَ لِتعارَفوا ، إنَّ أكرمكم عندَ اللهِ أتقا كم »(٥) .

---

(١) التوبة : ٣١ .
(٢) آل عمران : ٤٩ .
(٣) المائدة : ١١٠ .
(٤) ... : ١٦ — ٢٠ .
(٥) الحجرات : ١٣ .

ونطق بذلك خليفة المسيح بطرس إذ قال : « بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده »[(١)] .

لقد جاء المسيح بطريقته الخاصة التى ميزت تعاليمه الباهرة ومباحثه الدينية بطابع السمو والبساطة حتى يفهمها لأول وهلة — الزارع ، والصانع ، والمثقف ، والأمى ، والرجل ، والمرأة — دون أدنى إجهاد للذهن ، وهاهو ذا يبسط تعليمه لهذه الحقيقة التى قالها الله تعالى : « وجَعلنَاكُمْ شُعُوباً وقَبائلَ لتَعارفُوا » ، فيورد قصة مشهورة ، هى قصة السامرى الصالح[(٢)] ، وتتلخص هذه القصة فى استفسار من ناموسى — وهو الذى يسير وفق تعاليم التوراة تماماً — فيسأل : كيف يرث الحياة الأبدية ؟ فيرد عليه المسيح عيسى بن مريم بقوله : إن الدين هو حياة وقوة وليس مجرد تعاليم تحفظ . الدين هو أن يعيش المرء فى إطار أحكام الشرع لا يتعدى أوامر الله ولا يقترف نواهيه . ونطق المسيح برده المشهور عقب إيراد القصة ، وتتلخص فى :

١ — كاهن يمر بالجريح الذى سطا عليه اللصوص من قطاع الطريق فيعبر الكاهن دون أن يقدم مساعدة .

٢ — لاوى يمر كذلك دون أن يقدم أية مساعدة ، وهذان من رجال الدين وعبورهما دون تقديم أية خدمة ينفى قوة الدين فيهما .

٣ — سامرى (وبين السامريين والإسرائيليين عداوة قديمة وقطيعة فى كل شأن من شئون حياتهم) هذا السامرى لم يكن فى امتياز اليهود من ناحية الوحدانية ومن ناحية أنهم شعب الله المختار ، ومع هذا قدم إسعافات طبية ،

---

(١) أعمال الرسل ١٠ : ٣٤ .   (٢) لوقا ١٠ : ٢٥ — ٣٧ .

ومعونة مالية ، وأخذه إلى أقرب فندق للعناية به . وهنا يشير المسيح عيسى ابن مريم إلى أن الغاية العظمى من الدين — هى كمحبة الله — ينبغى أن تكون محبة القريب. ومن هذا القريب ؟ إنه ذلك الغريب الذى وقع بين قطاع الطريق.

وها هى ذى القصة ، نوردها بنصها : « وإذا ناموسى قام ليجربه قائلا : يامعلم ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له : ماهو مكتوب فى الناموس ، كيف تقرأ ؟ فأجاب وقال : تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قدرتك ، ومن كل فكرك ، وقريبك مثل نفسك . فقال له : بالصواب أجبت . افعل هذا فتحيا .

« وأما هو فإذ أراد أن يبرر نفسه قال ليسوع : ومن هو قريبى ؟

« فأجاب يسوع وقال : إنسان كان نازلا من أورشليم إلى أريحا فوقع بين لصوص ، فعروه وجرحوه ، ومضوا وتركوه بين حى وميت ، فعرض أن كاهنا نزل فى تلك الطريق فرآه وجاز مقابله ، وكذلك لاوى إذ أيضا صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله . ولكن سامريا مسافراً جاء إليه ، ولما رآه تحنن ، وتقدم وضمد جراحاته ، وصب عليها زيتاً وخمراً ، وأركبه على دابته ، وأتى به إلى فندق ، واعتنى به ، وفى الغد لما مضى أخرج دينارين ، وأعطاهما لصاحب الفندق ، وقال له : اعتن به ، ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعى أوفيك : فأى الثلاثة ترى صار قريباً للذى وقع بين اللصوص ؟ فقال : الذى صنع معه الرحمة . فقال له يسوع : اذهب أنت أيضا واصنع هكذا »[١] .

هذا هو أسلوب المسيح !

أما أسلوب بولس المدعو رسولا فهكذا : « فإنى إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسى للجميع ، لأربح الأكثرين ، فصرت لليهودى كيهودى ،

---

(١) لوقا ١٠ : ٢٥ — ٣٧ .

لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس ، مع أنى لست بلا ناموس لله ، بل تحت ناموس للمسيح ، لأربح الذين بلا ناموس ، صرت للضعفاء كضعيف ، لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شىء لأخلص على كل حال»[١].

لعلك أيها القارىء تلمس فى هذا الأسلوب عمق بولس فى المسائل الفسلفية والمباحث العلمية ، مما لم يرو قط عن المسيح ، ولعلك تتبين أيضا الفلسفة التى تتخلل مباحث رسائله ، وهى ضرب من فلسفة أرسطاطاليس التى كانت شائعة فى أوائل القرون الوسطى فى أوربا .

والحقيقة التى لاريب فيها أن بولس كان على جانب كبير من معرفة الفلسفة اليونانية ، وسمو المدارك ، وقوة الحجة ، وشدة المعارضة ، وجلاء البيان ، وقد رأى بعضهم أن مباحثه الفلسفية عن الجسد والنفس من الوجهة الدينية من أسمى ما كتب الباحثون الدينيون ، فمن قوله : « ويحى أنا الإنسان الشقى ! من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟ »[٢].

هذه الفلسفة فى كتابات بولس ، التى لم ترو قط عن المسيح ، تجعلنى أشك فى أن الإنجيل من وحى الله ، وذلك لاختلاف أسلوب الكتابة ما بين السهولة المطلقة والفلسفة العميقة . وفى هذا يقول الله تعالى ليؤكد إعجاز القرآن الكريم:

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[٣].

---

(١) ١ كو ٩ : ١٩ — ٢٢ .

(٢) رومية ٨ : ١٤ — ٥ : ٥ .

(٣) النساء : ٨٢ .

وليت الأمر اقتصر على هذا ، بل إن كتاباته أصبحت مبادىء يؤمن بها فأى تناقض بين نداء المسيح بالسلام كما أوردت فى القصة آنفة الذكر ونداء بولس فى رسالته إلى أهل غلاطية : « اطرد الجارية وابنها ، لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة . إذن أيها الإخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة »[1] .

ولا ريب فى أن ما تعانيه أمريكا اليوم من التفرقة العنصرية — وهى الدولة المسيحية اللاتينية — إنما هو وليد الإيمان بمثل هذه المبادىء التى تناقض إرادة الله القائل : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . وقـــول المسيح : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم » .

وقد كتبت جريدة الأخبار بتاريخ ٢٢ — ١ — ١٩٦٢ فى صحيفة ٦ عمود ٦ حادثاً يندى له جبين مدنية عصر الصواريخ ، هذا الحادث يتلخص فى طرد وكيل الخارجية الأمريكية من مطعم المطار لأنه زنجى .

أهذه هى المسيحية التى نادى بها المسيح ؟ إن المسيح وصى بمحبة القريب مثل محبة الله ، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر — إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، صدق رسول الله .

---

(١) غلاطية ٤ ٣٠ — ٣١ .

الباب السابع

الكتاب المقدس والعقيدة المسيحية

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »[1] .

الكتاب المقدس

١ – الكتاب المقدس والعهد القديم

(ا) نشأة اللغة العبرية :

إن اللغة العبرية لم تذكر (بالنص) فى الكتب المقدسة ، وهو مايدل على أن هذه التسمية كانت من عمل غير العبريين ، وإنما ذكرت فى سفر أشعياء ١٩: ١٨ – بلغة كنعان – مسماة باسم كنعان حفيد نوح عليه السلام . ثم أطلقوا عليها اسم اليهودية ، جاء ذلك فى سفر الملوك الثانى ١٨ : ٦ ، وسفر أشعياء ٣٦ : ١٣ .

ولقد ورد هذا الاسم (يهودى) فى سفر نحميا ، إلا أنه لم يذكر إلا بعد هجرة العشرة الأسباط – هنالك – وكان هذا النعت يطلق على اللغة والأمة أيضاً .

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

والفرق كبير بين لفظى : عبرى ، وإسرائيلى ، لأن عبرى إنما كان ينعت به الشعب قبل ظهور الأسباط فى الأيام الخالية . أما بعد ذلك فقد أصبحوا يفخرون بالإسرائيلية .

على أننا لا نجد من بين المؤرخين اليونانيين والرومان مثل بوزينوس وطسطيوس — وحتى المؤرخ الإسرائيلى يوسيفوس — من ذكر اليهود أو سماهم بالإسرائيليين ، بل كلهم يجمعون على تسميتهم بـ (العبريين) . وهذا اللفظ مأخوذ من عبر النهر كما أسلفنا ، أى (نهر الفرات) ، ثم إنهم أضافوا ياء النسبة على (عبر) فأصبح (عبريا) ، وأول من سمى بهذا الاسم عشيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام التى جاءت من شرق الفرات إلى أرض كنعان . « أبرام سكن فى أرض كنعان »[1] .

والتاريخ يجهل نشأة اللغة العبرية من عهدها الأول . وغاية ما يعرفه أنها وليدة أرض كنعان ، وأنها كانت تجرى على ألسنة قبائل الكنعانيين والفينيقيين سكان فلسطين قبل أن يسكن أبناء إبراهيم تلك البلاد .

وكنعان اسم يشمل كل عشائر الكنعانيين ، سكان فلسطين وما تاخمها من بلاد سوريا — ذلك الجزء الذى يقع على سكانه نعت الفينيقيين ، وقد وجد فى آثارهم جملة تشهد بذلك .

ومما وقع فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد : كتب ملوك الشام وفلسطين ، رسائل إلى فرعون ملك مصر بالقلم المسمارى ، باللغة البابلية وقد وجد فى ثبت هذه الرسائل ألفاظ دخيلة ليست من صميم اللغـــة فى شىء ، فقام الأستاذ

(١) تك ١٣ : ١٢ .

« جمن » بتحقيقها ، وكان أستاذا فى دار الفنون فى مدينة ليبزج ، فقال إن هذه اللغة هى اللغة العبرية القديمة ، وأجمع العلماء والمحققون على أن الشروح الموجودة فى هذه المكاتيب هى أقدم ماعرف من آثار اللغة العبريه .

بيد أن بنى إسرائيل ، لم يعرف عنهم أنهم كانوا يسكنون بلاد فلسطين فى ذلك العهد ، ولكنهم كانوا أشتاتاً فى البادية ، بين جزيرة العرب وبلاد فلسطين[1] .

(ب) تطور اللغة العبرية :

أما تاريخ اللغة العبرية فيمر بعصرين :

١ – العصر الذهبى :

ويبتدىء من أول نشأة اللغة إلى هجرة بابل ، والأسفار التى كتبت فى ذلك العهد هى :

التوراة : « سفر التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية » . ثم الأنبياء ، والمكتوبات : « يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل الأول والثانى ، والملوك الأول والثانى ، والمزامير ، وأسفار الأنبياء — يوئيل وعاموس وهوشع وأشعياء وميخا وصفنيا ، وحبقوق ونحميا وناحوم وعوبديا وإرميا وحزقيال » .

٢ — العصر الفضى :

ويبتدىء من الهجرة إلى عهد المكابيين ، أى إلى سنة ١٦٠ ق . م .

---

(١) « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » البقرة : ١٢٦ .

وفى هذا العصر جرت اللغة الآرامية مع لهجة اليهود فى أرض بابل ، ولاكتها ألسنتهم ، لسهولتها وتشابه لهجتها بلهجة اللغة العبرية ، وتجد آثار اللغة الآرامية فى أسفار عزرا ونحميا وأستير ، وأسفار الأنبياء — يونان وحجى وزكريا وملاخى ودانيال ، وأيضا فى سفر الجامعة وبعض المزامير التى أضيفت إلى مزامير داود .

(ج) اللغات السامية :

تنقسم اللغات السامية ثلاثة أقسام :

١ — اللغة العربية .

٢ — اللغة العبرية .

٣ — اللغة الآرامية أو السريانية .

١ ـ اللغة العربية :

مركزها الحد الجنوبى من منطقة اللغات السامية الأخرى ، وتنسب لها اللغة الكوشية وهى لغة أهل الحبشة ، وهى مأخوذة من لغة العرب الحميريين وسائر المخطوطات السينائية[١] .

٢ ـ اللغة العبرية :

تشبه اللغات الكنعانية والصورية[٢] .

---

(١) نسبة إلى جبل سيناء .

(٢) نسبة إلى صور عاصمة فينيقية .

٣ ـ اللغة الآرامية :

اللغة الآرامية أو السريانية هى لغة أهل الشمال والشمال الشرق ، وهى المنطقة التى أطلق عليها اسم (سوريت) ، وهذا الاسم أطلق على تلك المنطقة فى عهد الحضارة النصرانية . أما اليهود ، فيسمونها « كسديت » أو « الكلدانية » .

وسميت هذه اللغات بالسامية نسبة إلى (شم) وهو سام بن نوح ، وكانت اللغات السامية فى ذلك الوقت لغات أهالى فلسطين وفينيقيا وسوريا وبين النهرين وأرض بابل وجزيرة العرب ، أعنى المنطقة الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية حتى نهر دجلة ، والواقعة من جبال أرمينيا حتى القسم القبلى من جزيرة العرب .

(د) طريقة الكتابة :

العبرية تكتب وتقرأ من اليمين إلى اليسار كأخواتها من اللغات السامية الأخرى .

(هـ) قواعد اللغة العبرية :

انتهى عهد كتابة الكتب المقدسة وجاء عهد المفسرين الذين عالجوا تفسير وتبيين ماحوته هذه الأسفار مما استغلق فهمه على الكافة من الناس ، ثم أخذوا من بعد ذلك فى ترجمتها إلى اللغات الحية المعروفة فى البلاد التى هاجر إليها اليهود .

وأقدم الترجمات الترجمة الاسكندرونية التى بدأت فى عهـــد تلماى فيلدلفيوس للخمسة الأسفار الأولى ، أى التوراة ، وتمت بعد ذلك — وهذه الترجمة هى الترجمة اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية .

ثم ترجمت إلى اللغة الآرامية ، ثم ظهرت طائفة من علماء اليهود فوضعت الشكل .

ولما كان القرن العاشر ، بدأ اليهود فى وضع قواعد اللغة العبرية محاكاة لما كان من شأن العرب فى وضع قواعد اللغة العربية .

(و) اللغة العربية واللغة العبرية :

الرأى عند المحققين من أصحاب علم اللغات السامية أن نصف اللغة العبرية أقدم من اللغة العربية ، والنصف الآخر أحدث منها . أما النصف الذى هو أقدم فهو الخاص بترتيب الجمل ، وأما الحديث فهو ما يختص بالكلمات والأوزان . وقد كانت اللغة العربية أسرع وأنشط فى التطور من العبرية ، وأقدر على التعبير وأداء صيغ التفكير ، فأوزان الأفعال والأسماء العربية أصح وأمتن منها فى العبرية ، وكثيراً ما يشبه العبرى اللغة العربية العامية . خذ مثلا كلمة « عين » (أمثال ٢٠ : ١٢) « الأذن السامعة والعين الباصرة الرب صنعهما كلتيهما » ، فأنت تجدها فى العبرية على وتيرة واحدة « عاين » ، أما فى العربية فعين وعينا وعين ، وجمع المذكر السالم فى العبرى غالبا (يم) « بطنيم » جمع بطم ، وهى فاكهة فى فلسطين (الفستق البرى) « تكوين ٤٣ : ١١ » بخلاف العربى فإنه يجمع بالواو والنون والياء والنون .

أما الثروة اللغوية فإن العربية تفضل غيرها من اللغات السامية غنى واتساعا وطلاوة وحلاوة ، وهذا ما يفض الخلاف القائم بين اليهود والمسلمين فإن العرب يقولون : إن لغتهم أقدم اللغات ، وإن آدم كان يتكلم العربية ، وكذلك اليهود يزعمون هم أيضا هذا الزعم ، والتحقيق العلمى له الولاية والأمر[1] .

---

(١) الكنز فى قواعد اللغة العبرية — تأليف محمد بدر طبعة سنة ١٩٢٦ .

(ز) السامريون[١] :

وبهذه المناسبة يجمل أن أذكر شيئاً عن السامريين لارتباطهم الوثيق بعلاقاتهم مع الإسرائيليين .

لقد احتدم النزاع بين السامريين واليهود ، فيزعم السامريون أنهم على حق ، وأنهم أصحاب الدين الخالص ، وآيتهم على ذلك أنهم لم يهجروا بلادهم إلى بابل كما هاجر الذين يحاجونهم فى ذلك ، بل لبثوا فى أرضهم مقيمين قانتين حفظة كراما للدين .

ويقول اليهود : ليس السامريون على شىء ، وإنهم (اليهود) يعلمون ويوقنون أن أيام حافظ للدين ، فلا يمسه سوء ، لأنه الحق المبين . وإن الله كان مدركهم وهاديهم فى مهجرهم ، ثم إنهم من بعد ذلك عادوا إلى القدس بيت الله وهم على دينهم الحنيف ، قالوا : أما آباؤكم أيها السامريون فقد تزوجوا من نساء وثنيات فاختلط الدم بالدم ، واستبحتم ما حرمنا على أنفسنا ، بل لم تقف بكم الحال عند هذا الحد ، حتى جعلتم بناتكم حلا للوثنيين تصاهرونهم وتخالطونهم .

ولقد جمع السامريون من التوراة أسفار موسى الخمسة وكانت لهم هذه الأسفار بالعبرية بالخط العبرى القديم ، ورغبوا عن الخط المربع ولم يقبلوا الكتابة به قط ، وهو الذى كان يستعمله اليهود بعد هجرتهم إلى بابل .

---

(١) يوحنا ٤ : ٢٠ : « آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه » .

وقد ترجم السامريون أسفارهم الخمسة إلى اللغة الآرامية وبلهجة سامرية بعد أن شاعت اللغة الآرامية وذاعت فى بلاد فلسطين .

وأضاف السامريون على الحروف المعـــــروفة عندهم الحروف الحلقية كالمتأخرين من اليهود .

وأدخل الكتاب السامريون أوزانا وكلمات عبرية فى ترجماتهم ، وهو ما حدا بالعلماء حين قرأوا الترجمة السامرية إلى الاعتقاد بأنها خليط من العبرية والآرامية .

٢ — الكتاب المقدس والعهد الجديد

كتب العهد الجديد باللغة اليونانية ، ولكن وجدت فيه كلمات آرامية مكتوبة بحروف يونانية ، كما ظهر أن بعض الإنجيل كتب بالآرامى ، ثم نقل من الآرامية إلى اليونانية . هذا ما كان من شأن الأناجيل الأربعة : متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا .

أما رسائل بولس الرسول فقد كتبت باليونانية .

وقد ترجمت أسفار العهد الجديد إلى السريانية ، فأخذ هذه الترجمة نصارى فلسطين وسوريا واستعملوها فى كنائسهم .

وإنجيل متى ومرقس ولوقا — يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة — ذلك لأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها فى أعمدة متوازية ، والنظر إليها مجتمعة ، ولهذا يطلق عليها عبارة Synoptic Gospels وقد كتبت باللغة اليونانية الدارجة Greek Koind ، ولم تكن نماذج مصقولة فى النحو أو البلاغة .

ومن هذه المصادر كانت الترجمة الإنكليزية المشهورة والمعروفة بنسخة الملك جيمس King James, Version والتى أصبحت النسخة المعتمدة للعالم الإنكليزى ونالت هذا الامتياز بنسبتها للملك جيمس ، وهى ترجمة بعيدة كل البعد عن الدقة .

وترجع أقدم النسخ التى لدى الكنيسة من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث الميلادى . أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ ثم تعرضت بعد كتابتها لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التى ينتمى إليها الناسخ أو المطابقة لأغراضها فى المسائل اللاهوتية لأهداف خاصة ، كما تعرضت مدى قرنين من الزمان لأخطاء النقل .

والنساخ المسيحيون الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول لاينقلون شيئا قط عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم ، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ م .

(أ) انجيل مرقس :

يتفق الثقاة من العلماء النقاد على أن إنجيل مرقس أسبق الأناجيل الأربعة فى الزمن ، ويؤرخونه ما بين عامى ٦٥ ، ٧٠م ويقال إن مرقس هو الذى ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس .

(ب) انجيل متى :

تقول الرواية المأخوذ بها فى التقليد الأرثوذكسى Orthodox tradition إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيرونيوس Irenaes أنه كتب باللغة العبرية أى الآرامية ، ويبدو أن هذا الإنجيل هو مجموعه آرامية من

أقوال المسيح ، والمرجح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لأنه لم يتلق الإنجيل عن المسيح شأن الحواريين ، فاستعان بهذه الوثيقة لينقل أحيانا كلمات يسوع بنصها[1] ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية . ويميل العلماء النقاد إلى القول بأن هذا الإنجيل من تأليف أتباع متى ، وليس من أقوال العشار نفسه ، وأكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٨٥ ، ٩٠ م .

وإذ كان الغرض الذى يبتغيه متى هو هداية اليهود ، فإنه يعتمد أكثر من غيره من الحواريين على المعجزات التى تعزى إلى المسيح ، ويحرص حرصاً شديداً — يدعو إلى الريبة — على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات العهد القديم قد تحققت فى شخص المسيح .

(ج) انجيل لوقا :

والإنجيل حسب نص القديس لوقا — وهو النص الذى يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول — يعلن لوقا فيه أنه يرغب فى تنسيق الروايات السابقة عن المسيح ، والتوفيق بينها ، وأنه يهدف إلى هداية الأمم[2] لا اليهود .

---

(١) كشف جرينفل Grenfell ، وهنت Hunt فى خرائب إحدى المدن القديمة فى مصر ruins of oxyrhyrchus فى عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٣ م اثنتى عشرة بردية fragments of Iogia بها فقرات تتفق — إلى حدما — مع فقرات مماثلة لها فى الأناجيل . ولا ترجع هذه البرديات إلى ماقبل القرن الثالث الميلادى ، وقد تكون نسخا من مخطوطات أقدم منها مازالت موجودة .

(٢) اصطلاح للدلالة على الكفرة .

وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان أمميا[١] ، وأنه كان صديقا لبولس وأيضاً هو مؤلف لسفر الأعمال[٢] .

وقد اقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما سبق ، واقتبس منها القديس متى[٣] ، فإن الإنسان يستطيع أن يجد فى إنجيل متى ستمائة سند من الستمائة وواحد وستين سنداً التى يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقس ، ويجد أيضاً ثلثمائة وخمسين فى إنجيل لوقا ، تكاد تكون هى بنصها فى إنجيل مرقس[٤] .

بل أكثر من هذا نجد فى إنجيل متى كثيراً من الفقرات التى توجد فى إنجيل لوقا ، ولا توجد فى إنجيـــــل مرقس ، وهذه أيضاً تكاد تكون بنصها .

ويبدو أن لوقا قد أخذ هذه النصوص عن القديس متى ، أو أن لوقا ومتى قد أخذاها عن أصل مشترك لم نعثر عليه بعد .

ويصقل لوقا هذه النقول « الاقتباسات » الصريحة بمهارة أدبية ، تحمل رينان Renan على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من كتب .

(د) انجيل يوحنا :

والإنجيل الرابع لا يدعى أنه ترجمة لحياة يسوع ، بل هو عرض المسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية .

---

(١) اصطلاح للدلالة على الكفرة .
(٢) Josephus : Antiquities IV. 10.
(٣) Aganist Apion. p. 456.
(٤) Finkelstein L. Ak iba. 33.

وهو يناقض الأناجيل الأخرى Synoptic Gospels فى مئات من التفاصيل وفى الصورة العامة التى يرسمها عن المسيح ، وإن ما يصطبغ به الإنجيل — من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة ، وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية metaphysical ideas قد جعل الكثيرين من الباحثين فى الدين المسيحى فى شك من أن واضع الإنجيل هو الرسول يوحنا[١] ، ويرجح أن كتابة هذا الإنجيل كانت فى القرن الأول ، وأن كاتبه هو كاتب رسائل يوحنا التى تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه .

خلاصة القول :

وخلاصة القول أن ثمة تناقضاً كبيراً بين بعض الأناجيل وبعضها الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكا فى صحتها ، وفيها من القصص — الباعثة على الشبهة والريبة — ما يماثل مماثلة واضحة ما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثير من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقرير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها .

ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب — قد تعرض لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو « تصحيح وتنقيح الكتابات » .

وإن الحواريين — على ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ، ومن

---

(١) Josephus : Wars. Vol. I. P. 8. 14.

الأخذ بأفكار دينية معينة سابقة — ليسجلون كثيراً من الأحداث ، كتنافس الرسل على المنازل العليا في ملكوت الله ، وفرارهم هربا بعد القبض على يسوع ، وإنكار بطرس ، وعجز المسيح عن إتيان المعجزات في الجليل ، وإشارة بعض من سمعوا المسيح إلى ماعسى أن يكون دليلا على إصابته بالجنون ، وتشككه الأول في رسالته ، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل ، وما كان يمر به من لحظات يمتلىء قلبه فيها حقداً على أعدائه ، وصيحة اليأس التي رفع بها عقيرته وهو على الصليب بقوله : « إلهي إلهي لماذا تركتني »[١] .

وإن من يطلع على هذه الأحداث لايشك قط في أن وراءها شخصية تاريخية حقة ، هي شخصية المسيح عيسى بن مريم ، الذي تنبأ بكل هذا ، بقوله في إنجيل برنابا : « لأن الله سيصعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي . ومع ذلك فإنه حين يموت شر ميتة أمكث أنا في ذلك العار زمنا طويلا في العالم ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال عني هذه الوصمة »[٢] .

ويتنبأ بقوله في إنجيل يوحنا : « ومتى جاء المعزى — الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق — فهو يشهد لي ، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء »[٣] .

وعن تلاميذه يتنبأ في إنجيل يوحنا : « هو ذا تأتي ساعة — وقد أتت الآن — تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته ، وتتركوني وحدي ، وأنا لست وحدي لأن الآب معي »[٤] .

---

(١) متى ٢٧ : ٤٦ .
(٢) برنابا ١١٢ : ٨ — ١٨ .
(٣) يوحنا ١٥ : ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) يوحنا ١٦ : ٣٢ .

إذن الأناجيل الأربعة هي قصة حياة المسيح وتعاليمه كتبها تلاميذه وتابعوهم.

ثم سفر الأعمال الذي ألفه لوقا : « الكلام الأول[1] أنشأته ياثاوفيليس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به »[2] ، وهو تاريخ الكنيسة ونشأتها بزعامة بطرس وبولس والتلاميذ ، ثم الرسائل ومعظمها لبولس ، وهي خطاباته للكنائس التي كان يبشر فيها في أوربا وآسيا .

ثم سفر الرؤيا ، وهو سفر نبوي كتبه يوحنا بن زبدي يتنبأ فيه عن مجيء المسيح وامتلاكه للأرض مع تلاميذه الاثني عشر .

٣ — الكتاب المقدس والابوكريفا

(ا) إنجيل برنابا .

(ب) رسائل اكليمندس .

(ج) ترنيمة العذراء .

(ا) انجيل برنابا

اكتشاف الانجيل :

عثر كريمر مستشار ملك بروسيا على نسخة لإنجيل برنابا مترجمة إلى اللغة الإيطالية ، ولما لها من قيمة تاريخية أهداها إلى البرنس يوجين سافوى ، ثم انتقلت النسخة مع سائر مكتبة البرنس الزاخرة بالآثار التاريخية والكتب العلمية إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هناك حتى الآن .

وبرنابا حواري من أنصار المسيح الذين يلقبهم رجال الكنيسة بالرسل

---

(١) المقصود إنجيل لوقا : « إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا من البدء معاينين وخداما للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيليس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به » لوقا ١ : ١ — ٤ .

(٢) أع ١ : ١ .

والذى عرف التلاميذ ببولس بعد ما اهتدى بولس إلى المسيحية ورجع إلى أورشليم : « ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ ، فأخذه برنابا ، وأحضره إلى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب فى الطريق ، وأنه كلمه ، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع »[1] .

فلعل التلاميذ ما كانوا ليثقوا ببولس بعدما كان من عداوته لدينهم لولا برنابا الذى عرفه أولا وعرفهم به بعد أن وثق به .

ومع هذا فقد تنكر بولس لبرنابا ، ولم يحفظ له الجميل ، فاختلفا اختلافاً عنيفاً : « ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا لنرجع ونفتقد إخوتنا فى كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم ، فأشار برنابا أن يأخذا معهما أيضا يوحنا الذى يدعى مرقس وأما بولس فكان يستحسن أن الذى فارقهما من بمفيلية ولم يذهب معهما لا يأخذانه معهما . فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر ، وبرنابا أخذ مرقس وسافر فى البحر إلى قبرس . وأما بولس فاختار سيلا »[2] .

وانعكس هذا الافتراق فى إنجيل برنابا ، فجاء فى مقدمته أن بولس انفرد بتعليم جديد مخالف لما تلقاه عن المسيح ، ومن ذلك : « أيها الأعزاء ، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمته العظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر به الله دائما ، مجوزين كل لحم نجس ، الذى ضل فى عدادهم

---

(١) أع ٩ : ٢٦ — ٢٨ . (٢) أع ١٥ : ٢٦ — ٤٠ .

أيضا بولس، الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته وسمعته أثناء معاشرتى ليسوع، لكى تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا فى دينونة، وعليه فاحذروا كل واحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبديا »[١].

ومع مخالفة تعاليم بولس للحق انتشرت وتأصلت فى الإمبراطورية الرومانية إذ صادفت هوى فى نفوسهم وعباداتهم الوثنية التى كانوا يعتنقونها من قبل.

موقف الكنيسة من انجيل برنابا :

ولعل فى سيطرة تعاليم بولس فى الكنائس وسيطرة شخصيته على التلاميذ مادفع بعض علماء الغرب إلى القول بأن إنجيل يوحنا وإنجيل مرقس من تأليف بولس كما تحققه دائرة المعارف الفرنسية، وكما يحققه قاموس الكتاب المقدس.

ولهذه الاعتبارات أثرها فى جعل الكنيسة تستبعد إنجيل برنابا بمقتضى أمر بابوى أصدره البابا جلاسيوس فى أواخر القرن الخامس للميلاد، أى قبل بعثة الرسول سيدنا محمد ﷺ.

تاريخ كتابة انجيل برنابا :

يرجع تاريخ كتابة إنجيل برنابا باللغة الإيطالية إلى ما بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر، ومن المرجح أن النسخة الإيطالية هى عينها التى اختلسها الراهب فرامرينو من مكتبة البابا سكتس الخامس الذى عاش فى أواخر القرن السادس عشر، ولاسيما أن نوع الورق الذى سطرت عليه النسخة الإيطالية إنما هو من الورق الإيطالى المعروف بالآثار المائية التى فيه والتى يمكن اتخاذها دليلا صادقا على تاريخ النسخة الإيطالية.

---

(١) مقدمة إنجيل برنابا : ٢ — ٩ .

وإلى جانب النسخة الإيطالية ظهرت نسخة إسبانية فى أوائل القرن الثامن عشر تقع فى مائتين واثنين وعشرين فصلا ، وفى أربعمائة وعشرين صفحة ، وقد نقلها إلى اللغة الإنكليزية الدكتور منكهوس أحد أعضاء كلية الملكة فى أكسفورد ، ودفع الترجمة مع الأصل فى سنة ١٧٨٤ م إلى الدكتور هوايت أحد مشاهير الأساتذة .

البراهين القاطعة على انتشار انجيل برنابا قبل الاسلام :

إن الأمر البابوى — الذى أصدره البابا جلاسيوس الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢م — يبين أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا ، وفى هذا دليل قاطع على أن هذا الإنجيل كان موجوداً قبل ظهور الإسلام ، ومشهورا بين خاصة العلماء .

ودليل ثان هو نوع الورق الذى سطرت عليه النسخة الإيطالية ، الذى هو من الورق المعروف بالآثار المائية التى فيه ، والتى تدل على تاريخ النسخة الإيطالية مما يؤكد شيوعه .

ودليل ثالث بشأن الزمن الذى كتب فيه — ما ورد : « أجاب يسوع أنى حقا أرسلت إلى بيت إسرائيل نبى خلاص ، ولكن سيأتى بعدى مسيا[١] المرسل من الله لكل العالم الذى لأجله خلق الله العالم ، حينئذ يسجد لله فى كل العالم . وتنال الرحمة حتى أن سنة اليوبيل التى تجىء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة من كل مكان »[٢] .

ولعل هذا الدليل يشير إلى ركن من أركان الإسلام ، ألا وهو الحج .

---

(١) مسيا كلمة آرامية معناها رسول .   (٢) برنابا ٨٢ : ١٦ — ١٨ .

مخالفة انجيل برنابا للاناجيل الأربعة :

يخالف هذا الإنجيل الأناجيل الأربعة المشهورة فى عدة أمور أهمها :

١ — قوله إن يسوع أنكر ألوهيته ، وكونه ابن الله .

٢ — أن الذبيح الذى عزم إبراهيم عليه السلام على تقديمه لله إنما هو إسماعيل الابن البكر لإبراهيم لا إسحق وأن الوعد لإسماعيل .

٣ — أن مسيا ، أو المسيح المنتظر ، ليس هو يسوع بل محمد ، وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول ، وقال إن محمدا رسول الله ، وإن آدم لما طرد من الجنة رأى مسطورا فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله »[1] .

٤ — أن يسوع لم يصلب ، بل حمل إلى السماء ، وأن الذى صلب هو يهوذا الاسخريوطى الخائن مسلم سيده[2] .

التعليق :

إن مسألة محاكمة المسيح وصلبه تتناقض مع حقائق هامة فى سياق ما جاء « بالأنبياء والأناجيل » . فسرد تفاصيل لمخاوف الكهنة والكتبة من أن يسرقوا جسد المسيح من القبر — إنما هو خرافة أحاطت بسيرة المسيح فى قول الكهنة لبيلاطس : « قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى : إنى بعد ثلاثة أقوم ، فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث ، لئلا يأتى تلاميذه ويسرقوه، ويقولوا

(١) يستنكر الباحثون الغربيون الاشارة بالنبوءة الصريحة عن محمد صلى الله عليه وسلم ويتجاهلون تطبيقهم لنبوءة صريحة عن المسيح فى قول أشعياء : « ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل » أشعياء ٧ : ١٤ .

(٢) « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » النساء : ١٥٧ .

للشعب إنه قام من الأموات ، فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى . فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس ، اذهبوا واضبطوه كما تعلمون . فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر »[١] .

وهذا يناقض رعاية الله لأبنائه وأنبيائه وأصفيائه فى قصة دانيال فى جب الأسود ، وكيف حماه الله من الأسود الجائعة ، فظل بينها وكأنها تحرسه حتى خضع الملك الوثنى للقول : « يا دانيال عبد الله الحى ، هل إلهك الذى تعبده دائما قدر على أن ينجيك من الأسود ؟ فتكلم دانيال مع الملك : يأيها الملك ، عش إلى الأبد ، إلهى أرسل ملاكه ، وسد أفواه الأسود ، فلم تضرنى لأنى وجدت بريئا قدامه ، وقدامك أيها الملك أيضا »[٢] .

وما موقف الكردينال بيا — الذى يتزعم الحركة المؤيدة لإسرائيل وصاحب وثيقة « تبرئة اليهود من دم المسيح » التى نشرت تفاصيلها الأهرام فى ٢/١٠/١٩٦٤ — من هذا السند الذى جاء فى إنجيل متى ؟ أيهما أصدق : بحوثه ، أم ما جاء بإنجيل متى ؟ . . وما جاء بإنجيل متى كما يلى : « وفيما هما ذاهبتان إذا قوم من الحراس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان ، فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا ، وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين : قولوا إن تلاميذه أتوا ليلا وسرقوه ونحن نيام ، وإذا سمع ذلك عند الوالى نستعطفه ونجعلكم مطمئنين ، فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم ، فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم »[٣] .

---

(١) متى ٢٧ : ٦٢ — ٦٦ .

(٢) دانيال ٦ : ١٦ — ٢٢ .

(٣) متى ٢٨ : ١١ — ١٥ .

٤ — الكتاب المقدس والتراجم

(ا) نسخة الفولجاتا :

كان للقديس جيروم أثر ظاهر فى الحركات الإصلاحية . إذ قام بترجمة العهد القديم من اللغة العبرانية إلى اللغة اللاتينية ، وتنقيح العهد الجديد وترجمته من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية . ويعتبر هذا العمل من أكبر الأعمال الكنسية ، وتسمى هذه النسخة بالفولجاتا .

وظل يعمل فيها حتى وفاته سنة ٤٢٠م ، وقد كان الكتاب المقدس مغلقا عليه حتى عهد الإصلاح سنة ١٤١٤ م .

وهذه الترجمة قد نقحت فى سنة ١٥٩٢ ، سنة ١٩٠٧ ، وما زالت تعتبر عمدة التراجم للكنيسة الكاثوليكية ، ومنها كانت الترجمة الإنكليزية المعروفة Douai Bible .

(ب) نسخة اكسفورد :

وفى سنة ١٣٧٥ م قام جون ويكلف بترجمة الفولجاتا من اللغة اللاتينية إلى اللغة الإنكليزية ، وعاونه فى ذلك علماء جامعة أكسفورد ، وكان عمله هذا بمثابة القبس الذى أشعل النهضة الروحية السياسية التى اجتاحت أوربا فى العصور الوسطى ، حيث طالبت الشعوب المسيحية بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنكليزية ونشره لتداوله بينهم مما ،جعل الكنيسة الكاثوليكية — حرصاً منها على النسخ المقدسة — تستجيب لهذه النهضة ،فكلفت الأسقف تشالور بترجمة الكتاب إلى اللغة الإنكليزية ترجمة تتفق ومشرب الكاثوليك وتمخض الأمر عن نسخة ديوى Douai Bible

(ج) نسخة ديوى Douai Bible :

عكف الأسقف تشالور على ترجمة الكتاب المقدس من الفولجاتا من اللاتينية إلى الإنكليزية ، وذلك فى منتصف القرن السادس عشر مع بعض التغييرات الحديثة ، وهذه التغييرات — فى اعتبارهم — لم تؤثر إطلاقا فى جوهر معانى الكتاب المقدس أو مبادئه الأساسية ، وطبع العهد الجديد فى كلية ريمس سنة ١٥٨٢ ، ثم طبع العهد القديم فى كلية ديوى سنة ١٩٠٩ وهذه النسخة تشتمل على أسفار الابوكريفا ، وعلى تقديم من البابا ليوس الثالث عشر والبابا بيوس الثانى عشر مع تذييل للأسفار كلها بالتحقيق التاريخى .

(د) التراجم إلى اللغات الحية :

من هذه النسخ سواء كانت باللاتينية أو بالإنكليزية كانت التراجم إلى اللغات الحية ومنها اللغة العربية .

٥ — الكتاب المقدس والخط اللاتينى

إن اللغة اللاتينية تعرضت لتغيرات ضخمة فى مدى قرنين ونصف قرن ، وهى المدة الواقعة بين (تاكتيوس سنة ٥٥ — ١٣٠م ، وأغسطينوس سنة ٣٥٤ — ٤٣٠م) .

ذلك أن انتشار المسيحية فى الغرب خلال هذه الفترة لم ينشأ عنه إدخال ألفاظ جديدة من أصل يونانى فحسب ، بل أدى أيضا إلى استحداث كلمات جديدة وتعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التى أتت بها المسيحية .

وقد نجم عن ذلك تغيير جسيم فى اللغة اللاتينية ، ويبدو الفارق واضحا بين اللغة اللاتينية الفصحى — كما كتبها شيشرون — واللغة اللاتينية

الجديدة أو الدارجة التى استخدمها كتاب العصر المسيحى منذ عهد ترتوليان سنة ٢٠٠ فصاعدا ، وهكذا انتهى عصر البلاغة والبيان الذى كان يمتاز به الأسلوب اللاتينى .

وثمة مظهر آخر من مظاهر التأخر الذى أصاب اللغة ، وبالتالى أصاب أوربا فى ذلك العصر ، هو تدهور مستوى الخط فى الكتابة وفى المخطوطات أو الوثائق الحكومية المعاصرة . ففى العصور القديمة كانت الكتب تدون على مجاميع من أوراق البردى ، ولكنها منذ القرن الأول الميلادى أصبحت تدون على صفحات من الرقائق الجلدية مقطوعة على هيئة مربعات قائمة الزوايا أطلق عليها الكتب المربعة . ومعظم المخطوطات التى ترجع إلى العصر الميروفنجى أو العصر القوطى من هذا النوع .

أما الخط فكان على ثلاثة أحجام ، لكل حجم منها اسم خاص به وهى :

١ — الحروف الكبيرة ، وتسمى : ماجسكيل .

٢ — الحروف البوصية ، وتسمى : يونيسكيل .

٣ — الحروف الصغيرة ، وتسمى : ماينوسكيل .

ولم يلبث أن أدى انتشار الجهل إلى فساد الخط ، وتعذر قراءته ، فوقع الكتاب بذلك فى أخطاء عدة ، مما أفسد الكتابة إفساداً يبدو بوضوح فى الترجمة اللاتينية للإنجيل فى ذلك العصر[1] .

---

(١) ص ٨٠ ج ٢ من كتاب العصور الوسطى لمؤلفه ج . و . طسن المطبوع فى لندن سنة ١٩٣١ م .

٦ — الكتاب المقدس والنسخ الخطية

(ا) نسخة الاسكندرية :

وتشمل أربعة مجلدات ضخمة ، الثلاثة الأولى منها للعهد القديم ، والرابع للعهد الجديد . أجمع العلماء على كتابتها فى القرن الرابع الميلادى بمدينة الإسكندرية .

(ب) نسخة الفاتيكان :

يؤكد العلامة مونتفكون والعلامة بلانشينى أنها كتبت فى القرن الخامس ، ولا يشبهها إلا نسخة الإسكندرية ، وهى محفوظة الآن فى الفاتيكان بروما .

(ج) النسخة السينائية :

اكتشفها العلامة تشيدرف الألمانى ، وقد كتبت فى القرن الرابع ، ولهذا الكشف كرر العلامة زيارته لدير سانت كاترين بسيناء سنة ١٨٤٤ م وسنة ١٨٥٦ م ، وأخذ المخطوطات وأهداها إلى قيصر روسيا الإمبراطور اسكندر ، وما زالت إلى الآن محفوظة بمكتبة بطرسبرج ، وهناك مخطوطات أخرى فى لبسيك .

(د) النسخة السبعينية :

وهى التى استدعى لها بطليموس فيلادلفيوس سبعين من أحبار اليهود إلى مدينة الإسكندرية سنة ٢٨٠ ق . م . ليقوم كل منهم على حدة بترجمة التوراة من العبرانية إلى اليونانية ، ثم يقابلوا تراجمهم بعضها على بعض ففعلوا ذلك وأظهرت المقابلة صحة الترجمة .

(ب) العقيدة المسيحية

١ — المسيحية دين الدولة

يرجع الفضل فى انتشار المسيحية فى ربوع الإمبراطورية الرومانية إلى رحلات بولس الدعو رسولا فى آسيا وأوربا ، وإلى كتاباته التى تحتل المكانة الأولى بين كتابات الحواريين .

ويرجع الفضل فى تمكين المسيحية من الإمبراطورية الرومانية إلى اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية ، ثم اعترافه بها فى مرسوم ميلان الشهير سنة ٣٢٣م ، وبهذا وضحت معالمها ، وبرزت تعاليمها .

وهذا الانتشار أو التطور جعل المثقفين يأخذون بهذه الأمور متسائلين عن العلاقة بين الله والمسيح ، محاولين تحديد هذه العلاقة ، كما استفسروا عن طبيعة الملائكة ، وعن المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولا إلى لحم المسيح ودمه .

وسرعان ما احتلت هذه المسائل جانبا كبيراً من تفكير المسيحيين عندما غدت المسيحية دينا رسميا للدولة . وقد أدى هذا إلى تطور فى أسلوب الدراسات اللاهوتية ، وقيامها على منهاج يقتنع به المثقفون من معتنقى الديانة الجديدة . وقام بهذه المهمة مجموعة من كبار العلماء ومفكرى المسيحية الذين يطلق عليهم لقب آباء .

٢ — الآباء وتطوير المسيحية

كان هؤلاء الآبا على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية ، فأفادوا منها — ولاسيما من الآراء الأفلاطونية الجديدة — فى تأييد آرائهم ، والتدليل عليها ، وتقديم العقائد المسيحية فى صورة علمية يتقبلها المثقفون .

هذا إلى أن هؤلاء الآباء عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة

ومطالب الدولة والكنيسة من جهة أخرى ، ومن هؤلاء الآباء وأهمهم :

١ — القديس كليمنت الإسكندرى فى القرن الثالث الميلادى .

٢ — القديس جيروم حوالى (٣٣٠ — ٤٢٠ م)

٣ — « أوريجانوس « (١٨٥ — ٢٥٤ م)

٤ — « أمبروز « (٣٤٠ — ٣٩٧ م)

٥ — « أوغسطينوس « (٣٥٤ — ٤٣٠ م)

٣ — المجامع الكنسية

ترتب على الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية نتائج بعيدة الأثر فى الكنيسة ونظامها ، وكان الجهاز الذى يحكم شئون المسيحيين روحياً يطلق عليه الكنيسة الكاثوليكية (وكلمة « كاثوليك » كلمة لاتينية ، ترادف « كوزميك » اليونانية ، ومعناها الكونية) ، وكانت الكنيسة فى أيام قسطنطين كنيسة واحدة يتزعمها الإمبراطور قسطنطين ، ثم بدأ هذا الجهاز يتألف من رجال الكهنوت فحسب ، وكان صراع عنيف بين الأباطرة والباباوات حول الزعامة فى العصور الوسطى .

وقد ظهر على رأس الكنيسة بعدئذ خمسة بطاروقة فى خمس مدن رئيسية وهى :

١ — روما فى إيطاليا . ٢ — بيت المقدس فى فلسطين .

٣ — أنطاكية فى الشام . ٤ — القسطنطينية فى آسيا الصغرى .

٥ — الإسكندرية فى وادى النيل .

وهؤلاء البطارقة يمكن تشبيههم بكبار الرؤساء الإداريين فى الإمبراطورية الرومانية « كالولاة » .

وكان الجهاز الكنسى يتدرج من القمة إلى مستوى الشعب ، بأن يتبع هؤلاء البطارقه مجموعة من رؤساء الأساقفة ، وهؤلاء الرؤساء من الأساقفة يشبهون فى نظامنا السياسى المحافظين ، ويمتد نفوذ الواحد منهم إلى عدة أسقفيات ، وهذه الأسقفيات تشمل الكنائس والأديرة والمدارس والأوقاف الخـــــيرية .

وتشمل الأسقفية الواحدة عدة أبروشيات ، على كل أبروشية قسيس راع ، ويتبع الأبروشية الواحدة القساوسة المعلمون والمبشرون والشمامسة ، ثم ينتهى هذا الجهاز ببسط نفوذه إداريا وروحيا على الشعب .

وهكذا ظهر هرم كهنوتى متدرج يشبه إلى حد كبير هرم الوظائف الإدارية فى الإمبراطورية الرومانية .

وهذا الجهاز جعل من الكنيسة حكومة ثيوقراطية وراثية ، تستمد نفوذها من المسيح ، فهى بذلك تعتمد على العقيـــــدة المسيحية فى سلطانها وسيطرتها على الشعب ، من الملوك إلى المزارعين والعمال .

ونجم عن هذا الجهاز الدقيق وعن تشبث رجال الدين بمراكزهم أن كان هناك صراع من أجل النفوذ ، دفعهم إلى العمل لاستبعاد كل الشخصيات التى يتوجسون منها خيفة فى إثارة مشاكل أو منافسة على سلطان الكنيسة .

ومع هذا التشبث الدنيوى تعرضوا لأخطر مشكلة نجم عنها انقسام المسيحيين — بل الإمبراطورية الرومانية أيضا — إلى معسكرين ، وثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمان .

هذه المشكلة هى تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الآب .

المشكلة التى تعرضت لها الكنيسة :

حدث خلاف جوهرى بين اثنين من رجال الكنيسة بالإسكندرية حول تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الآب .

فقال آريوس — وهو أسقف إسكندرى — إن المنطق يحتم وجود الآب قبل الابن ، ولما كان المسيح الابن مخلوقا للإله الآب ، فهو إذن دونه ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يعادل الابن الإله الآب فى المستوى والقدرة ، وبعبارة أخرى فإن المسيح مخلوق لا إله ، بمعنى هذه الكلمة المطلق ، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة إلهين .

وقال أثناسيوس — وهو شماس إسكندرى — (لاحظ أيها القارىء التدرج الهرمى فى الوظائف الدينية) إن فكرة الثالوث المقدس تحتم أن يكون الابن مساويا للإله الآب تماما فى كل شىء ، بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه ، وإن كانا شخصين متميزين .

ويبدو أن الأثناسيوسيين أدركوا أن المسيحية تعتمد فى دعوتها على مكانة المسيح ، وأن أى اتجاه للتقليل من شأنه قد يؤدى إلى إضعاف الدعوة المسيحية .

ومن الواضح أن المذهب الآريوسى كان يتفق مع منطق المثقفين لأنه أراد أن يقيم العقائد المسيحية على أساس من المنطق والتعقل ، فى حين كان المذهب الأثناسيوسى يلائم تفكير عامة الناس من الدهماء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم .

وحسما للموقف دعا الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وفيه صدر قرار بإدانة آريوس أسقف الإسكندرية . وتوالت بعدئذ الدعوة إلى

عقد مجامع يحضرها أساقفة المعمورة ليتدارسوا فيها شئون الكنيسة ، وما يرتبط بها من نظام كهنوتي ، وعقيدة ، ولاهوت .

أشهر المجامع الكنسية :

ومن أشهر وأهم هذه المجامع — بعد مجمع نيقية آنف الذكر — المجامع الآتية:

١ — مجمع صور سنة ٣٣٤ م :

في هذا المجمع الذي عقده الإمبراطور قسطنطين صدر قرار بإلغاء قرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ، وصدر قرار بالعفو عن آريوس وأتباعه ، وبقبول تعاليمه .

وكان هذا القرار تبرئة للمسيحية من الشرك : « لقدْ كَفَرَ الذينَ قالُوا إنّ اللهَ هوَ المسيحُ بنُ مَرْيَمَ ، وقال المسيحُ يا بَنِي إسرائيلَ اعبدُوا اللهَ ربّي وربّكم ، إنّه مَن يُشركْ باللهِ فقدْ حرّمَ اللهُ عليهِ الجنة ومأواهُ النّارُ وما للظالمينَ مِنْ أنصار »[1] .

٢ — مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ م :

أصبح رابع مجمع مسكوني ديني بإغفال مجمع صور سنة ٣٣٤ م ، وفيه اتخذ قرار بأن للمسيح طبيعتين : طبيعة إلهية ، وطبيعة إنسانية ، متحدتين اتحاداً وثيقاً ، وكان هذا القرار في عهد البابا ليو الأول ، ويعرف هذا المذهب بالمذهب الملكاني .

٣ — مجمع القسطنطينية الثاني سنة ٥٥٣ م :

في هذا المجمع استصدر قرار بتأييد مذهب الطبيعة الواحدة ، وساند هذا التأييد الإمبراطور جستنيان ، إرضاء لزوجته ثيودورا وتنكيلا بالبابا فجيليوس

---

(١) المائدة : ٧٢ .

وتشجيعا ليعقوب برادعوس معتنق مذهب الطبيعة الواحدة ، ومؤسس كنيسة اليعاقبة ، وقد جاء ذكرهم بكونهم جيرانا يقيمون على مشارف الجزيرة العربية.

٤ — مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م :

وقد اتخذ هذا المجمع قراراً بإدانة مذهب الطبيعة الواحدة ، فكان هذا نقضاً لقرار سنة ٥٥٣ م .

٥ — مجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ م :

وقد اتخذ قراراً بإدانة اللا أيقونية .

٦ — مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩م :

ويعتبر هذا المجمع نقطة الانقسام الكنسى ، ففيه اتخذ قرار بإدانة البطريرك فسوتيوس وعزله . ومن هذا الوقت بدأ الانشقاق المذهبى بين الشرق والغرب وانتهى بالانقسام التام بين المسيحيين ، إذ تكون على أثره كنيستان :

كنيسة شرقية : أطلق عليها أرثوذكسية ، وتعنى مستقيمة الرأى ، وقاعدتها القسطنطينية .

وكنيسة غربية ، بقيت على اسمها كاثوليكية وقاعدتها روما .

هذا بالإضافة إلى مجمع كونستانس سنة ١٤١٤ م وسنة ١٤١٨ م ، ومجمع بازل سنة ١٤٣١ م .

وهذه المجامع دعا إليها رجال الإصلاح الكنسى ، لما رأوا عليه الكنيسة الكاثوليكية من الانحراف عن الكتاب المقدس .

وكان لهذه المجامع القوة الفعالة فى حركة لوثيروس فى أكتوبر سنة ١٥١٧م، ولوثيروس راهب كاثوليكى استنار بنور الكتاب المقدس ، فتكشف له سوء حالة الكنيسة والإكليروس وانحرافهم عن الحق ، فندد بصكوك الغفران ، وكان من الجرأة إلى حد أنه عرض حياته للحرمان الكنسى وغضبة البابا عليه، وعرّض جسده للموت حرقاً ، وكان من الجرأة أن ألصق معلقته المشهورة والمشتملة على ٩٥ بنداً كلها تنديد بالكفر والضلال .

ولم يقف البابا ليو العاشر مكتوف اليدين ، بل استصدر حكمين ضد هذا الراهب ، الحكم الأول بالحرمان من الحياة الأبدية، والحكم الثانى بإعدامه حرقاً بالنار .

وفى وسط هذه الغضبة العارمة كان الشباب الألمانى سباقاً إلى إنقاذ حياة هذا الراهب ، والإيمان بمبادئه ، والضرب بأحكام البابا ليو العاشر عرض الحائط ، وكان هذا التصرف بمثابة التفجير الذرى الذى أصاب الكنيسة الكاثوليكية بتصدع عنيف لم تسكت عليه مدى الأيام ، فوقعت الحروب الدامية والاضطهادات التى يندى لها جبين الإنسانية .

ومع هذا فقد انسلخت كنيسة ثالثة أطلق الناس عليها اسم الكنيسة البروتستانتية (أى المحتجة) ، وهكذا لم ينصرم عام ١٥٢١ م حتى كان على الأرض ثلاث كنائس كبرى :

١ — الكنيسة الكاثوليكية ، وقاعدتها روما .

٢ — « الأرثوذكسية ، وقاعدتها القسطنطينية .

٣ — « البروتستانتية ، وقاعدتها ألمانيا ، ثم انتقلت إلى انجلترا ثم إلى الولايات المتحدة .

ومع تعدد هذه الكنائس الكبرى كانت كل كنيسة منها تنقسم على نفسها إلى عدة مذاهب ، وكل مذهب له تفكيره الخاص فى الإيمان ، وكل مذهب له أنصاره .

٤ — الفلاسفة وتطوير العقيدة

١ — كليمنت الاسكندرى (١٥٠ — ٢١٥م) وأوريجانوس (١٨٥ — ٢٥٤م):

وقد تزعم هذان فلسفة مسيحية منظمة ، مقرها الإسكندرية ، واعتمدا فى طريقتهما على أسس مستقاة من الفلسفة الأفلاطونية .

وقد قال فرفريوس (٢٣٢ — ٣٠٤م) عن أوريجانوس : إنه مسيحى فى أسلوب حياته ، ولكنه يونانى فى تفكيره ومنطقه .

وقد عاش أوريجانوس فى الإسكندرية إبان نهضتها العلمية ، حيث كانت تتلاقى فيها الفلسفة اليونانية ، والمانوية ، والفيثاغورية ، والمسيحية ، فضلا عن عقائد قدماء المصريين ، والمذاهب الشرقية المستوردة من الهند وفارس والصين .

وعلى الرغم من الاعتراف بأوريجانوس أباً من الآباء — إلا أن تشبعه بالفلسفة اليونانية أدى إلى اتهامه بالهرطقة التى أدانه بها مجمع القسطنطينية فى القرن السادس .

على أن تيار الأفلاطونية استمر فى تدفقه وتأثيره فى الفكر المسيحى فى القرن الرابع ، ولم يلبث أن انتقل إلى الغرب عن طريق جريجورى أسقف نيسا سنة ٤٠٠م تقريباً ، فالقديس أمبروز أسقف ميلان سنة ٣٩٧ م تقريبا .

٢ — ديونسيوس الاريوباغى :

ظهر فى القرن الخامس الميلادى ، وكان قاضيا بمحكمة أثينا العليا ، وله

التأثير الفعال فى تدعيم الفكر المسيحى بالآراء الأفلاطونية .

ومن آثاره : « اللاهوت الصوفى » أى العلم بالله وبكل الأمور الإلهية علما ذوقيا تجريبيا .

٣ – القديس أوغسطينوس (٣٥٤ — ٤٣٠م) :

ومن آثاره أنه وضح مذهب القضاء والقدر ، ومذهب حرية الإنسان .

٤ – بيوتيوس (٤٧٥ — ٥٢٤م) :

وهو من أسرة رومانية شريفة ، تدرج فى منصب الوزارة لثيودريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا .

ومن آثاره الرسائل التى كتبها فى اللاهوت ، ولخص فيها مبادىء الثالوث، وتجسد الأقنوم الثانى ، وتتفق مبادئه مع الخطوط العريضة لعلم الأخلاق الأفلاطونى .

٥ – الصليب

« وقولهم إنّا قتلنا المسيحَ عيسى بن مريمَ رسُول اللهِ ، وما قتلُوه وما صَلبوهُ ولَكنْ شُبِّه لَهمْ ، وإنَّ الّذين اختلفُوا فيه لَفى شكٍّ منهُ ، ما لَهُم بِه مِن عِلمٍ إلاَّ اتباعَ الظنِّ وما قتلوه يَقينا ، بلْ رفعهُ اللهُ إليهِ ، وكانَ اللهُ عَزيزاً حكيماً »(١) .

(١) قصة الصليب وفلسفته :

هذه الشبهة لها ماض سحيق ، يعود إلى أيام سيدنا موسى بين بنى إسرائيل فى « برية سيناء إذ تمردوا على الله وتنكروا له ، فعاقبهم الله بالحيات والعقارب . ولما صرخوا إلى موسى يطلبون الخلاص من هذه الضربات أمره الله عز وجل

---

(١) النساء : ١٥٧ .

بأن يصنع حية نحاسية ، ويعلقها على طرف خشبة ، ويأمر التائب من بنى إسرائيل بأن يرفع وجهه لينظر إليها ، فيشفى » .

لكن الأجيال توارثتها كعقيدة بقوة الرغبة فى الخلاص فى هذه الحية النحاسية ، وضاع الحق بالباطل .

وظل بنو إسرائيل يقيمون لهذه الحية الأنصاب على المرتفعات حتى جاء حزقيا بن آحاز ملك يهوذا ، وأراد أن يعمل ما هو مستقيم أمام الله ، « فأزال المرتفعات ، وكسر التماثيل ، وقطع الصوارى ، وسحق حية النحاس التى عملها موسى ، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ، ودعوها نحشتان »[١]

هذا هو التاريخ الكتابى لإقامة الصليب بمثابة الإله ، من موسى سنة ١٤٠٠ ق . م ، إلى حزقيا سنة ٥٣٨ ق . م . وظلت هذه العبادة قائمة رغم أن الوصية الإلهية الثانية من الوصايا العشر تنهى عن هذا : « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا »[٢] .

(ب) التاريخ السياسى للصليب :

يحدثنا عنه السير آرثر فندلاى فى كتابه (الكون المنشور)[٣] صحيفة ٥٨ : « إن اكتشاف النار كان من أهم الاكتشافات التى وصل إليها الإنسان الأول فى سابق العصور . لقد وجد أنه يمكنه توليد هذه النار باحتكاك قطعتين من العصى ، ولما شاهد هذا اللهب العجيب سحر به وبهت إلى درجة أنه عبده ، ومن ثم كانت عبادة النار » .

---

(١) الملوك الثانى ١٨ : ٤ .   (٢) خروج ٢٠ : ٣ — ٤ .
(٣) ترجمة : دكتور ع . ع . راضى .

وإسرائيل الأمة الوحدة — وهى تعيش بين هؤلاء الأقوام — توارثت عنهم الكثير .

ولقد جاء ذكر العصوين بمواصفات أوحى الله بها إلى عبده موسى بقوله : « وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بنحاس . وتدخل عصوين فى الحلقات ، فتكون العصوان على جانبى المذبح حينما يحمل »[١] .

فأصبح أمر العصوين لإسرائيل مزيجا من الأمر الإلهى والعبادة الوثنية ، فالعبادة الوثنية جاءت لتقريب الإله — الذى — يتعبدون له — أن ترمز إليه بعصوين متعامدتين على شكل صليب .

وعلى هذا أصبح الصليب رمزا للحياة والتضحية منذ آلاف السنين .

وهذا الرمز وجد منقوشا على الألواح الحجرية الموضوعة فوق القبور البالغة القدم .

ولقد شغل الصليب مكانة دينية مرموقة فى مصر وفى آشور ، وفارس ، والهنـــــد .

ويقال : إن الإمبراطور قسطنطين قد اتخذه رمزاً للإيمان المسيحى نقلا من المحورين المتعامدين لمجموعة الشمسية التى كانت جيوشه قد جاءت بها من بلاد الشمال رمزاً لعبادتهم الشمس .

وعلى هذا يكون الصليب رمزاً دينيا قديما جدا ، لايمت إلى المسيحية بصلة.

ويقول السير آرثر فندلاى[٢] أيضاً فى كتابه (صخرة الحق) صحيفة ٧٢ :

---

(١) خروج ٢٧ : ٦ و ٧ .

(٢) ترجمة دكتور ع . ع . راضى .

« حتى سنة ٦٨٠م لم تكن الفكرة قد تبلورت حول الرمز الذى يعطى لصلب عيسى ، وقبل ذلك كان يرمز بحمل للمخلص مذوا ، فاستبدل عندئذ بالحمل رجل مربوط إلى صليب ، ومذرا هو المسيح المخلص للفرس سنة ٤٠٠ق .م» .

ثم يستأنف السير آرثر فندلاى[1] حديثه فى صحيفة ٤٣ من المرجع نفسه فيقول : « ولقد استخدم الصليب منذ آلاف السنين كعلامة على الحياة ، ففى مصر القديمة الفرعونية كان الصليب يستخدم كمركز للحياة ، حتى أنه وجد فى مدينة الأقصر بمصر على جدار معبد الأقصر كتابة قديمة تبشر بالأم العذراء ، والروح القدس المصرى كان يرسم قابضا على صليب أمام وجه الأم العذراء ، وفى المنظر بعد ذلك يصورونها وقد وضعت طفلا إلها ، وفى اليونان كان الصليب يستخدم كرمز للحب والتضحية ، وكذلك الأمر فى التبت والهند» .

ويسترسل السير آرثر فندلاى[2] فى كتابه (الكون المنشور) صحيفة ٧٨ فيقول : « إن قصة الصليب قيلت قبل عيسى على الستة عشر إلها مخلصا ، وقصص حياتهم على الأرض من المهد إلى اللحد ثم البعث — كلها متشابهة ، وكأن كل ديانة ترث من سابقتها » .

ونتيجة لهذا نشأت فكرة الفداء ، فأولئك الذين يعبدون الشمس كانوا يقدمون آلاف الضحايا للشمس ،وكان هذا العـــدد يتضاعف عندما يحل الكسوف ، إذ كانوا يعتقدون أن الإله الشمس غاضب ، أو أنه غير راض عن عباده ، وكانوا يعتقدون عندما ينتهى الكسوف أن السبب فى انتهائه فداء أحد زعماء النبيلة للشعب ، بتقديم نفسه ضحية ، وبهذا يعتبر ذلك الزعيم مخلصهم ومسيحهم ، ويعتبر شخصاً إلهياً ، حمل على نفسه عذاب شعبه .

(١ ، ٢) ترجمة دكتور ع . ع . راضى.

وعلى هذا المنوال أحاطت بالمسيح عليه السلام مثل هذه الضلالات ، إذ قيل : إنه قد حصل على الأرض ظلام ، «ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة »[1] .

وبذلك كان موته — كما يحققه التلمود اليهودى — على الطريقة المنصوص عليها فى التوراة ، بحيث رجم بالأحجار ، ثم علق جسده على شجرة . وأحيطت هذه الحادثة بخرافات ومعتقدات الأقدمين الذين أنشأوها رغبة فى تهدئة إلههم الشمس فى وقت الكسوف .

وليس هذا بعجيب ، فإن كهنة الهند قالوا — فى مطلع سنة ١٩٦٢ — إن القيامة لا بد أن تقوم ، وفسر علماء الفلك قولهم هذا بحقيقة وجود الشمس والقمر والأرض على خط واحد ، ولولا عناية الله وحفظه لخلقه لحل الدمار بالعالم ، باختلال الجاذبية التى تحفظ توازن كل كوكب من هذه الكواكب فى مساره ، ومع هذا حفظ الله الأجرام فى أفلاكها دون فقدان جاذبيتها التى تحفظها سابحة فى أفلاكها .

وأصبح الصليب معبود الأقدمين رمزاً لمجورين المتعامدين لمجموعة الشمسية ، وينبغى تقديم الفدية حتى لا يقع كسوف شمس كما أشرت آنفاً .

ثم أصبح الصليب فى ٦٢٢م وفى عهد الإمبراطور هرقل رمزاً للجيوش الصليبية ، وكان ذلك عند استيلاء الدولة الفارسية الساسانية على فلسطين وبيت المقدس سنة ٦١٧م ، إذ أعد الإمبراطور هرقل جيشاً صليبيا لاسترداد الصليب الأعظم من يد الدولة الساسانية الغاصبة .

ويبدو أن وجهة نظر الإمبراطور فى تعبئة جيش صليبى كانت محاولة يائسة

(١) إنجيل لوقا ٢٧ : ٤٥ .

لرد هجوم الفرس الذين لم يبقوا له من أملاكه سوى القسطنطينية ، وكانت هذه العلامة القوة الدافعة للنصر الرائع .

ثم قامت الجيوش الصليبية بتنظيم حملات صليبية ضد جيوش المسلمين من سنة ١٠٩٧ — ١٢٥٠ . هذه الحملات السبع التى انتهى أمرها بانتصار صلاح الدين الأيوبى انتصارا رائعا سنة ١١٨٧ ، واستيلائه على بيت المقدس ، وتطهيره من تلك الجيوش الباغية وبأسر لويس التاسع ملك فرنسا بالمنصورة سنة ١٢٥٠ م .

هذه هى قصة الصليب من حيث التاريخ الكتابى ، ومن حيث التاريخ السياسى .

هذه هى قصة الصليب الذى أصبح عقيدة ورمزاً للمسيحيين .

هذه هى قصة الصليب الذى مجده بولس المدعو رسولا ، وجعله موضع كرازته وتبشيره بقوله : « لأنى لم أعزم أن أعرف شيئا بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبا »(١) .

١ — الشعب اليهودى يمجد مسيح الله :

إن الشعب اليهودى ـ وهو الشعب الموحد لله ـ يخشى الله ويخشى مسيح الله ويؤيد هذا الصراع المريع بين شاول الملك فى مطاردته لداود النبى بغية قتله والتخلص منه . ويشاء الله القدير أن يقع شاول فى قبضة داود الذى هرب إلى الجبال ليحتمى من سطوة الملك وبطشه . لقد وقع شاول الملك ثلاث مرات فى قبضة داود ، وفى كل مرة كان داود يصفح عنه .

« قال أبيشاى لداود : قد حبس الله اليوم عدوك فى يدك فدعنى الآن

أضربه بالرمح إلى الأرض دفعة واحدة ولا أثنى عليه ، فقال داود لأبيشاى : لا تهلكه ، فمن الذى يمد يده إلى مسيح الرب ويتبرأ !! وقال داود : حى هو الرب ، إن الرب سوف يضربه ، أو يأتى يومه فيموت ، أو ينزل إلى الحرب ويهلك ، حاشا لى من قبل الرب أن أمد يدى إلى مسيح الرب .. فقال شاول : قد أخطأتُ »[١] .

وهذا التصرف من داود النبى ، هو التصرف السليم الذى تتحقق به إرادة الله (العفو عند المقدرة) ، والذى يقهر الخصم فيجبره على الاعتراف بخطئه كما اعترف شاول الملك بقوله لداود عليه السلام : قد أخطأتُ .

وعلى هذا نتبين أن الرسالة واحدة ، رسالة الله ، وكلمة الله هى واحدة ، والهدف واحد ، وهو الإشارة إلى ملك الكون ، الله جل جلاله ، وإنما تختلف الطريقة وتتلون الحقيقة فى أعين الناس على حسب اختلاف عقولهم وأزمانهم ، وإذا كان عيسى أو موسى أو محمد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ رسل الله يبشرون بالكلمة ، فإن الله جل جلاله من ورائهم جميعاً ، وأنبياء الله كمثل الكهرباء التى تسرى فى المصابيح الكهربائية ، فتشع بالضياء ، أو تسرى فى المحركات الآلية ، فتولد الحركة ، هذه الكلمة لا يمكن أن تسير بدون أضوائه المتلألئة فى كل سماء ، وإن كانت تحجبها أحياناً سحب من صنع البشر .

٣ — الحواريون ينظرون إلى المسيح كابن لله فكيف يتخلى عنه الله ؟

لقد ذكر الحوارى متى فى إنجيله قصة التجلى للمسيح عيسى بن مريم وهذا نصها للفائدة التاريخية : « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه ، وصعد بهم إلى جبل عال منفردين . وتغيرت هيئته قدامهم ،

---

(١) ١ صم ٢٦ : ٨ — ٢٥ .

وأضاء وجهه كالشمس . وصارت ثيابه كالنور . وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه ... وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم ، وصوت من السحابة قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت له اسمعوا ، ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدا ، فجاء يسوع ولمسهم وقال : قوموا ولا تخافوا ، فرفعوا أعينهم ولم يروا أحداً إلا يسوع وحده »[١] .

والأمر إلى هذا الحد لا يعدو أن يكون قصة جميلة ، لكن الأمر الخطير فى هذه القصة هو وصية المسيح لهؤلاء التلاميذ الثلاثة بقوله : « لا تعلموا أحدا بما رأيتم »[٢] .

ولنقابل هذه الحادثة بأخرى مماثلة مع اختلاف الحالة العاطفية من المجد إلى الموت ، ومن البهجة والسرور إلى الكآبة والحزن ، وها هى ذى القصة الثانية وقد وردت فى الأناجيل الثلاثة : إنجيل متى ٢٦ : ٣٦ ــ ٤٦ . وإنجيل مرقس ١٤ : ٣٢ ــ ٤٢ ، ثم إنجيل لوقا ٢٢ : ٣٩ ــ ٤٦ .

والقصة كما وردت فى إنجيل لوقا : « وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه تلاميذه أيضاً . ولما صار إلى المكان قال لهم صلوا لكيلا تدخلوا فى تجربة ، وانفصل عنهم نحو رمية حجر ، وجثا على ركبتيه وصلى قائلا : يا أبتاه ، إن شئت أن تجيز عنى هذه الكأس ، ولكن لتكن ، لا إرادتى ، بل إرادتك . وظهر له ملاك من السماء يقويه . وإذ كان فى جهاد كان يصلى بأشد لجاجة ، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض ، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه ، فوجدهم نياما من الحزن ، فقال لهم : لماذا أنتم نيام ؟ قوموا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة » .

---

(١) متى ١٧ : ١ — ٨ .   (٢) متى ١٧ : ٩ .

٣ — التباس الحوادث مما ينفى حادث الصلب عن المسيح :

هذه هى القصة ومنها تستخلص كينونة المسيح عيسى بن مريم كإنسان بشر ، يصلى فى جهاد ، فينزل ملاك من السماء ليقويه ويشد من أزره ثم يعود إلى تلاميذه ، فيجدهم ساعة هذه التجربة العظمى نياما

ومن هنا حدث لبس فى شخصية المصلوب .

(١) كان مع تلاميذه ساهراً يصلى ، وأولئك كانوا فى سبات عميق نائمين.

(٢) ويتقدم يهوذا الاسخريوطى الجمع الذى يريد القبض عليه وينطق المسيح بمثله المشهور : « أبقبلة تسلم ابن الإنسان ؟ »[1]. تقدم الجمع الذين جاءوا بمشاعل ومصابيح وسلاح ، ومن هذا يتبين أن الوقت كان ليلا دامساً : « جاءوا بمشاعل ومصابيح » .

(٣) وإذا كان الله قد وهبه ملكا ليقويه أثناء الصلاة أفما كان الأولى به أن يحقق قول المسيح : « لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكيلا أسلم إلى اليهود ، لكن الآن ليست مملكتى من هذا العالم »[2] .

بل أكثر من هذا يتبين ـ بقراءة النص الآتى من إنجيل متى ـ تلك الخدعة الكبرى لموضوع القيامة على أثر الخدعة الصغرى بالصليب ، وهذا هو النص : « وفى الغد الذى بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين : يا سيد ، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال ـ وهو حى ـ : إنى بعد ثلاثة أيام أقوم . فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث ، لئلا يأتى تلاميذه ليلا ويسرقوه ويقولوا للشعب : إنه قام من الأموات ، فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى . فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس ، اذهبوا واضبطوه كما تعلمون. فمضوا وضبطوا القبر بالحراس ، وختموا الحجر »[3] .

(١) يو ١٨ : ٣ . (٢) يو ١٨ : ٣٦ . (٣) متى ٢٧ : ٦٢ — ٦٦ .

هذه الفقرة يتبين منها النية المبيتة لرسول الله ، حوله تلاميذ لا حول لهم ولا قوة . حوله تلاميذ تركوه عند المحنة ، فهذا يهودا يسلمه ، وذاك بطرس ينكره ، وبقية التلاميذ قد تخلوا عنه ساعة المحاكمة إن كان حقا هو الذى حوكم . والحقيقة أنه لم يحاكم ، ولم يصلب ، ولم يرقد فى قبر ، ولم يقم من بين الأموات ، إنما كانت الواقعة تدور فى فلك يهوذا الذى أراد الله له تنكيلا ، جزاء خيانته ، ورفع نبيه إليه ، وفى هذا قال برنابا الحوارى :

« فلما كان الناس قد دعونى الله ، وابن الله ، على أنى كنت بريئا فى العالم أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا ، معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب ، لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله »[1] .

ثم نجد أن هيرودس الملك يأبى أن يقتل نبى الله بقوله : « ولما أراد أن يقتله خاف من الشعب ، لأنه كان عندهم مثل نبى »[2] ، وبيلاطس الوالى الرومانى يتبرأ من هذا الذنب العظيم بقوله : « إنى برىء من دم هذا البار ، أبصروا أنتم »[3] .

١ — أهو الله ؟ إن كان كإله خلص آخرين ، أما كان الأولى به أن يخلص نفسه[4] ؟ !

٢ — أهو نبى ومسيح الله ؟ إن الشريعة الموسوية تحرم القتل إطلاقا ، وقتل الأنبياء خاصة ، فكيف يستقيم هذا الادعاء مع كونه نبيا ؟ !

٣ — أهو إنسان مجرد من تأييد الروح القدس له ؟ وهنا يجوز أن يقتل

---

(١) إنجيل برنابا .
(٢) متى ١٤ : ٥ .
(٣) متى ٢٧ : ٢٤ .
(٤) متى ٢٧ : ٤٢

لو كانت هناك أسباب قانونية تدفع إلى القتل اقتصاصا ، والمسيح عيسى بن مريم كان رسول الله ونبيه الممسوح بالروح القدس ، الذى قال : « إن الله يقدر أن يرسل إليه جيشا من الملائكة لحمايته والله لن يتخلى عنه » . وفى حادثتى التجلى وجثيسمانى انفرد بتلاميذه على الجبل وتراءى له فى الأول أنبياء الله « إيليا وموسى » ، وفى الثانية ملائكة الله ، ولعله فى حادث القبض عليه قد ظلله الله بسحابة ، ورفعه إليه ، ولم يبق إلا يهوذا الذى شاءت العناية الإلهية أن يكون بديلا المسيح لموت اللعين . والقرآن وحده يحسم الأمر من الصلب.

٤ — موقف القرآن الكريم من الصلب :

قال تعالى : « وَمَا قَتَلُوهُ وما صَلَبُوهُ ولكنْ شُبِّه لهم . وإنَّ الَّذينَ اختلفُوا فيهِ لفى شكٍّ منهُ ، ما لهُم بِهِ منْ عِلمٍ إلا اتِّباعَ الظنِّ ، وما قَتلُوه يَقيناً . بَلْ رَفَعهُ اللهُ إليهِ ، وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً »[1] .

أيها القارىء المسلم ، يجب عليك أن تشكر الله بالغداة والعشى على ما وصلت إليه من هداية وتوفيق . وأنت أيها القارىء المسيحى لعلك اقتنعت بأنك تعيش فى طلاسم ، تشرك بربك ، وتقيم من الإنسان ندا لله ، وتجعل من هذا الإنسان كبشا للفداء لترضية الله . خبرنى بربك ، أى إله هذا الذى تعتقد أن له الملك والسلطان ترضيه هذه الذبائح ؟ أيرضيه ذبح إنسان برىء ؟ إنها المسيحية التى تطورت ، وأخذت من الوثنية الإغريقية ، والوثنية الفرعونية ، والوثنية الفارسية ، والوثنية الهندية ، إنها خليط من عقائد وثنية لحضارات أمم قد اندثرت .

---

(١) النساء : ١٥٧ .

وفى هذا الظلام الدامس — أيها المسيحى — يتألق القرآن الكريم ، ليكشف لك عن الله عز وجل فهذا هو الله الذى يخبرنا عنه الرسول فى كلمة الله ، فى القرآن الكريم :

« قُل يا عِبادىَ الَّذينَ أسْرَفوا عَلى أنفسِهِم لَا تَقْنَطُوا من رَحمةِ الله ، إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً إنَّه هُو الغفُور الرحيم[١] » .

فإذا كان النصارى يعتبرون موت المسيح عيسى بن مريم لغفران الخطايا فهذا اعتبار فيه مساس بقدرة الله ، وبذاته جل شأنه ، وفى هذا شرك بالله وضلال مبين .

ويؤكد القرآن الكريم أن الله لا تعوزه الوسيلة لتحقيق غفران الخطايا : « قل يا عِبادىَ الذينَ أسرفُوا عَلى أنفسهمْ لا تقْنَطوا مِنْ رحمةِ اللهِ . إنَّ اللهَ يَغفر الذنوبَ جَميعاً . إنَّه هُوَ الغفُورُ الرَّحيمُ » .

وبهذا استطاع أن يبرأ من كل ضلالة وفرية .

فيا أخى المسلم ، إن الإسلام دين المنطق والعقل . لم يجعل الإسلام وساطة بين الله و لإنسان ، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة بقولهم : « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماء »[٢] .

ومن هنا نشأ بالكنيسة سر يطلق عليه سر التوبة ، ويشتمل على :

١ — التوبة ٢ — الاعتراف ٣ — التأديبات الكنسية

٤ — صكوك الغفران ٥ — المطهر .

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) متى ١٦ : ١٩ .

وعلى سبيل المثال فإن نص عقيدة الاعتراف ما يلى : « الاعتراف فى اللغة هو الإقرار بالشيء والتصريح به علناً ، وفى اصطلاح الكنيسة هو إقرار الخاطىء بخطاياه — رجلا كان أم امرأة — أمام كاهن الله ، إقرارا مصحوبا بالندامة والتأسف ، والعزم الثابت على ترك الخطيئة وعدم الرجوع إليها ، لينال الحل منه بالسلطان المعطى له من الله القائل : « من غفرتم خطاياه تغفر له ، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت »[1] .

٦ — براءة الاسلام من هذه الشبهات

ويحسم القرآن الكريم هذه الفلسفات التى انبثقت منها هذه الشبهات الآتية :

١ — فى قولهم المسيح عيسى ابن مريم هو جوهر الله :

هذه الشبهة لها صلة وثيقة بالفكر اليهودى عن الله عز وجل كما يصوره العهد القديم بأن الله عز وجل مماثل للحوادث فى القول : « وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار »[2] ، « ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل . ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى »[3] ، « فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله »[4] ، « ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه »[5] ، « فنزل الرب فى السحاب . فوقف عنده هناك ونادى باسم الرب »[6] .

---

(١) يو ٢٠ : ٢٣ .
(٢) تكوين ٣ : ٨ .
(٣) خروج ١٩ : ٢٠ .
(٤) خروج ٢٠ : ٢١ .
(٥) خروج ٣٣ : ١١ .
(٦) خروج ٣٤ : ٥ .

ولعل الله سبحانه وتعالى قد بين الأمر لعباده بقوله : « فاطرُ السّموات والأرضِ جعلَ لكمُ منْ أنفسِكمُ أزواجاً ومنَ الأنعامِ أزواجاً يذرؤُكمُ فيهِ ليس كمثلِهِ شيء وهوَ السّميعُ البصيرُ »[1] .

ومع هذا فإن موسى عليه السلام أراد أن يرى الله وجها لوجه فما استطاع إلى ذلك سبيلا كما قررته التوراة فى القول : « فقال أرنى مجدك . فقال أجيز كل جودتى قدامك . وأنادى باسم الرب قدامك وأتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم . وقال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش »[2] . ومع أن موسى لم يقدر أن يرى الله كما قرره القول : « لاتقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش » ، فإن أحد الحواريين تقدم إلى المسيح عليه السلام بقوله : « يا سيد أرنا الآب وكفانا . قال له يسوع : أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفنى يا فيلبس . الذى رآنى فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب ؟ ! »[3] .

من هنا تمخضت فكرة أن المسيح هو جوهر الله . وإذا تأملنا فيما كتبه متى أحد الحواريين بقوله : « ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه وإذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة وكان هو نائما فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين : يا سيد نجنا فإننا نهلك »[4] .

والقرآن وحده الفيصل . ففى قوله عز وجل : « اللهُ لا إلـهَ إلّا هُو الحيُّ القيُّوم لا تأخذُهُ سِنةٌ ولا نومٌ لهُ ما فى السّمواتِ وما فى الأرضِ مَن ذا الذى يَشفعُ عندهُ إلّا بإذنه يعلمُ ما بينَ أيديهم وما خلفَهم ولا يُحيطونَ بشىء

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) خروج ٣٣ : ١٨ — ٢٠ .
(٣) يو ١٤ : ٨ ، ٩ .
(٤) متى ٨ : ٢٣ .

مِنْ عِلمه إلاَّ بما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ والأرضَ ولاَ يَئُودُهُ حِفْظُهما وهُو العليُّ العظيمُ »[١] .

وفى هذه الشبهة يقول الله سبحانه وتعالى وقوله الحق : « وإذْ قالَ اللهُ يا عِيسى بنَ مريمَ أأنتَ قُلتَ للنَّاس اتَّخذُونى وأُمِّىَ إلَهين من دُون الله ؟ ! قالَ سُبحانكَ ، ما يَكونُ لى أن أقولَ ما ليسَ لى بِحَقّ إنْ كُنتُ قُلتهُ فقد علمْته ، تعلَمُ ما فى نَفسى ولا أعلَمُ ما فى نفسكَ ، إنَّكَ أنتَ عَلاَّمُ الغُيوبِ . ما قلتُ لهُمْ إلا ما أمرْتنى به . أن اعبدُوا اللهَ رَبِّى وربَّكم وكُنتُ عليهمْ شَهيداً ما دُمتُ فِيهمْ ، فلمَّا توفَّيتَنى كنتَ أنتَ الرَّقيبَ عَليهمْ ، وأنتَ على كلِّ شىءٍ شَهيدٌ . إن تُعذِّبهُم فإنهم عِبادُكَ وإنْ تغفِرْ لهُم فإنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ »[٢] .

وقوله : « لقدْ كَفرَ الَّذينَ قالُوا إنَّ اللهَ هُوَ المسيحُ عيسَى بنُ مريَمَ . قُلْ فَمَنْ يَملكُ مِنَ اللهِ شَيئاً إنْ أرَادَ أن يُهلِكَ المسيحَ بنَ مَريمَ وأمَّه ومَنْ فِى الأرضِ جَمِيعاً وللهِ مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بَينهمَا يخلُق ما يَشاءُ واللهُ عَلى كلِّ شىءٍ قَديرٌ »[٣] .

ومن عجب أن كبير الحواريين ينفى عن المسيح شبهة كونه جوهر الله بقوله : « يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة . الذى جال يصنع خيرا ويشفى جميع المتسلط عليهم إبليس لأن الله كان معه »[٤] .

٢ — وفى قولهم إن المسيح عيسى بن مريم ابن الله :

وردت هذه الشبهة على لسان بطرس أحد الحواريين ، وفيها انبثق التعليم

---

(١) البقرة : ٢٥٤ .
(٢) المائدة ١١٦ — ١١٨ .
(٣) المائدة : ١٧ .
(٤) أعمال الرسل ١٠ : ٣٨ .

الكنسى بحق منح الغفران أو حرمانه عن عباد الله للكهنة فحسب ، ففى القول الوارد بإسان متى : « فأجاب سمعان بطرس وقال : أنت هو المسيح ابن الله الحى . . . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات »[١] . أما مرقس أحد التلاميذ السبعين فإنه يقرر هذه الحقيقة بلا شبهة فيها يقول بطرس : « فأجاب بطرس وقال له : أنت المسيح »[٢] .

ثم يقف المسيح من هذه الشبهة بقوله قولا يجعل من الابن شخصية تتميز فى جوهرها عن الروح القدس بحيث يفهم الإنسان أنهما شخصيتان متباينتان فى قوله : « وكل من قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له . وأما من جدف على الروح القدس فلا يغفر له »[٣] ، بل يؤكد المسيح هذه النظرية بقوله : « قال لها يسوع : لا تلمسينى لأنى لم أصعد إلى أبى . ولكن اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم »[٤] . فهذا المجاز لم يقصد منه أن المسيح ابن الله إطلاقا . ومع هذا فالقرآن وحده الفيصل فى هذه الشبهة بقوله تعالى : « وقالُوا اتّخذَ اللهُ ولداً بَلْ لهُ ما فى السَّموات والأرضِ كلٌّ لهُ قانتُونَ »[٥] . وقوله تعالى : « قُلْ هوَ اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصَّمدُ ، لمْ يلِد ولمْ يُولد ، ولمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أحَدٌ »[٦] .

ومع هذا فإن الشريعة الموسوية صارمة ، فهى تطبق تطبيقا حرفيا بلا تأويل أو تخريج يخرجها عن حقيقة بغيتها . وفى نظر الشريعة الموسوية الإنسان الذى يجعل من نفسه ابنا لله يكون مجدفا وينطبق عليه حكم الرجم . ولهذا قال

(١) متى ١٦ : ١٣ — ٢٣ .
(٢) ٨ : ٢٧ — ٢٩ .
(٣) لوقا ١٢ : ١٠ .
(٤) يوحنا ٢٠ : ١٧ .
(٥) البقرة : ١١٦ .
(٦) سورة الاخلاص .

بيلاطس : « خذوه أنتم واصلبوه لأنى لست أجد علة عليه . أجابه اليهود : لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله »[١] .

ومع أن صرختهم كانت تدوى بإعدام شبيه المسيح ، إلا أن الجريمة فى حد ذاتها لم تكن لتثير بيلاطس الحاكم الرومانى ليصدر أمره بإعدام شبيه المسيح . حتى تصايح اليهود قائلين : « إن أطلقت هذا فلست محبا لقيصر . كل من يجعل نفسه ملكا يقاوم قيصر »[٢] .

وهنا خشى بيلاطس على أمن الإمبراطورية الرومانية وتأكيدا لحكمه أن يكون صادرا على حيثيات لا علاقة لها بالشئون الدينية فى كون المسيح ابن الله ، حيث أن هذا الاعتبار من صميم حقوق الكهنة فى تطبيق شريعة موسى وتنفيذ الإعدام بالرجم ، بل حيثيات تعرض أمن الإمبراطورية للانهيار ، فأراد أن يتأكد أن الشخص الذى سيصدر حكم الصلب عليه علته هى كونه ملك إسرائيل إذ قال لهم : « هو ذا ملككم . فصرخوا : خذه اصلبه ، قال لهم بيلاطس : أأصلب ملككم ؟ أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر ، فحينئذ أسلمه إليهم ليصلب . . . وكتب بيلاطس عنوانا ووضعه على الصليب وكان مكتوبا يسوع الناصرى ملك اليهود »[٣] . فما رأى أهل الكتاب إذن ؟ وفى هذا ينتفى القول بأن المسيح ابن الله ، وما هو إلا إنسان وعبد لله .

٣ — وفى قولهم إن المسيح عيسى بن مريم اقنوم من الأقاليم الثلاثة :

مع أن حادثة الصلب حقيقة تاريخية ، ومع أن الذى صلب كما حققه برنابا أحد الحواريين شبيه المسيح وليس المسيح ذاته ، فإن مؤامرة القبض على المسيح وهو نبى الله كما أقر عن نفسه بقوله : « ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته »[٤] .

---

(١) يوحنا ١٩ : ٦ ، ٧ . (٢) يوحنا ١٩ : ١٢ .
(٣) يوحنا ١٩ : ١٤ — ١٩ . (٤) متى ١٣ : ٥٧ .

وما جبل عليه الإسرائيليون من مناوأتهم للأنبياء كما أقره وسجله عليهم بقوله : « ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم . إذا تشهدون وترضون بأعمال آبائكم لأنهم هم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم لذلك أيضا قلت حكمة الله إنى أرسل إليهم أنبياء ورسلا فيقتلون منهم ويطردون لكى يطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ إنشاء العالم . من دم هابيل إلى دم زكريا الذى أهلك بين المذبح والبيت »[1] .

وقد سبق أن تحدث نبى العهد القديم إيليا عن شراسة إسرائيل وبغضهم للحق وسعيهم للباطل وقتلهم للأنبياء بقوله : « غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها »[2] .

وعلى هذا فقد رأى رئيس الكهنة «أن يموت واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها »[3] . ومع هذا فإن المصلوب على الصليب قد صرخ صرخة داوية قائلا : « إلهى إلهى لماذا تركتنى »[4] ثم يستسلم المصلوب على الصليب بقوله : « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى . ولما قال هذا أسلم الروح »[5] .

وعلى هذا القياس فهناك شخصيات متباينة كل التباين فكيف بهم يقسمون الواحد إلى ثلاثة ثم يجمعون الثلاثة فى واحد ؟ ! والقرآن وحده يفرق

---

(١) لوقا ١١ : ٤٧ — ٥٢ مع ملاحظة أن السيد المسيح وهو النبى المرسل من الله قد قرر فى سجل شهداء الأنبياء من دم هابيل إلى دم زكريا ولم يوجه الأمر إلى أنه سيموت شهيدا بالصليب مع أنه تنبأ بقوله : « ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله» يوحنا ٨ : ٤٠ .

(٢) ملوك أول ١٩ : ١٤ .　　(٣) يوحنا ١١ : ٥٠ .

(٤) متى ٢٧ : ٤٦ .　　(٥) لوقا ٢٣ : ٤٦ .

بين الباطل والحق بقوله تعالى : « يا أهلَ الـكِتاب لا تَغلُوا فى دينكم ولا تقُولوا على اللهِ إلا الحَقَّ إنَّما المسيحُ عيسى بنُ مَرْيَمَ رَسولُ اللهِ وكلِمتُه ألقاها إلى مَرْيمَ ورُوحٌ منه . فآمنُوا باللهِ ورسُلِه ولا تقُولوا ثلاثةٌ . انتهُوا خيراً لـكمُ . إنما اللهُ إلَهٌ واحدٌ سُبحانهُ أن يـكون له ولدٌ . لهُ ما فى السَّموات وما فى الأرضِ . وكَـفى باللهِ وكيلاً »[١] .

وقوله : « لَقدْ كَـفرَ الَّذين قالُوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ ، وما مِن إلهٍ إلاَّ إلهٌ واحدٌ ، وإن لم يَنتهُوا عمَّا يَقولُون ليمَسَّنَّ الذينَ كفَرُوا مِنهم عذابٌ أليمٌ »[٢] .

---

(١) النساء : ١٧١ . (٢) المائدة : ٧٣ .

الباب الثامن

العالم قبل بزوغ الإسلام

« هُوَ الذى أرسَلَ رسُولهُ بالهُدَى ودِينِ
الحَقِّ ليُظهِرَه عَلى الدّينِ كلّه ولَوْ كَرِهَ
المُشرِكُونَ »[1] .

صارت الكنيسة ــ منذ أن أصبحت هيئة رسمية ــ على نهج النظام الإدارى الإمبراطورى ، وتطلب هذا النهج قيام شخصية عظيمة على رأسها ، تعادل فى الزعامة والقوة ما للإمبراطور على الإمبراطورية الرومانية بأسرها . ولعلنا نلاحظ فارقاً واضحاً بين الشرق والغرب ، فنى الشرق تزعم الأباطرة الكنيسة منذ عهد الإمبراطور قسطنطين حتى غدوا يمثلون القيصرية البابوية .

ومن الواضح أن الإمبراطور قسطنطين وضع أساس هذه السياسة عندما شد من أزر المسيحية ، واعترف بها ديناً رسمياً للدولة ، وشيد القسطنطينية قاعدة الإمبراطورية الرومانية « قيصرية بابوية » .

وكان للإمبراطور الحق فى دعوة المجامع الدينية لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية .

أما فى الغرب فإن الوضع يختلف عن ذلك كثيراً ، لأن الإمبراطورية الغربية أصبحت ــ بعد تقسيم العالم الرومانى إلى رومانى شرقى أو بيزنطى ، ورومانى

---

(١) الصف : ٩ .

غربى — ضعيفة ، لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعاً كما حدث فى الشرق .

ولكنها سرعان ماوجدت ضالتها المنشودة فى شخص أسقف روما الذى تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة فى مختلف أنحاء العالم الغربى . وترجع أسباب ازدهار روما إلى أهمية المدينة ذاتها ، فاستغل أساقفة روما هذه الأهمية والمكانة ، لتحقيق نوع من السمو والزعامة على باقى أسقفيات الغرب .

وكان التنافس على أشده بين القسطنطينية وروما ، فاستندت القسطنطينية على أنها قاعدة الإمبراطورية السياسية ، ومقر إقامة الأباطرة . واعتمدت روما على تشريف خليفة المسيح عيسى بن مريم ، وهو بطرس الحوارى ، ومكانة بطرس فى الكنيسة مكانة الصخرة التى بها يدعم الإيمان المسيحى ، لهذا قال عنه المسيح : « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابن كنيستى » ، وبالإضافة إلى هذا خول له المسيح حق الحل والربط ، إذ أعطاه مفاتيح ملكوت السموات . وفى إنجيل متى : « وأنا أقول لك أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابن كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماء »[١] .

وإذا كان هذا التشريف لبطرس زعيم الحواريين ومقدم الرسل — فإن خلفاءه أساقفة روما أحق الناس بأن يرثوا عنه زعامة العالم .

والواقع أننا لم نعرف من أساقفة روما فى القرن الرابع وبعد عصر قسطنطين إلا نفرا ارتبطت أسماؤهم بحوادث جسام ، ومن هؤلاء البابا داماسوس

(١) متى ١٦ : ١٨ — ١٩ .

٣٣٦ — ٣٨٤ م الذى كتب مؤلفا استعرض فيه مكانة كرسى روما الأسقفى ، وأكد سيادة البابوية وسموها ، كما أنه عهد إلى القديس جيروم بترجمة الإنجيل إلى اللاتينية .

أما خليفته البابا سيركيوس ٣٨٤ — ٣٩٩ م فترجع إليه أولى المراسيم البابوية من عهده ، التى تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها .

وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الأول ٤٤٠ — ٤٦١ م الذى تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية فى الغرب .

وفى سنة ٤٥٥ م أصدر الإمبراطور فالنشيان الثالث إمبراطور الغرب مرسوما إمبراطوريا يقضى بخضوع جميع أساقفة الغرب للكرسى البابوى

وهكذا ازدهرت البابوية حتى وصل نفوذها السياسى والدينى إلى القمة فى عهد البابا جريجورى الأول ٥٩٠ — ٦٠٤ م .

من هذا نجد أن الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة ، والدولة والمجتمع من جهة أخرى ، ذلك أن الإمبراطورية الرومانية كان لها دين رسمى وكهنة يتمتعون بمساندة الحكومة وتأييدها . ولكن رجال الدين فى العصر الوثنى لم يحاولوا التدخل فى شئون السلطة الزمنية مطلقا ، على عكس الكنيسة التى أخذت تكتسب شيئاً فشيئا سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية ، مما أوجد نفوراً بين السلطتين الزمنية والروحية .

ونلاحظ أيضاً أن تدخل الكنيسة فى شئون السلطة الزمنية يمتد ويشتد بقوة تبعا لازدياد ضعف الإمبراطورية الرومانية ، الذى أدى فى النهاية إلى بسط سلطان الكنيسة المطلق وإحلالها محل الأباطرة فى تصريف شئون الدولة .

وهكذا أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الإدارى فى أقاليم الإمبراطورية الرومانية ، فضلا عن قيامهم بمهام التنظيم الكنسى .

ولقد كانت هناك مساجلات بين الأباطرة والباباوات ، نذكر منها مساجلة بين فردريك والبابا أدريان الرابع ، إذ قال فردريك رداً على رسالة البابا : « إننا نتسلم الإمبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء ، وإن شريعة الله تقتضى أن يكون حكم العالم بواسطة سيد الإمبراطورية والبابوية ، كما قضت تعاليم القديس بطرس بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله وأن يحترموا الملك ، وعلى هذا يعتبر كل من يقول بأننا تسلمنا التاج الإمبراطورى إقطاعا من البابا ملحداً باطل العقيدة ، لأنه يخالف أوامر الله وتعاليم القديس بطرس » .

وبهذا استطاع فردريك أن يجعل من نفسه السيد العظيم خليفة قيصر روسيا ١١٥٢ — ١١٩٠ م .

وقال جريجورى السابع — لذى تولى منصب البابوية سنة ١٠٧٣ م — بشأن الكرسى البابوى : « إن قوة الملوك مستمدة من كبرياء البشر ، وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله ، إن البابا سيد الأباطرة ، لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس » .

على أن هناك مشكلة دينية كبرى ظهرت فى ذلك العصر وامتد أثرها عدة قرون فى تاريخ غرب أوروبا ، فضلا عن شرقها ، وهذه المشكلة قامت حول عبادة الصور والأيقونات(١) ومهما كان الأمر فإنه يبدو أن عبادة الأيقونات انتشرت انتشاراً سريعاً واسعاً فى القرن الثامن ، مما نشأ عنه صراع مستمر بين الأباطرة والبابوية وتطلب من الإمبراطور الأيسورى ليو الثالث

---

(١) موسوعة كامبردج لتاريخ العصور الوسطى - مجلد ٤ صحيفة ٦ .

علاجا سريعا لهذه المشكلة ، بل هناك رأى يقول : إن الإمبراطور ليو استغل هذه المشكلة للقضاء على نفوذ الأديرة اليونانية بعد أن تضخمت ثروتها ، وتضاعفت ممتلكاتها المعفاة من الضرائب ، وازدادت حقوقها وامتيازاتها ومسموحاتها ، مما جعلها خطرا على الدولة[١] .

والغريب أن إثارة الحرب على الأيقونية بدأت فى الدولة الإسلامية عندما أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ بإزالة جميع الأيقونات من الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية[٢] ، ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى الدولة البيزنطية ، فبدأ ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها سنة ٧٢٦ . وهنا لا نستطيع أن نجد تفسيرا لقوة الحركة اللا أيقونية فى الشرق وضعفها فى الغرب إلا أثر العقيدة الإسلامية التى قاومت الأصنام وعبادتها ، فضلا عن تأثير اليهود الذين حرموا عبادة الصور وتقديسها[٣] .

كان المرسوم الذى أصدره ليو الثالث سنة ٧٢٦ بتحريم عبادة الأيقونات حازما وشديدا ، إذ قضى بإزالة جميع التماثيل والصور الدينية من الكنائس والأديرة ، وبدأ المواطنون فعلا فى إزالة الصليب الكبير المقام فوق بوابة القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية ، ولم تلبث هذه الأعمال أن استفزت رجال الكنيسة لاسيما فى الغرب حيث وقف البابا جريجورى الثانى ثم البابا جريجورى الثالث موقفا عنيدا من سياسة الإمبراطور اللا أيقونية حتى أصدر البـــابا جريجورى الثالث قراراً بحرمان الإمبراطور من رعوية الكنيسة سنة ٧٣١ م[٤] .

---

(١) تاريخ العصور الوسطى لمؤلفه ج . و . طمسون — مجلد ١ صحيفة ١٤٤ .
(٢) تاريخ الدولة البيزنطية لمؤلفه ج . أوستروجورسكى — صحيفة ١٤٣ .
(٣) تاريخ الامبراطورية البيزنطيه لمؤلفه أ.أ. فازيليف — مجلد ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
(٤) تاريخ العصور الوسطى لمؤلفه ج . و . طمسون — ص ١٤٤ ج ١ .

ويهمنا فى هذا المقام أن النزاع اللا أيقونى كان له أثره الخطير فى إيطاليا والبابوية وعلاقتهما بالدولة البيزنطية ، ذلك أن أواسط إيطاليا وروما ورافنا وقفت جميعا إلى جانب البابوية فى المعسكر الأيقونى ، على حين كانت صقلية وجنوب إيطاليا فى جانب الإمبراطور اللا أيقونى[١] .

وقد رد الإمبراطور ليو الثالث على قرار البابا بالحرمان من الكنيسة بأن حرم البابوية من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب إيطاليا وفصل الكراسى الأسقفية فى هذه الجهات عن سلطان البابا الدينى والقضائى ، وجعلها تحت نفوذ وسلطان بطريق القسطنطينية[٢] .

وهكذا جاء النزاع اللا أيقونى ليزيد من حدة الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، مما كان له أثر واضح فى مستقبل الحوادث التاريخية[٣] .

ولقد خلف الإمبراطور ليو الثالث ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) الذى وجد أن طريقة العنف وحدها غير كافية لتحقيق سياسته اللا أيقونية وأن كثيراً من الناس استمروا يباشرون عبادة الصور والأيقونات الدينية سراً ، ولهذا لجأ إلى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية سنة ٧٥٣ ، ٧٥٤ م لتأييد سياسته العدائية للبابا وللأيقونية[٤] . وكان أن قرر هذا المجمع تحريم تصوير المسيح بأى شكل من الأشكال لأن هذه الصور والتماثيل تعبر عن طبيعته الإنسانية والإلهية فى طابع مجسد بشرى ، وبذلك تطمس صفته الإلهية .

---

(١) موسوعة كامبردج لتاريخ العصور الوسطى ، ص ١٠ ج ٤ .
(٢) العالم الشرقى لمؤلفيه س . دايهل ، ج . ماركياس ص ٢٦٧ .
(٣) تاريخ نهاية العالم القديم لمؤلفه ف . لوط ص ٣٠١ .
(٤) موسوعة كامبردج لتاريخ العصور الوسطى ص ١٣ ، ١٤ ج ٤ .

أما صور القديسين فقد حرم المجمع عبادتها هى الأخرى بدعوى أن هذه العبادة ضرب من الوثنية وعبادة البشر[١] .

وهكذا اتخذ قسطنطين من قرارات مجمع القسطنطينية سلاحا قويا ساعده على التطرف فى اضطهاد الأيقونيين والتنكيل بالديريين بوصفهم أشد أنصار الأيقونية ، بل إنه عمـــد إلى هدم الحياة الديرية فى بلاده بمختلف الطرق والوسائل وإن لم يتمكن من تحقيق هدفه[٢] .

على أن هذا المجمع لم يكن مسكونيا إلا من الناحية الاسمية فقط لأن البابوية ردت على الدعوة لحضور هذا المجمع بإنزال اللعنة على كل من يحضره . وامتنع عن حضوره بطاركة أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية — الذين كانوا فى حماية المسلمين — وبذلك لم يحضر المجمع سوى ثلاثمائة وأربعين أسقفا تقريبا برئاسة بطريرك القسطنطينية[٣] .

هذا هو الصراع بين الأباطرة والبابوية ، يشتد بقوة نفوذ الأباطرة ، ويضعف بضعف نفوذهم ، حتى آلت القوة نهائيا إلى البابوية التى استطاعت أن تفرض سيطرتها على الشعوب فى شئونهم الدينية والدنيوية .

ولعل أقوى دليل على هذا هو المجموعة التى تنسب إلى البابا جريجورى السابع ١٠٧٣ — ١٠٨٥ م وتعرف باسم الإرادة البابوية .

وأهم موادها :

١ — البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية .

---

(١) تاريخ الامبراطورية البيزنطية لمؤلفه آ . أ . فازيليف ص ٣٤٥ .

(٢) العصور المظلمة لمؤلفه عمان ، صحائف ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٣) العالم الشرقى لمؤلفيه س . دايهل ، ج ماركياس ص ٢٧١ .

٢ — البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم .

٣ — جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده .

٤ — للبابا وحده الحق فى عزل الأباطرة .

٥ — لا يجوز عقد أى مجمع دينى عام إلا بأمر البابا .

٦ — ليس لأى فرد أن يلغى قراراً بابويا ، ومن حق البابا وحده أن يلغى قرارات سائر الناس .

٧ — لا يسأل البابا عما يفعل ، ولا يحاكم على تصرفاته .

٨ — للبابا وحده أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وأيمان الولاء التى أقسموها لحكامهم[١] .

وهكذا كان الصراع بين الأباطرة والبابوية صراعا مريرا على حساب الكنيسة وحدها .

وهكذا أيضا يبدو من هذه الإرادة البابوية أن البابوية آمنت إيمانا قويا بأن البابا له السلطة فى حكم المجتمع المسيحى ، وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائبا عن القديس بطرس .

ولهذا وجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى المنعقد سنة ١٠٧٥ م نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلمانى هذا نصه :

« إن أى فرد من الآن فصاعدا يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين يعتبر مطرودا من هذه الوظيفة ومحروما من الكنيسة ، ومن رعاية القديس بطرس ، وإذا جرؤ إمبراطور أو ملك أو دوق أو كونت

---

(١) تاريخ العصور الوسطى لمؤلفه ج . و . طمسون ـ مجلد أول ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

أو أى شخص علمانى على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فإنه يحرم من الكنيسة فوراً »[١] .

هذه هى المسيحية وتدخلها فى الشئون السياسية بالإضافة إلى نفوذها البعيد المدى فى الأمور الكنسية والنظم الكنسية التى تمخضت عن الأسرار السبعة التى يدين لها بالولاء والخضوع كل مسيحى . وهذه الأسرار — من قبيل العلم بالأمر — هى :

١ — سر المعمودية (التنصير) . ٢ — سر الميرون (المسحة المقدسة) .
٣ — سر الأفخارستيا (العشاء الربانى)
٤ — سر التوبة (الاعتراف) . ٥ — سر مسحة المرضى .
٦ — سر الزيجة . ٧ — سر الكهنوت .

وقد اعتبرت الكنيسة التقليدية (الكاثوليك والأرثوذكس) منذ بداءتها هذه الأسرار السبعة . ولم يستبعدها ، وينكرها سوى البروتستانت الذين انشقوا على الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر ، ولم يحصل بينهم اتفاق على عدد الأسرار ، وارتأى أتباع الكنيسة البروتستانتية أنه لا يوجد إلا سران فقط وهما المعمودية والعشاء الربانى ، وحجتهم فى ذلك أن الكتاب المقدس لم يذكر أن الأسرار الكنسية سبعة إطلاقا .

ولسنا فى صدد تفنيد عقيدة ، بل بصدد مجرد التمثيل للوقوف على شىء من التعاليم الكنسية التى تقدس كتقديس كلمة الكتاب المقدس .

وامتد النفوذ المسيحى وهيمن على أمور أخرى منها العلم ، مما أدى إلى

(١) Fliche : L'Europe Occidentole P. 367.

تحديد مجال الدراسات العلمية ، لأن العقيدة المسيحية — كما قال المعاصرون — تقوم على أساس الإيمان ، فى حين يعتمد العلم على العقل والمنطق .

ويكفى أن يطلع المرء على كتابات مفكرى العصور الوسطى مثل القديس أوغسطينوس ليدرك مدى التأخر العلمى الذى كانت عليه بلاد الغرب المسيحية.

هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه النـــاس إلى الحياة الباطنية « الجوانية » أعمى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعى المحيط بهم ، فالقديس أوغسطينوس سنة ٣٥٤ — ٤٣٠ م يبدى دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيدا إلى التأمل فى ارتفاع الجبال ، أو دراسة مدارات الفلك والكواكب ، ويهملون التأمل فى أنفسهم ، بل إن القديس أوغسطينوس نفسه يهزأ من فكرة كون الأرض كروية ، تلك النظرية التى عرفها اليونان قبل ذلك بقرون ، ويصرح بأن فكرة نصف الكرة الشمالى يقابله نصف الكرة الجنوبى ، وأن عليهما مخلوقات خلقها القدير لتدب عليهما — إنما هى فكرة باطلة هرطقية .

وإلى جانب هذا الانحطاط فى التفكير العلمى انتشرت الاعتقاد بالخرافات والمعجزات بين أهالى أوروبا الوسطى حتى قضت هذه الشعوذة والأباطيل على البقية الباقية من المعرفة العلمية .

ويقول إميل لودفيج : « انتشرت الرهبانية ووجدت بيئة خصبة فى مصر ، والواقع أن الألوف من أولئك المصريين كانوا من الفلاحين ، وليس من المحتمل أن ينتحل الرهبانية ملايين الفلاحين مع استمرارهم على زرع حقول أجدادهم ، وقد عانى الفلاحون طائفة من المكاره مدة ثلاثه آلاف سنة من عهد الفراعنة ، ومدة سبعمائة سنة من السلطان الأجنبى ، والمرة الأولى يقول

أناس من أقوياء الإيمان للعبيد المضطهدين على ضفاف النيل ما ليس لديهم عنه فكر مبهم ، يقولون لهم إن الإنسان فى الحياة الآخرة يحاكم على مقياس آخر فتتوقف سلامته على طهارة قلبه ، لا على أبهة ضريحه .

« وتعلن هذه البشرى السارة بلغة الفلاح لأول مرة ، وكان الفلاح كارها لإغريقية أفلاطون (أنصار الأفلاطونية الجديدة) وللاتينية عباد جوبيتر كابيتو لينوس . . .

« ويظهر كهنة إيزيس عزلا ، ويمكن الفقراء أن يشعلوا ثورة كالتى وقعت منذ ثلاثة آلاف سنة ، ويتصرفون فى الأمر ببراعة فيوجهون الجموع ضد الأجنبى ، ويعد الأغارقة والرومان من عبدة الأصنام للمرة الأولى لا من قبل النصارى ، بل من قبل أتباع الدور القديم بمصر .

« وظاهرة ما بعد ذلك الحين هى اختلاط الأديان ، لا اختلاط الشعوب واللغات وحده ، واذهب إلى جزيرة بلاق الصغيرة التى يطاف حولها فى نصف ساعة ، تر أنه كان يقام فى وقت واحد من كل يوم بشعائر يسوع وإيزيس ، وينقلب معبد الملكة حتشبسوت المأتمى إلى مصح يونانى ثم إلى دير نصرانى ، واذهب إلى شواطىء بحيرة مريوط تر زمرة يهودية كانت تحتفل فى كل خمسين يوما بعيد مشتق من أسطورة للإسكندر حولتها البدهية (البوذية) ، واذهب إلى معبد الكرنك تر أنه استعمل كنيسة ، ويجعل النصارى الجدد بإدفو القديس أبولون من خليفة هوروس . . .

« ويستمع الفلاح المصرى إلى هؤلاء الرهبان الذين كانوا يقولون إن يسوع الإله ذا الهالة ليس غير أوزيريس المحول .

« ويعترف بالنصرانية فى القرن الرابع فيفوق نصارى مصر مضطهديهم عنفا ، ويظهر من هؤلاء النصارى أناس بلغوا من التعصب ما يهدمون به المعابد والكتابات والتماثيل والصور الجدارية التى لم يمسها أى شعب أجنبى فى ألوف السنين ، ويقتل من يزعم أنهم وثنيون بالمئات ، وتقطع تلميذة أفلاطون الحسناء ومعلمة علم الفلك فى الجامعة ، هيباتيه ، إربا إربا وتحرق كصنيعة للشيطان ، ولما نهب معبد السرابيوم من غير أن تنزل صاعقة على الهدامين ، كان ذلك خاتمة لأحد وجوه العالم القديم »[1] .

ومما زاد الأمر سوءا أن أوربا فى العصور الوسطى — وهى تعيش فى ظلمات بعضها فوق بعض — تورث العالم المخطوطات القديمة ، ومنها النسخ القديمة للكتاب المقدس ، هذه الثروة الهائلة ورثها العالم من تلك الأجيال التى تفشى فيها الجهل ، ورداءة الخط وانحطاط اللغة . والإيمان بالخرافات والمعجزات .

فكيف للجيل الذى بلغ فى مدى تفكيره الحر الطليق أن يصل إلى التفكير فى الدوران حول الأرض ، وإصابة العدو على بعد مئات الأميال من قاعدة الصواريخ دون أن تتحرك قوة الدولة المحاربة وأخيراً إلى القمر . . .

كيف لهذا الجيل أن يتقبل مثل هذه المخطوطات ، ويستند إليها ، ويعتمد على صحتها ؟ ! إننى أرى المنطق يقول : كيف نؤمن بتراث موروث من عهد تفشى فيه الجهل ، ورداءة الخط وانحطاط اللغة وهيمنة الكنيسة على الشئون الزمنية والدينية ، وتفشى المعتقدات الباطلة ، مثل صكوك الغفران ، والمطهر ،

---

(١) النيل — لمؤلفه : إميل لودفيج — ترجمة : عادل زعيتر ص ٥٨٤ — ٥٨٧ .

وغير ذلك مما ندد به لوثيروس الراهب الألمانى زعيم الإصلاح ومؤسس الكنيسة البروتستانتية فى القرن السادس عشر ؟

وقد كان من نتيجة هذا كله ذلك الفساد الذى استشرى ، وعم ربوع الإمبراطورية الرومانية التى تعرضت بسببه للغزو الأجنبى .

ولذلك تعرضت الإمبراطورية البيزنطية فى عهد هرقل لغزو الفرس ، ففى سنة ٦١٤ م اجتاح الفرس بلاد الشام واستولوا على أورشليم (بيت المقدس) وفى سنة ٦١٦ م استولوا على مصر .

ولم يشأ هرقل أن يستسلم لهذه الحروب من الجهتين : الشرقية (بلاد فارس) ، والغربية (الآفار) ، فأخذ يعد جيوشه لمحاربة الفرس ، وأخذت الحملة التى أعدها بنفسه طابعا دينيا لاسترداد الصليب الأعظم ، وبهذا الطابع الدينى تجهزت الحملة التى مكنت هرقل من توجيه ضربة قاصمة إلى الفرس . فقدم سنة ٦٢٦ م عبر سهول دجلة والفرات نحو قلب الإمبراطورية الفارسية حيث أنزل بكسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨م) هزيمة ساحقة فى ديسمبر سنة ٦٢٧ م قرب أطلال نينوى ، وعندما فر كسرى الثانى من ميدان المعركة لحق به هرقل إلى المدائن عاصمة الفرس ، مما أدى إلى قيام ثورة داخلية أطاحت بكسرى الثانى ، وجعلت خليفته يعقد صلحا مع الإمبراطور البيزنطى على العودة إلى الحدود التى كانا عليها من قبل سنة ٦١٤م .

على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك . إذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية حتى تعاقب على عرش فارس — فى فترة تسع سنوات تالية — أربعة عشر حاكما ، مما مزق أوصال الدولة الفارسية وجعلها مسرحاً للفتن والقلاقل الداخلية .

وفى ذلك الوقت تعرضت الدولة الفارسية لغزو من نوع جديد ، هو غزو لسحق الوثنية فى موطنها .

عن ابن عباس رضى الله عنه : « أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمى ، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فحسبت أن ابن المسيب قال : فدعا عليهم رسول الله عليه السلام أن يمزقوا كل ممزق » رواه البخارى ص٦ ج ٦ .

ذلك النوع الجديد من الغزو هو انسياب الجيوش العربية مؤمنة بربها ، ورسوله الكريم وبكتبه وملائكته وبرسله وباليوم الآخر ، حتى أنعم الله عليها بنصر رائع فى موقعة نهاوند سنة ٦٤١ م ، وبذلك دالت دولة الفرس لتصبح جزءا من الوطن الإسلامى العربى الكبير .

الباب التاسع

١ - العالم فى فجر الإسلام

« اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكم وأتممتُ عليكمْ نِعمَتي وَرَضيتُ لكمُ الإسلامَ دِيناً »(١) .

علمنا فيما سبق أن دولتى الفرس والروم كانتا فى شغل شاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهما ، مما صرفهما عن الاهتمام بما يجرى فى شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ سنة ٥٧٠ م تقريبا ، والحدث التاريخى للهجرة النبوية الشريفة سنة ٦٢٢ م تقريبا ، ثم ما تبع ذلك من إنهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى والنزاع القبلى التى عاش فيها العرب قرونا طويلة ، فقد أدى انتصار الإسلام إلى جعل العرب أمة واحدة ، متساندة متماسكة ، تخضع لحكومة واحدة تدين بدين واحد ، شعاره : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

على أن رسالة الإسلام لم يقصد بها العرب وحدهم ، بل العالم أجمع . ومن ثم أصبحت مهمة الرسول بعد أن تم له توطيد دعائم الإسلام فى بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق الإسلام قال تعالى : « وما أرسلناكَ إلاَّ كافَّةً للنَّاس بَشيراً ونَذيراً ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ »(٢) .

---

(١) المائدة : ٣ . (٢) سبأ : ٢٨ .

وقال تعالى : «وَأرسلناكَ لِلنَّاس رَسُولا وكَفى باللهِ شَهِيداً »[1]. وفى الحديث الشريف : « وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة » . وبهذا يتضح الفارق بينه وبين الأنبيا قبله .

وقد كتب الرسول كتبا إلى الأباطرة والملوك حوله ، يدعوهم إلى الإسلام دين الوحدانية . ومن كتبه كتاب رفعه إلى المقوقس حاكم مصر هذا نصه : « من محمد بن عبد الله ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنكمُ ، ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولاَ نُشرِكَ بِهِ شَيئاً ولاَ يَتَّخذَ بَعضُنا بَعضاً أرْباباً مِن دُونِ اللهِ ، فَإنْ تَوَلَّوْا فَقولُوا اشْهدُوا بأنَّا مُسلِمونَ »[2] .

وقرأ المقوقس الكتاب ، ثم طواه فى عناية وتوقير ، ووضعه فى حق من عاج ، ودفعه إلى واحدة من جواريه . والتفت بعد ذلك إلى حاطب بن أبى بلتعة يسأله أن يحدثه عن النبى ، ويصفه له . فلما فعل فكر المقوقس مليا ، ثم قال لحاطب : « قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى أظن أنه يخرج من أرض العرب ، ولكن القبط لا تطاوعنى ، وأنا أضن بملكى أن أفارقه » .

وقد كان من حب الرسول لمصر ولأقباط مصر ما دفعه أن يوصى بهم خيرا بقوله : « استوصوا بالقبط خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » . صدق رسول الله الكريم .

ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم النبى إلى ملوك الدول المجاورة

---

(١) نساء : ٧٩ . (٢) آل عمران : ٦٤ .

وحكامها قد صادموا إعراضاً بل امتهاناً ، مما جعل النبي الكريم يعد العدة ، ويأمر بأمره تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ »(١) .

وجاهد الصحابة فى سبيل الله جهاد حق وصدق ، ونظمت الجيوش العربية دفاعا عن كيانها وكرامة دينها ومبادئها ، وشعارها فى كل هذا : « لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله » ، « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » ، « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ، « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

وزحفت الجيوش العربية عقب سنة ٦٣٢ م تنقض على الإمبراطورية الرومانية البيزنطية ، فى عهد الإمبراطور هرقل . وعلى الدولة الفارسية الساسانية فى عهد ملوكها الذين يتعاقبون واحداً تلو الآخر ، فتسحق الدولتين ، وتتحقق نبوءة الملك نبوخذ نصر فى الحلم الذى رآه وفسره له النبي دانيال ، وهذا هو تفسير الحلم : « كنت تنظر وإذا بحجر يقطع من جبل بلا يدين هذا الحجر يسحق التمثال كعصافة تذروها الرياح » . هذا الحجر هو الأمة العربية فى شخص الرسول الكريم ، سحق حضارات الأمم السابقة ، ومنها الإمبراطورية الرومانية والدولة الفارسية الساسانية وأصبح الإسلام كالجبل وعلمه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وليس العجيب فى أمر الغزوات العربية الدفاعية ضد اعتداء الدول المعادية ـ

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

أن العرب اجترءوا على مهاجمة الفرس والروم وهما أكبر إمبراطوريتين عرفهما العالم بل التاريخ منذ فجر المسيحية حتى القرن السابع المسيحى — ليس العجيب هذا ، بل العجيب فى الأمر أن العرب غزوا فارس فى نفس الوقت الذى غزوا فيه إمبراطورية الروم ، واحرزوا انتصاراتهم الضخمة الرائعة على الدولتين فى وقت واحد ، إذ تحركت الجيوش الإسلامية فى صحراء فلسطين سنة ٦٢٩م على أثر انتهاء المعارك المريرة بين الإمبراطوريتين : الرومانية والفارسية ، وكأن الله قد أراد للأرض خيرا بانتصار المسلمين إذ خذل به الباطل والبطش والغرور بعد أن مهد لذلك بما كانت تعانيه الإمبراطورية الرومانية من غزوات البرابرة المهاجمين لأراضيها فى البلقان ، وحركات انفصالية أخذت تقوى عند أقباط مصر ، والآراميين فى سوريا ، والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هدد كيانها ووحدتها تهديداً خطيرا .

وفى خلافة أبى بكر الصديق أمر بتسيير جيشين : أحدهما لغزو الروم ، والثانى لغزو الفرس سنة ٦٣٣ م . وهكذا أخذت الجيوش العربية — بقيادة أبى عبيدة الجراح — تعمل فى الشام ضد الروم ، فى حين كان الجيش الثانى بقيادة خالد بن الوليد يعمل فى العراق ضد الفرس .

وقد حاول الإمبراطور هرقل إرسال قوة ضاربة بقيادة أخيه تيودور لإنقاذ الموقف فى فلسطين ، ولكن القائد العربى المغوار خالد بن الوليد أتى مسرعا من العراق لنجدة إخوانه بالشام ، وبذلك أمكن إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية فى موقعة أجنادين سنة ٦٣٤ م .

وعندما توفى الخليفة أبو بكر الصديق خلفه عمر بن الخطاب ٦٣٤ — ٦٤٤ م . الذى اتسمت فى عهده فتوحات الإسلام ، فاستولى المسلمون

على دمشق سنة ٦٣٥ م ، ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ ثار الإمبراطور هرقل ، وحشد جيشا من ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد بن الوليد أنزل بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ م هزيمة جديدة ساحقة .

ولما أدرك هرقل أنه من الصعب محاربة المسلمين ترك بيت المقدس تقع فى أيدى المسلمين سنة ٦٢٧ — ٦٢٨ م .

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة من انتصاراتهم على الروم ، ففى سنة ٦٣٧ م كان العرب قد فتحوا العراق ، وفى سنة ٦٤١ م أحرزوا انتصارا ساحقا فى نهاوند ، مما فتح الطريق أمامهم إلى قلب بلاد الفرس .

ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة فى وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان سنة ٦٥٢ م .

وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس كلها .

وكان العرب من قوة الإيمان والاستبسال فى الجهاد فى سبيل الله فى مستوى رفيع استطاعوا به فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤١ م ، أى قبل أن ينتهوا من فتح فارس ، ويعتبر فتح مصر بالذات مثلا واضحا على مدى ضعف الدولة الرومانية البيزنطية وانحلالها سياسيا .

ولعل ما عرف عن المسلمين من تسامح مع الشعوب المقهورة جعل تلك الشعوب تدرك أن خلاصها من الاضطهاد العنصرى والدينى الذى تلاقيه على أيدى البيزنطيين لن يكون إلا على أيدى هذه القوة الجديدة التى بدأت تتوغل

ى الامبراطورية الرومانية المتداعية ، وأخذ شعب مصر يترقب زحفها إلى مصر ، ويتمنى مجيئها .

ويؤرخ (إميل لودفيج)[١] انهيار الدولة الرومانية فى مصر بقوله : « لم يستطع جوستينيان أن يشمل النيل بعدله ، ولم يأل جوستينيان جهدا فى نصر النصرانية فحمل البدويين والبليميى ، وزنوج جوار دنقلة أيضا على العماد[٢] ، وكان هذا قبل ولادة محمد[*] بزمن قليل ، وما كان من نزاع بين المذاهب وضعف فى الحكومة البيزنطية قد اجتذب الفرس مرة ثانية ، فدام احتلالهم العاصمة عشر سنين ، ولكن القضاء على تلك الفوضى كان يتطلب أمة جديدة لم يقدر على استعبادها الأشوريون والفرس والمصريون والبطالمة والرومان .

« كان أولئك الناس يحملون عن شمالهم سيوفا طويلة ، وكانوا يحملون عن يمينهم سيوفاً قصيرة محدبة النصل داخلة فى منطق ، وكانوا يحملون تروسا مدورة ، وكان النبالة منهم يلبسون جوارب وأحذية مستوية ، وكان الفرسان منهم يلبسون جراميق وصدرات قصيرة وثلاثة أوشحة ملونة ملفوفة حول الخصر والصدر والرأس ، ويدخل العرب فى سنة ٦٤٠ م أى بعد وفاة محمد بسنين ثمان ، حظيرة التاريخ والدلتا عن انطلاق دينى حربى ، يدخلها أبناء البحر والصحراء هؤلاء ، يدخلها سكان شبه الجزيرة المجاورة هؤلاء .

« ويستولى عمرو بن العاص ، وكان قائدا لجيش الخليفة الثانى عمر ، على ميناء بيلوزة ، وهليوبوليس ومدن أخرى فى الدلتا . ويقوم عمرو بن العاص ويمد

---

(١) « النيل » لمؤلفه إميل لودفيج ترجمة : عادل زعيتر ص ٥٨٩ ، ٥٩١ .
(٢) العماد : الاسم من عمد ، وهو فريضة كنسية لغسل الولد أو البنت فى الكنيسة لاتمام المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس وذلك لاشهار نصرانيته .
(*) محمد : سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

نشيده مجداً لمصر ، بذلك العمل خلافاً لأمر مولاه عمر ، الذى قدر عدم كفاية أربعة آلاف فارس لذلك الفتح . ومن النادر أن تسفر مثل تلك المخالفة عن مثل تلك الفائدة ، ويدوم سلطان العرب هناك تسعمائة سنة بفضل تلك اليد القوية . . .

« ويلقى الفاتح حيرة فى قلوب البيزنطيين . . . وتقوم بيزنطة بآخر محاولة لاسترداد الإسكندرية فتجد جميع مصر مكافحة لها بجانب سادتها الجدد ، وتهدم أسوار الإسكندرية بعد أن ظلت عاصمة الدنيا ثلاثة قرون ثم عاصمة مصر وأم موانىء البحر المتوسط ستة قرون ، ويبدو جميع نصارى مصر أنصاراً شديدى الحمية للعرب الفاتحين ، الذين طردوا السادة الأجانب فتركوا للأقباط الابن الذى هو من جوهر الآب ، ولم يكرهوهم على عبادة إله واحد ليس ذلك الابن من جوهره .

« ويبنى حصن جديد ، يبنى الفسطاط بالقرب من منفيس وعلى رأس الدلتا ، وينقل نحو الشمال نقلا خفيفاً فى غضون القرون الآتية ، ويغدو عاصمة مصر ، ويطلق العرب عليه اسم إحدى السيارات مارس التى مرت فى ساعات إنشائه الأولى من دائرة نصف نهاره فيدعونه « القاهرة » .

ويقول سير أرنولد : « إن ميخائيل الأكبر اليعقوبى كان يرى فى فتح العرب المسلمين لمصر وفى انتصاراتهم المتلاحقة يد العدالة الإلهية التى بعثت لتثأر لما نال الكنيسة المصرية من تعذيب واضطهاد » .

ولقد أسرع المصريون إلى اعتناق الإسلام حبا وكرامة ، لتعاليمه الصافية ، وإيمانا منهم بأن المبادىء السامية التى يطبقها العرب المسلمون فى سلوكهم معهم جديرة بأن تكون جزءاً من حياتهم الاجتماعية .

ويسترسل إميل لودفيج[1] فيقول : « عاش السلاطين على شواطىء النيل مسالمين للنصارى قرونا كثيرة ، ويقع الصراع ذات حين ، وتصعب معرفة المسئول عن ذلك ، ولا عجب ، ما دمنا لا نعرف المسئول عن الحوادث المصرية فى الغالب ، ومع ذلك يلوح أن التبعة تقع على النصارى ، لما كان من رغبتهم فى حمل الناس على اعتناق دينهم ، وهل انتهك المسلمون حرمة بيت المقدس؟ كان المسيح خامس الأنبياء مرتبة لدى المسلمين ، وكان محمد(*) قد صرح بصحة دين اليهود والنصارى الأولين وبأن كتبهم المقدسة هى التى حرفت ، ولم يستول العرب وخلفاؤهم على مصر حملا لها على الإسلام ، وما كان من بدئهم بالهجرة إليها قبل محمد دفعهم إلى تلك الأرض الخصيبة الطيبة طلبا للحَب والجزية ، لا حبا لحمل الناس على دينهم ، وإذ كان العرب يجهلون لغة مصر مع عدم ثقافة فانهم تركوا إدارة مصر للأقباط الذين كانوا أقدر منهم على الحساب ، ويقوم الأقباط بفتن منعا لزيادة الضرائب فى الدلتا فيبدى العرب شدة ، وتصبح اللغة العربية لغة مصر الرسمية بعد قرنين فتحل بذلك محل اللغة القبطية ، ويكون الأقباط أول من يتعلم اللغة العربية .

« وكان النصارى معتدين عندما حفزهم مقصد نبيل إلى الاستيلاء على القبر المقدس ، ولكن القدس لم تظل نصرانية غير ١١٣ سنة من ثلاثة عشر قرنا ثم غدت قبضةَ المسلمين نهائيا » .

ولقد سار المسلمون فى نشر دعوتهم فى ضوء المبدأ الأساسى للإيمان وهو : « لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الْغَيِّ » . وليس هناك

---

(١) النيل لمؤلفه : إميل لودفيج ، ترجمة : عادل زعيتر ص ٦١٧ .

(*) محمد : سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

من دليل على تقدير المسلمين المواطنين ولو كانوا على غير دينهم وملتهم أوضح من سرعة انتشار الإسلام بين المصريين .

لقد استعادت الكنيسة القبطية فى مصر فى ظل الحكم الإسلامى قوتها ونفوذها ، وأصبح الأقباط فى مصر يؤدون طقوسهم الدينية فى حرية مطلقة ، بفضل المبادىء الإسلامية النقية الصافية : « لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ » .

هذه المبادىء السامية ساعدت العرب على الاستيلاء على قبرص سنة ٦٤٨ — ٦٤٩ م وعلى رودس سنة ٦٥٣ م ، بل هاجموا القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ذاتها سنة ٦٦٧ م ثم سنة ٦٧٢ — ٦٧٣ م ، فى حين انتهوا من غزو شمال أفريقيا بأكمله سنة ٧٠٩ م بفضل جهود موسى بن نصير .

ب — التوسع الإسلامى وأثره

« إِذَا جاء نَصرُ اللهِ والْفتحُ ، ورأيْتَ النَّاسَ يَدْخلُونَ فى دِينِ اللهِ أَفْواجاً ، فَسبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ واسْتغفِرْهُ ، إنَّه كَانَ تَوَّاباً »[١] .

كان للفتوحات الإسلامية الأثر البعيد فى البلاد التى دخلت تحت لواء الإسلام ، وظهر هذا الأثر بوضوح فى شمال إفريقيا ، إذ تحول شمال إفريقيا ومصر بأكملها من الحضارة اللاتينية إلى الحضارة العربية ، ومن الديانة النصرانية إلى الديانة الإسلامية .

---

(١) سورة النصر .

ولاعجب أن يسارع البرابرة ـ الذين طالما كانوا أشد عناداً فى حروبهم ـ إلى الاندماج فى تيار الحضارة الجديدة . ويصبحوا مسلمين . ولم يكن هناك أى تدخل من جانب السلطات الإسلامية الحاكمة فى عقائد المسيحيين المصريين أو كنيستهم ، ولم يحدث قط أن شكا أحد من المسيحيين من تعرض المسلمين له فى مجال نشاطه الدينى ، وفى هذا منتهى ما تصل إليه حرية العقيدة : أن تجد ـ على اختلاف منازعها ـ حماية كاملة من الدولة .

وقد ينسى الغرب الحروب المذهبية الدامية منذ عهد لوثيروس إلى القرن الثامن عشر ، ويأخذ على المسلمين فى عهد الدولة الأموية حركة التذمر التى سادت أقباط مصر ، والتى لم يكن من ورائها أى لون من ألوان الاضطهاد الدينى ، فهلا أخذ على الإمبراطور دقلديانوس أنه أذل المسيحيين ، وحاول إبادتهم ، حتى أن أقباط مصر ربطوا تقويمهم القبطى بهذا الاضطهاد الدينى الذى حل بهم .

وهل ينسى الغرب الاضطهاد الدينى السافر للعقيدة الذى جعل أقباط مصر يؤدون شعائرهم الدينية تحت الأرض أو فى أقبية بعيدين عن أنظار الرومان ؟ هل ينسى الغرب هذا كله وينسى ما حدث منذ ١٦٨٨ سنة ، شهداء[١] ، الموافق نهاية القرن الثالث الميلادى فى عصر الإمبراطور دقلديانوس .

الواقع يا عرب أن هذا التذمر الذى وقع من أقباط مصر فى عهد الدولة الأموية لم يكن وليد اضطهاد دينى ، بل كانت أسبابه ترجع إلى ظروف اقتصادية بحتة اكتنفت الدولة الأموية فى فترة من فترات توسعها السياسى والعمرانى ، وأرادت أن تعتمد فى نفقاتها على دخلها القومى ، مما استلزم فرض ضرائب على الولايات الإسلامية التى كانت مصر واحدة منها ، ولم تفرض هذه الضرائب

(١) شهداء ؛ التقويم القبطى .

على أقباط مصر فحسب ، بل عليهم وعلى المسلمين أيضاً ، وهذه هى العدالة المطلقة فى الواجبات التى تفرضها الدولة على المواطنين

بل أكثر من هذا يا غرب ، لقد استطاعت الأمة الإسلامية بعد توسعها السياسى شرقا وغربا — أن تقصم ظهور الأباطرة والملوك ، وأن تغسل سبعمائة سنة عاشها الغرب فى ظل الإمبراطورية الرومانية ، والشرق فى ظل الدولة الفارسية ، استطاع الإسلام أن يغسل عقول سكان تلك الأقاليم مما علق بها من عقائد فاسدة وتعاليم باطلة ، وتقاليد سقيمة ، استطاع الإسلام أن يضىء عليهم كضياء الشمس فى وضح النهار ، وكفى هذه الشعوب فى هذه الأقاليم أن تتمتع بالنور الربانى الذى يشعه عليها القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم .

وقد ازداد التوسع حتى بلـــغ سردينيا سنة ٧١١ م ، وإسبانيا سنة ٧١١ — ٧١٤ م .

وإن أثر العرب والإسلام فى تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند حد التغييرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف ، بل يبدو هذا الأثر أشد ما يكون وضوحا فى الميدان الحضارى .

والحضارة العربية الإسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين : هما اللغة العربية ، والديانة الإسلامية ، وما زالت السرعة التى انتشرت بها اللغة العربية والديانة الإسلامية لغزا يثير حيرة المفكرين .

فاللغة العربية ليست باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال إن سهولتها أدت إلى سرعة انتشارها من المحيط الأطلسى حتى الخليج العربى ، ومع هذا نجحت فى أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمنا طويلا باستثناء فارس . ولم يستطع الباحثون تفسير هذه الظاهرة : ظاهرة انتشار

اللغة العربية إلا فى ضوء انتشار العقيدة الإسلامية نفسها، وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بأصول اللغة العربية لأداء فروض الدين .

ويقول بيكر : « إن أوربا فى العصور الوسطى نظرت إلى انتشار الإسلام من وجهة النظر الكنسية الدينيه، وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع البلاد بالشام ومصر وأعالى العراق، وكانت كلها ترتبط بأصول مسيحية، فراحت تفسر انتشار الإسلام فى هذه البلاد بأنه لم يتم إلا بحد السيف » .

وهم بهذا الادعاء يعوهون على خوف ينتابهم ورهبة تسرى فى أوصالهم عند سماعهم للإسلام والعرب . وقد سجل التاريخ أنهم لم يكن لهم شأن يذكر حين احتضنهم العاهل الرومانى الإمبراطور قسطنطين بحمايته لهم وحماية عقيدتهم، وذلك باستصدار قانون بمرسوم ميلان سنة ٣١٣ م باعتبار المسيحية دينا رسميا للدولة، شأنها فى ذلك شأن الوثنية .

أما الإسلام فهو كالعملاق الذى ولد ولم يركن إلى حماية دولة من الدول، بل استمد مجده من الله الملك القهار، فهو كالعملاق الذى يحمى ولا يهدد، يصون ولا يبدد، وهو فى كل هذا يحرص كل الحرص على العزة والكرامة .

إزاء هذا لا يسعنى إلا أن آتى بوجهات نظر الغرب عن الإسلام وهم فئتان : فئة يتحاملون على الإسلام، وفئة تنصف الإسلام بتحريهم التاريخ الصادق من غير تحيز .

فالفئة الأولى : غربيون يتحاملون على الاسلام :

يقول بيكر، ويقول برنارد لويس، مستدلين بقوله تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا من رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وربٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

العَرِم وبدَّلناهُمْ بِجَنَّتَيهِمْ جَنَّتَينِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل »(١) .

يقولان : إن انهيار سد مأرب فى القرن السادس ، وما أصاب البلاد من تقلب الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ـ دفعهم إلى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الآراميون والكنعانيون ، والهجرات اللاحقة التى قام بها العرب عقب ظهور الإسلام .

ويشاركهما فى هذا الرأى توماس أرنولد ، ويشتد تحاملا عن سابقيه فيقول إن حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة ، دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها الجدبة ، وتجتاح بلاداً أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا .

ومن الواضح أن هذه الآراء تتضمن كثيرا من التضليل والبعد عن الحقيقة .

ومع هذا فلنستمع إلى الفئة الثانية ، إلى الغربيين الذين ينصفون الإسلام بتحريهم التاريخ الصادق من غير تحيز .

الفئة الثانية : غربيون يحققون التاريخ وينصفون الحق :

ليس أدل على إنصاف المسلمين وبيان حقيقة الغرض من أقوال قادة الحرب المقهورين ، فهذا هو الإمبراطور هرقل يسخط على الحاكم الرومانى ويندد بانكساره أمام جيوش المسلمين ، فيقول الحاكم مدافعا عن نفسه : « إنهم أقل منا عددا ، ولكن عربيا واحداً يعدل مائة من رجالنا ، ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ، ويكتفون بالقليل من الكساء والغذاء فى الوقت الذى يرغبون فيه فى الاستشهاد ، لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنة ، على

---

(١) سبأ : ١٥ ، ١٦ .

حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ، ونخشى الموت ، يا سيدى الإمبراطور » .

ويتحدث بيرون[1] مؤكدا أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت إلى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، فيقول : « إن الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغدا ، والعرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع الميلادى ينادون بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم » .

حقيقة أن الفتح الإسلامى أعقبه حركة أخرى للتهجير والاستيطان فى الولايات العربية الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ إلا بعد أن انتهت الحركة الأولى بنحو قرنين من الزمان ، تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى .

ومع هذا فإن بيكر « يؤكد أن النظرة السالفة التى مازال بعض المثقفين فى أوربا حتى اليوم يعتقدون صحتها ، بعيدة عن الواقع لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة ، بل فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير . فسيطرة العرب السياسية هى التى انتشرت بقوة السلاح أما الديانة الإسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها إلى قلوب عدد كبير من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود على السواء ، وهو تسامح لم يخطر على بال إنسان ولم يحظ به المسيحيون واليهود فى ظل حكامهم السابقين »[2] .

---

(١) Pirenne : A History of Europe, P. 47.

(٢) موسوعة كامبردج لتاريخ العصور الوسطى المجلد الثانى صحيفة ٣٣٠ .

« ولا شك أن روح التسامى والتسامح التى عرف بها العرب ، والتى لا يوجد لها نظير فى الشرق أو الغرب فى العصور الوسطى كان لها أكبر الأثر فى تفهمهم للحضارات الأخرى السابقة تفهما صحيحا واضحا ، وفى تفهم الأوروبيين والإفريقيين لحضارتهم تفهما مفيدا »[1] .

ذلك بأن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين، بل سمحوا للنصارى واليهود بالتتلمذ عليهم والاستفادة منهم ، فأقبل الأوروبيون فى الأندلس وصقلية ، والآسيويون فى الشام وغيرها ، على دراسة المعارف الإسلامية وترجمتها ، مما ساعد على نهضة أوربا فى العصور الوسطى .

نظرة إلى التاريخ :

أصبح الإسلام قويا بتضامن المسلمين ، ووقف العالم بأمره أمام الفتوحات الإسلامية وكأنه أمام لغز ، وعمل الكثير من العلماء والمؤرخين لفك طلسم هذا اللغز .

فالعرب الذين غزوا العالم الرومانى فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن كانوا أقل عددا من الجرمان الذين تدفقوا على الإمبراطورية الرومانية من قبل، ومع ذلك أذابت الحضارة الرومانية والعقيدة المسيحية تلك الشعوب الغازية فى ذاتها فتلاشت نهائيا ، فى حين كان الانتصار الساحق فى الجهات التى انتزعها العرب واستقروا فيها — مثل الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس — سبيلا إلى انتشار القرآن بنوره ، والإسلام بتسامحه ، فانتصر الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ، وما لبثت تلك الشعوب التى دانت للإسلام أن ذابت فى دين الله وصارت مع الفاتحين بنعمته إخوانا مسلمين متحابين .

(١) موسوعة كامبردج : أوربا العصور الوسطى ، المجلد الثانى صحيفة ٩٢ ، ٩٣ .

وهذه الظاهرة البارزة العظمى ليس لها سوى تفسير تاريخي واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم من الطاقات النورانية أو الحضارية ما يواجهون به القوة الرومانية والكنيسة الكاثوليكية وسطوتها الروحية والدنيوية ، فلم يلبثوا أن استوعبتهم الإمبراطورية الرومانية بحضارتها ، والكنيسة بعقيدتها فذاب الغزاة فى المجتمع الذى غزوه .

أما العرب فقد تقدموا وظهروا مزودين بعقيدة جديدة ، وديانة سماوية أدت إلى تماسكهم ، وحالت دون ذوبانهم فى المجتمع الجديد ، عاملين بقوله تعالى : « واعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقوا . . »[1] وقوله : « هُوَ الّذى أنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إيماناً مَعَ إيمانِهِم ، ولِلهِ جُنودُ السَّمواتِ والأرْضِ وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً »[2] .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ . (٢) الفتح : ٤ .

الباب العاشر

١ ـ لمحة من حياة محمد[1]

(ا) الرجل الكامل فى القرآن :

لقد طالما صور الكتاب فى مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل ، صوره الشعراء والكتاب والفلاسفة والمسرحيون ، صوروا هذه الصورة فى العصور القديمة وما زالون يصورونها حتى اليوم ، مع ذلك لن تجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذة التى وردت فى سياق سورة الإسراء ، وهى ليست إلا بعض ما أوحى الله إلى رسوله من الحكمة ، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل ، وإنما يقصد بها أن يذكر الناس بعض ما يجب عليهم . يقول الله تعالى :

« وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعبدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وبِالوَالِدَيْنِ إِحسَانًا إِمَّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحدُهُمَا أَوْ كِلاهُما فَلاَ تَقُلْ لَهمَا أُفٍّ ولاَ تَنهَرْهُما وقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيمًا . واخفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهمَا كَما رَبَّيَانِى صَغيراً ، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ للأَوَّابِينَ غَفُوراً . وآتِ ذَا القُرْبَى حقَّهُ والمِسْكِينَ وابنَ السَّبيلِ ولا تُبذِّرْ تَبذِيراً . إِنَّ المُبذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وكانَ الشَّيطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً . وإِمَّا تُعرِضَنَّ عَنهُم ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيسُوراً . ولاَ تَجعلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنقِكَ

---

(١) كتاب : (حياة محمد) — للدكتور محمد حسين هيكل صفحات ٥٣٤ — ٥٣٧ .

ولا تبسُطهَا كلَّ البسْطِ فتقعدَ مَلُوماً مَحسوراً . إنَّ رَبَّكَ يبسُطُ الرِّزقَ لِمَنْ يَشاء ويَقدِرُ إنه كانَ بِعبَادِهِ خبيراً بَصيراً . ولاَ تقتلوا أولاَدَكُم خَشيةَ إملاَقٍ نَحنُ نَرزُقُهم وإيَّاكُم إنَّ قتلهُمْ كانَ خِطئاً كبيراً . ولا تَقرَبُوا الزِّنَا إنَّهُ كانَ فاحشَةً وساء سَبيلاً . ولاَ تقتلُوا النَّفسَ التى حَرَّم اللهُ إلاَّ بالحقِّ ومَنْ قُتِلَ مَظلُوماً فقدْ جعلْنا لِوَليِّهِ سُلطاناً فلاَ يُسْرِفْ فِى القتْل إنَّه كانَ مَنصُوراً ، ولا تَقرَبوا مالَ اليتيمِ إلاَّ بالَّتى هِيَ أحسَنُ حتَّى يَبلُغَ أشُدَّهُ وأوْفُوا بِالعهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئولاً . وأوْفُوا الكَيْلَ إذَا كِلْتُم وزِنُوا بِالقِسْطاس المُستقيمِ ذلكَ خيرٌ وأحْسَنُ تَأْوِيلاً . ولاَ تَقْفُ مَا ليسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنّ السّمعَ والبصرَ والفؤاد كلُّ أولئِكَ كانَ عنهُ مَسئولاً . ولا تَمشِ فى الأرْضِ مَرحاً إنّكَ لَنْ تخرِقَ الأرْضَ ولنْ تَبلُغَ الجِبالَ طُولاً . كلُّ ذَلكَ كانَ سَيِّئهُ عِندَ رَبِّكَ مَكرُوهاً[1] » .

أى سمو بالنفس كهذا السمو ، وأى كمال لها كهذا الكمال ، وأى طهر للذيل كهذا الطهر ! . إن كل آية من هذه الآيات لتقف قارئها أمامها ، مقدسا لما جمعت من القوة والروعة وسحر البيان وسمو المعنى والإعجاز فى التصوير . وليت المقام هنا يتسع لهذه الوقفات ! .. ولكن كيف يتسع والحديث عما تنطوى عليه هذه الآيات الست عشرة جدير بأن يستوعب مؤلفا ضخما .

(ب) القرآن وأدب النفس :

ولو شئنا أن نجىء بطرف مما فى القرآن فى أدب النفس ، وتهذيب الأخلاق، لا نفسح المجال إلى ما لا تنفسح له خاتمة الكتاب وحسبنا أن نذكر أنه

(١) سورة الاسراء : الآيات من ٢٣ إلى ٣٨ .

ماحض كتاب على الخير والفضل ماحض القرآن ، وما سما كتاب بالنفس الإنسانية ما سما بها القرآن ، وما تحدث كتاب عن البر والرحمة ، وعن الإخاء والمودة ، وعن التعاون والوفاق ، وعن الصدقة والإحسان ، وعن الوفاء وأداء الأمانة ، وعن سلامة القلب وصدق الطوية ، وعن العدل والمغفرة ، وعن الصبر والثبات ، وعن التواضع والإذعان ، وعن الخير والمعروف ، وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالقوة والإقناع والإعجاز فى الأداء ، ما تحدث القرآن . وما نهى كتاب عن الضعف والجبن وعن الأثرة والحسد ، وعن البغض والظلم ، وعن الكذب والنميمة ، وعن التبذير والبخل ، وعن الاعتداء والإفساد ، وعن البهتان واللمز ، وعن الغدر والخيانة ، وعن كل رذيلة ومنكر ، ما نهى القرآن ، وبالقوة والإقناع والإعجاز التى نزل بها الوحى على النبي العربي .

وما من سورة تتلوها إلا وجدت فيها من الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والتوجه إلى الكمال ما تسمو به نفسك غاية السمو . اسمع إلى قوله تعالى فى التسامح : « ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ »[1] . ويقول الله تعالى : « ولاَ تَسْتَوِى الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وبينَهُ عَدَاوَةٌ كأنه وَلِىٌّ حَمِيمٌ »[2] .

ولكن هذا التسامح الذى يدعو إليه القرآن لا يدفع إليه ضعف ، وإنما يدفع إليه سمو الخلق وحرص على استباق الخيرات ، وترفع عن الدنايا .

---

(١) المؤمنون : ٩٦ . (٢) فصلت : ٣٤ .

ويقول الله تعالى : « وإذَ حُيِّيتُمْ بِتحِيةٍ فَحيُّوا بِأحَسنَ مِنها أوْ ردُّوهَا »(١) . ويقول تعالى : « وإنْ عَاقبتُم فعاقِبُوا بِمثْلِ ما عُوقِبتُمْ بِه ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لهُوَ خيرٌ للصَّابرِينَ »(٢) . وهذا صحيح فى أن الدعوة إلى التسامح دعوة إلى الفضل لا شىء من الضعف فيها ، وإنما هو السمو النفسانى الذى لاتشوبه شائبة .

هذا التسامح الذى يدعو القرآن إليه عن فضل ، إنما أساسه الإخاء الذى جعله الإسلام دعامة حضارته ، والذى أراد به أن يكون إخاء بين الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها . والإخاء الإسلامى يتضافر فيه العدل والرحمة من غير ضعف ولا استكانة . وهو إخاء تساو فى الحق والخير والفضل غير متأثر بالعاجل من المنافع ، بل يؤثر الآخذون به على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، والآخذون به يخشون الله ولا يخشون غيره .

وهم لذلك الإباء والأنفة ، وهم مع ذلك التواضع الجم ، الصادقون الموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، الصابرون فى البأساء والضراء وحين البأس ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا يصعر أحدهم خده ولا يمشى فى الأرض مرحا ، وقاهم الله شح أنفسهم ، لا يقولون على الله ولا على عباده الكذب ، ولا يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذ ما غضبوا هم يستغفرون ، يكظمون غيظهم ويعفون عن الناس ، يجتنبون كثيرا من الظن ولا يتجسسون ولا يغتاب بعضهم بعضا ، لايأكلون أموالهم بينهم بالباطل ، ولايدلون بها إلى الحكام ليأكلوا فريقا من

---

(١) النساء : ٨٦ . (٢) النحل : ١٢٦ .

أموال الناس بالإثم ، تتنزه نفوسهم عن الحسد وعن الخديعة وعن لغو القول وعن كل منقصة .

وهذه الصفات والأخلاق التى يقوم عليها أدب النفس ويهذب الخلق على مقتضاها ، إنما تستند إلى النظام الروحى الذى نزل به القرآن الكريم والذى يتصل بالإيمان بالله .

(ج) عظمة النبوة :

تظهر العظمة المحمدية فى هذا الجانب المشرق من حياة الدعوة . كيف استطاع أن يؤلف بين رجال تباينت أفكارهم وأمزجتهم وجنسياتهم .

ألغى الفوارق بينهم ، وصهرهم فى بوتقة الإسلام إخواناً متحابين يرفعون هذا الشعار الإلهى :

« يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وجَعَلْناكُم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعَارَفُوا إن أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقاكُم »[1] .

وكان حريصاً على تأديبهم وتفجير الطاقات الكامنة فيهم ، يهش لكل منهم كأنما يؤثره على الآخرين ، يأسرهم بحديثه وجمال خلقه وفهمه العميق لمعادن الرجال فيأخذون عنه دون شك . يقول لهم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ، ويقول : « خذوا عنى مناسككم » وكان دائب التربية والتوجيه لهم .

غذاهم بنور القرآن ، فكانوا يجلسون إليه ويتلقون عنه ، فإذا عادوا إلى منازلهم بادرتهم زوجاتهم : « كم نزل من القرآن ؟ وكم حفظتم من حديث رسول الله ؟ » .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

كانوا كما وصفهم القرآن :

« كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ . وبالأسْحارِ هُمْ يَسْتغفِرونَ . وفى أموالِهِمْ حَقٌّ للسَّائلِ والمَحرومِ »[1] .

أعدهم لتحمل الأعباء ونشر الدين فى الأرض : وسلحهم بكل أسلحة الحكم قادرين على سياسة الشعوب .

ولذا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ركز على الحجاز باعتبار مكة مركز الدائرة .

وإن محمداً فى ثلاثة وعشرين عاماً أسس دولة ، ووضع لها دستوراً ، ونشر الإسلام فى جزيرة العرب ، ولم يمض على موته قليل حتى دق الإسلام أبواب الدنيا ناشرا العدل والرحمة ، وجاء أبو بكر ليخضع الجزيرة لسلطان الدين ، وخرج عمر ليلتحم مع فارس والروم ويقضى على نفوذ أعظم دولتين فى ذلك الزمان .

ثم يركب المسلمون البحر فى عهد عثمان ومن بعده ، حتى أصبح البحر المتوسط بحيرة عربية ، وانتشر الإسلام فى كل أنحاء العمران .

غيرته على أصحابه :

كرمهم القرآن واعتبر الفوز لمن يحشر معهم :

« ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأولئكَ مَعَ الَّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهداءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفِيقاً »[2] .

---

(١) الذاريات ١٦ — ١٩ .   (٢) النساء : ٦٩ .

وقوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه »[1] .

٢ — الزواج والطلاق فى الإسلام

(١) الزواج فى الاسلام :

جاء الإسلام يسوى المرأة بالرجل فى كل الحقوق والواجبات ، فهى مكلفة بكل مايكلف به الرجل من العبادات ، وهى تبايع الرسول كما يبايعه الرجال سواء بسواء ، وهي سيدة نفسها لا تتزوج إلا برضائها ، وهى ترث من أبيها كما يرث الرجل ، وقد ترث فى بعض الأحوال أكثر مما يرث الرجل ، إن كان الرجل أباً أو عماً .

ووصل الإسلام فى رفع مكانة المرأة وتسويتها بالرجل إلى حد أن يقول القرآن الكريم : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وهكذا سوى فى الولاية بين الرجل والمرأة ، ويدخل فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالى والاجتماعى ، وولاية النصرة والحرية والسياسة ...

هذه هى روح الإسلام وجوهر تعاليمه ، ومع هذا فقد حشا المستشرقون والمبشرون كتبهم بالطعن على الإسلام ورسوله مستندين فى ذلك إلى ما أباحته الشريعة من حل التزوج بأكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية

(١) التوبة : ١٠٠ .　　(٢) التوبة : ٧١ .

ويفقهون كتاب الله وقواعده ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما ليس من شيمه .

وما اتفق خصوم الإسلام سيئو النية على شىء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الإسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة رسول الله ، وتمثيله لأتباعه فى صورة الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد ، وهى صورة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الإصلاح ، ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

واقد حاول خصوم الإسلام أن يجعلوا من مبدأ تعدد الزوجات وإباحته فى الإسلام سلاحاً يحاولون أن يحاربوه به . فكثيراً ما قالوا إن الإسلام يهدر كرامة الزوجة حين يبيح الرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، ويزيد من النسل الذى يؤدى إلى الفقر والعوز .

إن الثابت فى سيرة النبى ﷺ أنه ظل ذا زوجة واحدة حتى بلغ الرابعة والخمسين من عمره ، ثم أخذ يعدد زوجاته فى فترة امتدت من السنة الثالثة إلى السنة الثامنة من الهجرة ، وهذه الفترة هى التى تواصلت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين حتى انتهت بفتح مكة . ونتيجة الحروب المستمرة اختل التوازن العددى بين الذكور والإناث فى مجتمع المسلمين بالمدينة وأصبح من المحتم إعالة الأرامل واليتامى اللاتى سقط عائلوهن فى ميادين الجهاد .

وما كان لمصلح اجتماعى كالنبى صلى الله عليه وسلم أن يهتم فقط بإطعام الأرامل دون الاهتمام بحماية عفتهن وهو أعلم الناس بأن الغريزة الجنسية شىء مغروس فى الطبيعة البشرية ، وأن إهمال شأنها خليق بأن يؤدى إلى فساد المجتمع.

والغريزة الجنسية هى ماعبر عنها بولس فى رسالته إلى أهل رومية فى عرض حديثه عن المرأة وارتباطها برجلها وتحررها من رباط الزوجية . ومايتعرض له الأعزب من نوازع نفسية فيقول : « ولكنى أرى ناموساً آخر فى أعضائى . ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت »؟![1] . ولا نجاة للإنسان إلا بعصمته بالزواج الحلال الطيب ، كما بينه الإسلام

ولقد دافع ألفونس اتيين دينيه فى كتابه (محمد رسول الله) وفى رسالته (أشعة خاصة بنور الإسلام) عن مبدأ تعدد الزوجات دفاعا مجيداً ، فيقول فى مسايرة الطبيعة : لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التى لاتغلب ، وإنما هو يساير قوانينها ويزاول أزماتها بخلاف ماتفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة ، ومثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة ، فهم لا يتزوجون ، وإنما يعيشون غرباء . فيوصى بولس فى رسالته إلى أهل كورنثوس بقوله : «فأريد أن تكونوا بلا هم غيرالمتزوج يهتم فى ما للرب كيف يرضى الرب . وأما المتزوج فيهتم فى ما للعالم كيف يرضى امرأته »[2] . ثم يحفز المرأة الأرمل على التنكر لطبيعتها وغريزتها الجنسية فيوصيها بقوله : « المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا ، ولكن إن مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط ولكنها أكثر غبطة إن لبثت هكذا بحسب رأيى . وأظن أنى أنا أيضاً عندى روح الله »[3] .

على أن الإسلام لايكفيه أن يساير الطبيعة ، وألا يتمرد عليها ، وإنما هو يدخل على قوانينها مايجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا فى إصلاح ونظام

---

(١) رومية ٧ : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) ١ كو ٧ : ٣٢ — ٣٣ .
(٣) ١ كو ٧ : ٣٩ — ٤٠ .

ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير

والأمثلة العديدة لاتعوزنا ، ولكننا نقصد نأخذ بأشهرها ، وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع ، والذى جلب للإسلام فى نظر أهل الغرب مثالب جمة ، ومطاعن كثيرة .

ومما لاشك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحل الذى يستحيل تنفيذه؟

ومن هنا نادى بولس فى رسالته إلى تيموثاوس قائلا : « فيجب أن يكون الأسقف بلا لوم بلا امرأة واحدة .. يدبر بيته حسنا ، له أولاد فى الخضوع بكل وقار . وإنما إن كان أحد لايعرف أن يدبر بيته فكيف يعتنى بكنيسة الله؟!»[1] . الأمر الذى يفهم منه ضمنا أن الزواج بأكثر من واحدة كان قائما .

إذن لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع ، وهو دين اليسر ، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمراً باتاً .

والذى فعله الإسلام أول كل شىء . أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله : « فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فَواحدةً » .

وأى رجل فى الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات؟! ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ . ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعا هو غاية فى الرقة والدقة واللطف مع الحكمة .

ثم انظر هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة

---

(١) ١ تى ٣ : ٢ — ٥

والتوحيد فيها ، وتشددها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟! إن تعدد الزوجات قانون طبيعى ، سيبقى ما بقى العالم ، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يحقق الغرض الذى أرادته ، فانعكست الآية معها ، وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه . على أن نظرية التوحيد فى الزوجة . وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء ، تلك هى : الدعاوة ، وكثرة العوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين .

ولعل العلم الحديث قد أفصح عن الأهداف الإنسانية والعمرانية التى توخاها الإسلام فى تعاليمه بالنسبة إلى سماحه بالزواج من أكثر من واحدة ، فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال جينزبرج ووستر مارك أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع فى الشعوب المتأخرة .

وإن الشعوب التى كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة إنما كانت تتبع تقاليد لاتتصل بالدين من قريب أو بعيد ، كما أن الشعوب التى أجازت الزواج بأكثر من واحدة إنما أجازته طبقا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك إلى الدين

فلم يرد فى الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة . وإن الإسلام فى إباحته تعدد الزوجات قد أباحه فى حدود عينها لظروف حددها . وبقيود تجعل من العسير الأخذ به إلا فى حالات اضطرارية ويكفى لبيان فضل الإسلام وسمو أهدافه أن نقارن مبدأ تعدد الزوجات بالحلول التى يقترحها مفكرو أوربا وأمريكا اليوم لعلاج المشكلة الاجتماعية التى تنشأ دائما عقب الحروب بوجود عدد كبير من النساء اللاتى لا يجدن الزواج . والحل

الفضل لديهم حتى الآن هو إباحة العلاقة الجنسية وحماية الأمومة غير الشرعية :
والفرق بين الحلين هو الفرق بين مجتمعين يقوم أحدهما على أقوم المبادىء ويرغب في تأدية واجبه كاملا نحو أفراده ، بينما يتجاهل الآخر واجبه نحو صيانة الأسرة ، ويتساهل إلى حد بعيد في القيم الأخلاقية التي يجب أن تسود بين الناس .

وهو على كل حال زواج قانوني يكفل للمرأة ولأولادها احترام المجتمع ، وهو مالا يكفله لهم الحل الآخر مهما عملت الدولة على كفالة احتياجاتهم المادية.

وبالرغم من عدم تبين البعض لأوجه الحكمة في شرعة الإسلام بتعدد الزوجات ، فإنه في الأزمات الاجتماعية التي نشأت بسبب الحرب في كثير من نواحي العالم ما يبين بجلاء حكمة العلاج الذي وضعه الإسلام لمثل هذه الأزمات صونا لبناء المجتمع وحماية للمستوى الخلقي ، وذلك بمنح المرأة نصف بيت إذا تعذر عليها الحصول على بيت كامل . ونصف البيت هو بيت على كل حال ، وهو خير كثيراً من تركها بدون بيت ، وتعدد الزوجات الشرعي خير بلا شك من تعدد الزوجات غير الشرعي .

ولا شك أن العالم سيهتدي يوما إلى حكمة تعدد الزوجات . كما سيهتدي إلى حكمة الطلاق ، وهو الآخر موضع إنكار شديد .

أما تعدد الزوجات من الناحية الموضوعية فإن الإسلام لم يبتكره ، كما أنه لم يستعره ، فتعدد الزوجات من حيث هو نظام اجتماعي ، كان مألوفا أزمنة طويلة قبل بزوغ فجر الإسلام على شبه الجزيرة العربية والكتاب المقدس ملىء بقصص عن زوجات إبراهيم وسليمان :

«وأرسل داود وتكلم مع أبيجايل ليتخذها له امرأة . . فقامت وسجدت على وجهها إلى الأرض ، وقالت : هو ذا أمتك جارية لغسل أرجل عبيد سيدي . . »

وساوت ووراء وسل داود وصارت له امرأة . ثم أخذ داود أخينوعم من يزرعيل فكانتا له كلتاهما امرأتين ، فأعطى شاول ميكال ابنته امرأة داود لفلطى بن لايش الذى من جليم »[1] .

« فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا »[2] .

« وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل : لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري ، فأمالت نساؤه قلبه . . . وراء آلهة أخرى . فذهب سليمان وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين .. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن »[3] .

وأما المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن زوجاته بعد السيدة خديجة رضى الله عنها كن فى الغالب من الأرامل ذوات الأولاد لينفى كل شك فى الدافع الذى دعا إلى تعدد الزوجات فى صدر الإسلام ، ويبين أى غرض نبيل قام عليه هذا المبدأ

وإن التأمل فى موقف صدر الإسلام إزاء لأرامل ذوات الأولاد ليجلو لنا بوضوح نظرة الإسلام إلى الزواج واعتباره إياه واجباً على الأفراد نحو المجتمع يقابله واجب على المجتمع نحو الأفراد بتيسير الزواج لمن لا يجدنه كالأرامل والمطلقات .

---

(١) ١ صم ٢٥ : ٣٩ — ٤٤ .
(٢) ٢ صم ١١ : ٢٦ — ٢٧ .
(٣) ١ مل ١١ : ١ — ٨ .

وهكذا حرر الإسلام المرأة تحريراً كاملا ورد إليها إنسانيتها ، وانتشلها من العبودية إلى طريق العزة والكرامة ، فسوى بينها وبين الرجل فى جميع الحقوق . وقد علم الله من طبيعة خلقه أنه يمكن أن يعدل الإنسان القادر بين أربع فيؤدى لهن حقوقهن كاملة ، أما مازاد على ذلك فليس فى مقدور الإنسان من حيث هو إنسان . فمن خاف عدم العدل ، فلا يحل له أن يعدد الزوجات وإن أقدم عليه فهو آثم إثما كبيراً ، وكفى بذلك زاجرا للمسلمين ! ومن هنا يرى بعض الناس أن تعدد الزوجات يكاد يكون ممتنعاً فى نظر الدين :

« فإنْ خِفتُم ألاَّ تَعدِلُوا فواحدةً » .

فالذى صنعه الإسلام هو تقييد تعدد الزوجات وعدم التشجيع عليه .

وإن إباحة الإسلام الزواج حتى أربع زوجات ، هذه الإباحة تعد تقييدا لما كان سائداً قبل الإسلام ، إذ كانت البيئة العربية تغلب عليها الإباحية والفوضى فى الفروج إلى حد أن الزوج كان يبعث بامرأته إلى من ينكحها لتلد مثله ، وهو نكاح الاستطراق .

وكان التقييد بأربع قد قيده بتحذير إلهى : « فإنْ خِفتُمْ ألاَّ تَعدلوا فَواحدَةً » ، مما يتحتم معه من الناحية العملية الاكتفاء بزوجة واحدة .

ويقول العقاد : « قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية . قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط فلا ينبغى أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .

« فالنبى ﷺ أمكنه أن يسوس تسع زوجات ولم يؤثر عنهن خصام

أو نزاع الأمرات تعد على أصابع اليد . فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحا يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنسانى .

« ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى ﷺ مع نسائه ، واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية » .

هذه بعض الأسرار التى من أجلها شرع الله لنبيه أن يجمع بين عدد من الزوجات ، فلم يعدد النبى الزوجات لمجرد قضاء الشهوة وهو أكمل خلق الله أخلاقا وأعفهم نفسا وأزهدهم فى متاع الحياة الدنيا . وقد حرم الله عليه أن يتزوج غير نسائه أو يبدل واحدة منهن بغيرها . وقد عرفت أنه كان منهن الطاعنة فى السن ومنهن غير الجميلة ولم يكن من بينهن من يصح أن يستمتع بها سوى واحدة أو اثنتين فإذا كان محمد شهوانيا ، وكان يشرع لنفسه ما وافق شهوته ، فكيف يحرم على نفسه أن يتزوج ممن تصبو إليها نفسه ، ويلزمها أن تبقى مع من لا تشتهيه النفس عادة !!

إنه بهذا التشريع يعذب نفسه ولا ينعمها ، ألم يقل له : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » .

هؤلاء زوجاته اللواتى بنى بهن وجمع بينهن .. لم تكن واحدة منهن هدف اشتهاء كما يزعمون ، وما من واحدة منهن إلا كان زواجه بها أدخل فى باب

الرحمة وإقالة العثار والمواساة الكريمة ، أو لكسب مودة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة ، وهى بعد حديثة عهد بالدين الجديد . إنه الواجب . . واجب الدعوة أو واجب النخوة وشتان ذلك ومايتشدقون به ، من إثارة النزوة .

لارهبانية فى الاسلام :

واله لا يلخص مبادىء الإسلام فى الطريق الوسط ، إلا قوله تعالى :

« ومنْ آياتهِ أنْ خلقَ لكمْ منْ أنفسِكمْ أزْواجاً لتسْكنُوا إليهَا وجعَلَ بينكمُ موَدَّةً ورحْمَةً ، إنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ لِقوْمٍ يتفكَّرون »[1] .

« ولا تَقرَبوا الزِّنا إنَّه كانَ فاحشَةً وساءَ سبيلاً »[2] .

ومن هذه الآية الكريمة يتبين أن الحياة الإنسانية تقوم على أساس من الغريزة الجنسية ، واتصال الذكر بالأنثى ، ولكن الإسلام لايقاوم ذلك وإنما يماوكه فى ظل النظام والشرعية .

فلا حرج فى الزواج بل هو مندوب ومطلوب ليعمر الكون ، لكن الحرج كل الحرج فى أن يخرج الإنسان لإشباع غريزته عن السدود والقيود فيعتدى على أعراض الناس .

ويغلظ الإسلام فى عقوبة الزنا زجرا للناس وحفظا للحقوق والأنساب .

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه وصل إلى علمه أن نفراً من الصحابة نحوا نحو الرهبانية المسيحية ، فآلى بعضهم على نفسه أن يظل طول الدهر صائما ، وأقسم البعض الآخر أن يبيت الليل قائما ، بينما نذر البعض الثالث ألا يتزوج

---

(١) الروم : ٢١ .

(٢) الاسراء : ٣٢ .

النساء . فاشتد غضب الرسول على هذا النفر ، واستنكر ما هموا بفعله ، وقال قولته الخالدة التى قضت على الرهبانية فى الإسلام :

« أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم لله ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقال قوم لرسول الله : « إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال : أيكم يكفيه طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا ، قال : كلكم خير منه » .

وهكذا حيث تجعل البوذية والمسيحية الرهبانية هى أعلى صور الكمال الإنسانى ، فإن الإسلام يحث أتباعه على العمل ، والإنتاج والتعامل مع الحياة ، والاستمتاع بطيباتها ، ولكن فى اتزان واعتدال ، باتباع الطريق الوسط ، الذى ترسمه وتحدده عشرات ومئات من الآيات القرآنية ، التى تحض على الفضائل ومكارم الأخلاق والأدب العالى ، مما لخصته أكمل تلخيص ، وأوجزته إيجازاً معجزاً هذه الآية الكريمة :

« إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُرْبَى وَينهَى عنِ الفحْشاءِ والمُنكَرِ والبغْيِ يعظكُمْ لعلّكُمْ تَذكّرُونَ »[1] .

فشتان بين سماحة الإسلام وبين دعوة النصرانية للرهبنة :

« وأقول لكم إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى ، والذى يتزوج بمطلقة يزنى . قال له تلاميذه : إن كان هذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج . فقال لهم : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم ، لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل فليقبل »[2] .

---

(١) النحل : ٩٠ .

(٢) متى ١٩ : ٩ — ١٢ .

(ب) الطلاق في الإسلام :

إن خصوم الإسلام من المبشرين والمستشرقين يعتبرون الطلاق وصمة في جبين الإسلام .

ولقد أباح الله الطلاق للمسلمين لأنه قد تدعو إليه الضرورة القصوى ، أما حيث لا ضرورة فسماه النبي ﷺ أبغض الحلال إلى الله ، كما أن المسلمين اتفقوا على النهي عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال إنه نهي كراهة ، ومنهم من قال : نهي تحريم .. وقد نهى الرسول عنه في قوله : لاضرر ولاضرار .

أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا في بيان الأسباب ، قال ابن عابدين : وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أي الحرمة ، والإباحة للحاجة إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأي ومجرد كفران النعمة وإيقاع الأذى بالزوجة وبأهلها وأولادها . ولذا قالوا إلى سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق ، وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى :

« فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » ، أي لا تطلبوا الفراق .

والطلاق في الإسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج :

« الرِّجالُ قوَّامونَ على النساءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعضٍ ، وبما أنفقوا من أموالِهم » .

أما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا إلا للزنا ، كالأمة الإنجليزية ، فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الأمر إلى المحكمة ليفصل القاضي بينهما ، أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ، ثم وجدوا أن هناك

أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لا فرقة عندهم إلا بقضاء قاض .

ولا بد لجميعهم - يوما - أن يرجعوا إلى ما قرره الإسلام من الأسباب . حقا إن الشريعة الإسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ، وبعض الناس يرون أن الأول أعدل ، لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان ، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ، ولكن دين الإسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وأبعد مرمى ، فلم يفعل ذلك إلا لحكمة صالحة ذلك أن فى تعليق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا أقبح تشهير المقترف ، وأشنع سبة تنفر من مرتكبه القلوب ، وتشوه سمعته فى المجتمع .

ولا مجال للكثير من القول فى الطلاق . فالواقع أن الشكوى ترتفع من الإجراءات نفسها لا من المبدأ ذاته ، ويكفى أن نتأمل الآيتين الكريمتين :

« وإنْ خِفتُمْ شِقاقَ بينهمَا فابعَثوا حَكَماً منْ أهلِهِ وحَكَماً من أهلِها إنْ يُريدَا إصلاحاً يُوفِّقِ اللهُ بينَهمَا إنَّ اللهَ كانَ عَليماً خَبيراً »[1] .

هذا ، والديانة المسيحية لم تمنع الطلاق ، وغاية ما ورد فى الإنجيل أن « من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى »[2] . وذهبت المسيحية إلى أن توصى المرأة بعدم مفارقة زوجها أو تصالحه إذا فارقته: « وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب ألا تفارق المرأة رجلها وإن فارقته فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها ولا يترك الرجل امرأته »[3] . وذهبت المسيحية إلى حد الترغيب فى التبتل للحد من المشاكل والضيقات : « وأما العذارى فليس عندى أمر من الرب فيهن ولكننى أعطى رأيا كمن رحمه

(١) النساء : ٣٥ . (٢) متى ٥ : ٣٢ . (٣) ١ كو ٧ : ١٠ — ١١ .

الرب أن يكون أمينا ، فأظن أن هذا حسن بسبب الضيق الحاضر إنه حسن للإنسان أن يكون هكذا »[١] .

وتنادى بعدم الانفصال : « أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال »[٢] .

وفى حالة الانفصال لا يجوز للمنفصل أن يتزوج : «أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة »[٣] .

وهذا المذهب تأخذ به الكنيسة الكاثوليكية وتتشدد فيه

وكل ما ذهبت إليه المسيحية من تقنين أو تشريع فهى لم تتعرض لحكم الطلاق أصلا .

وكان الطلاق قبل الإسلام منتشراً فى جميع أمم الشرق ، لافرق بين يهودى أو مسيحى أو وثنى ، وكذا بين الرومانيين ، فلقد اعتبر قانون «الموائد الاثنى عشرة » الطلاق جائزا . ولعل الرومانيين فى أخريات أمرهم أصلحوا كثيرا من شأن المرأة وأنصفوها . فإنهم بإجازتهم الطلاق إنما أرادوا حماية إنسانية المرأة ، لأن الرجل فى القرون الأولى كان لابد له أن يقتل امرأته عقاباً لها على بعض الجرائم كالسكر . فكانت عند الرجل كالأمة ، كما أنها إذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها .

ويقول الأمير على فى كتابه « سر الإسلام » إن المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق إلا بحكم القاضى الشرعى العادل ، فلا بد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز

---

(١) ١ كو ٧ : ٢٥ — ٢٦ . (٢) ١ كو ٧ : ٢٧ .
(٣) ١ كو ٧ : ٢٧ .

فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا . وهو ما يتجه التفكير إليه الآن في بلادنا .

ومن هنا يظهر أن من طوائف الإسلام من يعلقون الطلاق بحكم القاضي ، فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج إلا بعد محاسبته وامتحان الأسباب التي يبديها للفرقة . وإن من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الأولى والثانية ، حتى يتروى ويتدبر ويرجع إليه رشده ، حتى إذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره ، لما تبين من أنه سفيه الرأي ضعيف العزم ، قال تعالى :

« فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » .

ومن هنا نجد أن الأصل في الطلاق التحريم إلا لسبب .

ذلك أهم ما عني به المبشرون والمستشرقون من المطاعن في الدين الحنيف وصاحبه ، وتجاوزوا حد الأدب مع خير دين ، وخير الرسل وخاتمهم .

أشهـــر المراجع

١ — القرآن الكريم .

٢ — الكتاب المقدس : (ا) الطبعة الأمريكية ببيروت .

(ب) الطبعة اليسوعية .

٣ — تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط : للأستاذ يوسف كرم .

٤ — أوربا العصور الوسطى « التاريخ السياسى » :

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

٥ — المسيح قادم : للدكتور على عبد الجليل راضى .

٦ — أبو بكر الصديق : للدكتور محمد حسين هيكل .

٧ — قصص الأنبياء : للأستاذ عبد الوهاب النجار .

٨ — حياة محمد : للدكتور محمد حسين هيكل .

تنـويـه

ينبغى أن أثبت تقديرى وشكرى العميق للسادة الأساتذة الذين كرموا العالم الإسلامى بمؤلفاتهم وترجماتهم ، الذين وضعوا بين يدى نصوصا بعضها فرنسى وبعضها إنجليزى لم يكن يسيرا حصولى عليها ، وكتبهم المشار إليها بقائمة المراجع وفيها ترجمة لتلك النصوص .

إبراهيم خليل أحمد

محتويات الكتاب

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

الباب التاسع

الباب العاشر

كتب المؤلف

الناشر مكتبة الوعي العربي

١ – إسرائيل فتنة الأجيال « العصور القديمة » .

٢ – إسرائيل فتنة الأجيال « العصور الحديثة » .

٣ – الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية .

تحت الطبع :

١ – إسرائيل والتلمود « دراسة تحليلية » (طبعة ثانية)

الناشر

مكتبة الوعي العربي

٥ شارع كامل صدقي بالفجالة

